سلسلة علم اجتماع العالم الثالث

بول ف. لازرسفيلد

الاتجاهات الأساسية
في
علم الاجتماع

تعريب

دكتور
أحمد النكلاوي
أستاذ علم الاجتماع المساعد
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دكتورة
عواطف فيصل ياسين
أستاذة علم الاجتماع المساعد
كلية التربية بمكة المكرمة جامعة الملك عبد العزيز

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
بجوار جامعة القاهرة

هام :

هذه النسخة من الكتاب مخصصة فقط

للأشخاص الذين لا يستطيعون الحصول النسخة

الأصلية

dz-sociologie.blogspot.com

http://www.facebook.com/dz.sociologie

سلسلة علم اجتماع العالم الثالث

بول ف. لازرسفيلد

الاتجاهات الأساسية في علم الاجتماع

تعـــــريب

دكتور
أحمد النكلاوي
أستاذ علم الاجتماع المساعد
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دكتورة
عواطف فيصل ياسين
أستاذة علم الاجتماع المساعد
كلية التربية بمكة المكرمة جامعة الملك عبد العزيز

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
بجوار جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

إقرأ باسم ربك الذى خلق (١)
خلق الإنسان من علق (٢)
إقرأ وربك الأكرم (٣) الذى علم
بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥)

[قرآن كريم] [سورة العلق آية ١ - ٥]

الإهـــداء

إلى خالد ونـــوف

أمل الغد فى مستقبل عربى كريم

نهدى هذا العمـــل ؟

هذه ترجمة كاملة لكتاب :

Main Trends in Sociology

تأليف

P.F. Lazarsfeld

طبعة عام ١٩٧٣ عن مؤسسة

William Clowes & Sons Limited

بانجلترا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة العربية

يسعدنا أن تكون باكورة اعمالنا المشتركة فى سلسلة « علم اجتماع العالم الثالث » مؤلفا لواحد من أشهر علماء الاجتماع فى العالم الغربى عموما هو « بول ف· لازرسفيلد » ، خاصة وانه يتناول أهم قضايا علم الاجتماع قاطبة وهى قضية المنهج · واذا كان المنهج العلمى ـ بوجه عام ـ يكاد يتفق العلماء حوله بانه المسلك الذى يتحقق بمقتضاه للعمل أو الانشغال الانسانى صفته كعلم ، فانه يعد من خلال هذا المنطلق الموضوع الذى لا تعلو عليه موضوعات أخرى ·

ولقد رأينا أن نبدأ سلسلتنا بكتاب عن المنهج لأسباب خمسة هى :

أولا : أن سسيولوجيا العالم الثالث أو المجتمعات النامية يتعذر عليها أن تسفر عن نتائج ذات قيمة بالنسبة للتطور الذى تنشده تلك المجتمعات ، مع غياب الالمام بمجموع الاتجاهات الأساسية فى علم الاجتماع والانتهاء منها الى موقف منهجى أكثر لياقة ومنطقية مع خصوصية مجتمعات هذا العالم ·

ثانيا : تعانى المكتبة العربية فى علم الاجتماع من ندرة بالغة فى المؤلفات التى تعالج قضية المنهج فى علم الاجتماع بشكل متكامل · فلم يوجد من بين الباحثين العرب من تصدى لمعالجة هذه القضية بتشعباتها الأساسية وبفهم متكامل سوى نفر قليل جدا نخص منهم بالذكر ـ فى مصر ـ الأستاذ الدكتور محمد عارف عثمان فى مؤلفه « المنهج فى علم الاجتماع » ·

ثالثا : ـ غياب النظرة الحضارية المقارنة لدى الباحثين عند معالجتهم لموضوع المنهج فى علم الاجتماع · وهى النظرة التى من شأنها أن تثرى الفهم لطبيعة المعوقات التى تقابل مسلك أو منهج البحث العلمى الاجتماعى والقيود المفروضة عليه ، فضلا عن أنها تزيد من عمق الرؤيا للاتجاهات المنهجية المسيطرة

داخل أقاليم العالم المختلفة والاسهامات التى قدمتها تلك الاقاليم فى ميدان تقدم الفهم المنهجى كفلسفة للبحث الاجتماعى • وبالاضافة الى هذا وذاك فان النظرة الحضارية المقارنة تعكس باستمرار أشكالية علم الاجتماع ، عموما وفى العالم الثالث خصوصا كما تتجلى فى علاقة الأيديولوجية بالصياغات والتفسيرات النظرية الاجتماعية المطروحة المرتبطة بقضايا المجتمع •

رابعا : رغم أن الموضوع الرئيسى الذى يدور حوله مؤلف « لازرسفيلد » يتحدد فى طرح الاتجاهات الاساسية فى علم الاجتماع ، فانه قد عالج من خلال منظور المنهج عدد من القضايا الهامة كقضية النظرية الاجتماعية والجهود السسيولوجية القائمة فى ميدان البحث الاجتماعى وتباينها بتباين أقطار العالم الى جانب رصد العلاقة التبادلية بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الاخرى الامر الذى حقق لهذا المؤلف درجة فائقة من المعالجة الشمولية •

خامسا : ـ نقل مصادر الخبرة العالمية فى موضوع المنهج الى طلاب الدراسات الاجتماعية عموما وطلاب علم الاجتماع خصوصا بل ونقل هذه الخبرة الى سائر المشتغلين والمهتمين بقضايا البحث الاجتماعى والتنمية عموما •

انطلاقا من مجموع هذه الاسباب ـ وقد وقع اختيارنا على مؤلف لازرسفيلد « الاتجاهات الأساسية فى علم الاجتماع » طبعة ١٩٧٣ ـ يأتى تعريبنا لفصوله أمينا سلسا حتى تتحقق الغاية المنشودة من ورائه • وقد قامت الأستاذة الدكتورة عواطف فيصل بيارى ، استاذة علم الاجتماع المساعدة بكلية التربية بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ، بتعريب القسم الأول من هذا المؤلف بدءا من المقدمة حتى نهاية عرض نظريات المدى المتوسط بالفصل الثالث من هذا المؤلف وقد قام الاستاذ الدكتور أحمد النكلاوى أستاذ علم الاجتماع المساعد بكلية الآداب جامعة القاهرة بتعريب الاجزاء المتبقية من المؤلف ابتداء من الاتجاه الماركسى فى الفصل الثالث حتى نهاية الفصل الخامس •

وانا لنرجوا أن يلقى القارىء العربى على امتداد الساحة العربية فى هذا العمل ما يمكن أن يشبع لديه بعض من فضوله العلمى •

والله ولى التوفيق ،،،

دكتورة / عواطف فيصل **دكتور / احمد النكلاوى**

مقدمة المحرر

تناولت اول سلسلة فى مجموعة مكتبة « لونجمان » « ملامح من علم الاجتماع الحديث » ، قضية البناء الاجتماعى لبريطانيا الحديثة ، ولقد كانت تلك السلسلة مخصصة للدارسين الذين يتابعون بعض البرامج فى الجامعات والمعاهد الفنية ككليات التربية وفى غيرها من الجهات ، كما كانت موضوعة للراغبين من الجمهور العريض المهتمين بطبيعة وبناء المجتمع البريطانى ٠

ولقد صدرت سلسلة أخرى لدراسة تاريخ وأهداف وفنون ومعوقات البحث الاجتماعى ٠ اما عن هذه السلسلة الثالثة فهى تتناول عددا من العمليات الاجتماعية الرئيسية ٠ واذا كان تناول كل عملية من تلك العمليات يتسم بالطابع التحليلى اساسا ، فان كل عنوان سوف يحاول أن يتضمن رؤيا معينة ٠ ولنه لمن المأمول فيه ان تنجح تلك الكتب المدخلية نسبيا فى أن تلقى اهتماما من جانب القارىء العادى الى جانب الدارسين فى ميادين التربية العليا ٠

مقـــدمة المؤلف

يختلف علم الاجتماع عن العلوم الاجتماعية الاخرى نظرا لارتباط اتجاهاته المعاصرة بتاريخ تطوره • فعلى حـين استطـاعت بعض العلوم الاخـرى كعلـم الاقتصاد وعلم النفس تنويع مجالات بحثها وتحسين أدواتها فى البحث ظلت مشاكلها كما هى ، فاننا نجد مشاكل علم الاجتماع تختلف الآن عما كانت عليه منذ خمسين عاما وما زالت مستمرة فى تغـيرها •

وقد ساعد على نشأة علم الاجتماع بعض العلوم الاجتماعية الاخـرى التى أستطاعت أن تطور مجالات بحثها ، وتطلبت نوعا من النشاط الفكرى لم يكن موجودا من قبل ، ويتحدث هوبهاوس عن مصادر ثلاثة لعـــلم الاجتماع منهم الفلسفة السياسية وفلسفة التاريخ نظرا لنشأتهما القديمة • وقد كشف هذين المصدرين الحاجة الى الحقائق المـلموسة المنظمة التى يمكن مقارنتهـا عـبر الزمان والمكان •

ولقد كان لابد للحصول على تلك الحقائق أو المعلومات الواقعية من وجود علم جديد (علم الاجتماع) ارتبط الى حد بعيد بالمصدر الثالث الـذى أســـهم اساسا فى قيامه والمتمثل فى مجموعة الافكار التطورية التى قدمها لنا علم الاحياء•

واذا كان المفكر الانجليزى ـ هوبهاوس ـ قد رأى أن علم الاجتماع يعد جزءا او فرعا مكملا للعلوم الاجتماعية الاخرى، فان الكاتب الالمانى شليكسكى Schelsky يرى أن علم الاجتماع قد اخذ على عاتقه مهمة القيام ببحث ما تبقى من العلوم الاجتماعية الاخرى بعد ما امعنت فى تخصصها وضيقت من مجـالات بحثهـا • فالاقتصاد لا يهتم الا بالمتغيرات التى يمكن معالجتها رياضيا ، كما ضاق مجال البحث للفلسفى وغدى مقتصرا على مناقشة القضايا التصورية المنطقية •

ويطالعنا المفكر الامريكى منسبيت Nesbit • بوجهة نظر براجماتية تتلخص

فى أنه بعد أن ألغت الثورة الفرنسية النظم الاجتماعية القديمة وفشلت فى ايجاد نظم بديلة لها جاء رواد علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر محاولين ايجاد حلولا للمشاكل التى نجمت او نشأت عن ظروف التحول الذى عاشته المجتمعات الأوربية فى تلك المرحلة • فقد حاولوا خلق احساس جديد بالجماعة ، كما حاولوا تفسير مشكلة الاغتراب التى كانت تعانى منها المجتمعات الصناعية نتيجة لظروف التصنيع ، كما حاولوا حل المشاكل المترتبة على البناء الاجتماعى الراسمالى المتفكك •

وعلى أية حال فقد اتفق معظم الكتاب على أن علم الاجتماع قد نشأ لملء المساحات الشاغرة على الخريطة الفكرية اكثر مما نشأ حول موضوع ايجابى محدد • ولا يبعد هذا التعبير المجازى عن الواقع ، اذ ان علماء الاجتماع ـ فى الآونة الحاضرة ـ أما انهم يتناولون المجتمع ككل وبالتالى يحاولون ايجاد علاقات بين وحداته الرئيسية ،الدولة والاقتصاد والدين على سبيل المثال واما انهم يركزون على العناصر المشتركة بين هذه الوحدات • ومن هذه العناصر السلوكيات ودور الجماعات القيادية فى التاثير على الافراد واتجاهاتهم •• الخ•

ويلاحظ « ارون Aron » ان علم الاجتماع له مجالات بحثه المحددة شأنه فى ذلك شأن العلوم الاخرى رغم محاولته احتواء كل المجتمع • ويطلق ارون على هذا الاتجاه الاخير لفظ الاتجاه التركيبى فى مقابل الاتجاه العلمى • ومن الجدير بالذكر انه كثيرا ما يغلب أحد هذين الاتجاهين على الآخر من وقت لآخر بل ومن دولة لأخرى •

مما تقدم يتبين انه كان لابد لى عند القيام بهذه الدراسة ان اتبع أحد طريقتين :

١ ـ مراجعة النتائج الامبريقية الاجتماعية الامر الذى كان سيؤدى الى وجود قائمة لا نهاية لها من الموضوعات •

٢ ـ القيام بعملية حصر للمفاهيم الاجتماعية الاساسية الواردة او الشائع استخدامها • ولقد وجدت ان هذا الكتاب لن يكون افضل حالا اذا التزم بالطريقة

الثانية نظرا لوجود كثير من التباينات والتقسيمات الاجتماعية والسياسية والقانونية وكذلك وجود عددا لا نهائيا من المفاهيم كالجماعات المرجعية والادوار والتقسيم الطبقى والتنشئة الاجتماعية ... الخ . كما يلاحظ ان مجموع هذه المفاهيم لن تكون فيما بينها نظرية متكاملة للمجتمع .

واذا كان لابد لى من اختيار طريقة تصلح لمناقشة هذا التاريخ غير المستقر المتنوع لعلم الاجتماع فقد اهتديت الى اختيار مواضيع البحث التى اهتم بها علماء الاجتماع بغض النظر عن الاهداف المحددة من وراء هذه المواضيع . وعلى الرغم من عدم امكانية تقنين هذا الاختيار الا انه سيمكننى من ايجاد نوع من الترابط الفكرى باثارة المشاكل الاجتماعية ومحاولة تفسيرها بغية الوصول الى سبل بحث جديدة لاقامة نظرية اجتماعية متكاملة . اما كيف تم اختيار المواضيع فان ذلك يرجع ـ لسوء الحظ ـ الى وجهة نظرنا نحن لم استطع تجنبها .

سابدأ هذا الكتاب بفصل أحاول فيه ازالة سوء التفاهم القائم بين علماء الاجتماع الأمريكيين وزملاؤهم فى الدول الأخرى . فلم تلق الأبحاث الامبريقية التى أجريت ونشأت فى الولايات المتحدة اهتماما من جانب المفكرين ذوى الطبيعة الفلسفية والانسانية . ولم يكن هناك ما يبرر سوء التفاهم هذا خاصة اذا وضعنا فى الاعتبار ازدياد الابحاث الامبريقية الاجتماعية التى ساطلق عليها اسم البحوث المسحية . ولسوف أحاول فى هذا الفصل تتبع تلك الابحاث واسهاماتها فى التراث الفكرى الاجتماعى العام . كما سوف أقوم باختيار الامثلة الملموسة ليس لما يتضمنه محتواها من أهمية انما باعتبارها أمثلة توضيحية للقضايا الفكرية التى أناقشها .

ننتقل فى الفصل الثانى الى مرحلة مختلفة من مراحل تطور العمل الامبريقى فقد خلق الانتشار الواسع للمسوح الاجتماعية حركات مضادة واهتماما متجددا بالوحدات الاجتماعية المعقدة التى غدت نقطة البداية فى بحوث علم الاجتماع ، ولقد تم فى هذه المرحلة تحسين وسائل البحث الامبريقى الامر الذى ادى بدوره

الى تحرك الأبحاث تجاه تناول مشاكل اجتماعية محددة يمكن دراستها بدقة ، وسيناقش هذا الفصل بالاضافة الى ذلك الاسباب التى أدت الى استمرار اهتمام علماء الاجتماع بالاتجاه الماكروسسيولوجى · واسهاماته المختلفة ·

ولا شك ان هناك خلافا واضحا بين معالجتى للفصل الاول والفصل الثانى · ومرجع هذا الاختلاف هو أن وسائل التحليل المسحى أصبحت معروفة ولم يبقى الا ايجاد نوع من الوعى بمضمونات هذه الوسائل ، أما الاتجاه الماكروسسيولوجى فما زال يضع أدواته ويحاول علماؤه اعادة النظر فى المشاكل القديمة فى نفس الوقت الذى اتجه فيه أنظار العلماء الى الاهتمام المتزايد بمناهج البحث وبتنوع المعلومات الاجتماعية الماخوذة من الواقع · وسوف يحاول هذا الفصل تناول هذا الاتجاه وتوضيحه ·

ومن التقاليد المتبعة فى اطار هذا المؤلف ان نبدأ بمناقشة النظريات الاجتماعية المختلفة محاولة للتعرف على مدى صحتها وذلك من خلال ما اثبتته التجارب العملية ، لكننا نعتقد أن هذا الضرب من التقليد سيبعدنا عن واقع علم الاجتماع وان كان سيقترب من طموحاته ·

لهذا جاء الفصل الثالث لا الأول بعنوان « البحث عن نظرية » ·

وجدير بالذكر انه ليس هناك اتفاق عام حول معنى أو مضمون اصطلاح «نظرية» · فقد أخذ فلاسفة العلوم اصطلاح «نظرية» من العلوم الطبيعية التى يعرفونها جيدا وان كانت لا تنطبق اى من معانى نظرية العلوم الطبيعية على ما نعرفه بالنظرية الاجتماعية · ولا يمكننا التنبؤ الآن باحتمال صياغة نظرية اجتماعية فى المستقبل · ولقد جعلنى هذا الامر أنظر الى ما تم فى علم الاجتماع على انها جهود أكثر منها منجزات فى اطار محاولة ايجاد نظرية اجتماعية · واعتقد أن الكثيرين من زملائى يشاركوننى هذا الأمر خاصة فيما يتعلق بنظرية المدى الوسيط Theory of the middle range التى بدأت شرحها فى الفصل الثالث ثم تناولت الماركسية والوظيفية وهما يقتربان من المعنى التقليدى لهذا الاصطلاح · وقد وجهت اهتمامى الى وصف تطورات مختين الاتجاهين فيهيلم

الاجتماع الماركسى يمثل نوعا من التلقى التدريجى للابحاث الامبربقية الاجتماعية كما ركزت الوظيفية على بعض المواضيع الاساسية التى يحتمل ان تثير اهتمام التحليل الاجتماعى ٠

ولما كانت كل من الماركسية والوظيفية تنتميان الى كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فقد حاولت ابراز نظرية ثالثة تنتمى فى اصولها الى دولة اخرى ولقد اخترت موضوع علم الاجتماع النقدى الذى اثار او اهتم به زملاؤنا الالمان كما كان له صدى ضعيفا فى فرنسا ومهما يكن من امر ذلك وسواء كنا نعرف هذا العلم أم لا نعرفه فان الدارسين الثوريين فى سائر انحاء العالم قد تاثروا به ٠

ولما كانت مناقشة النظرية الاجتماعية قد افرزت بدورها تباينات قومية مختلفة فان الفصل الرابع فى هذا المؤلف يهتم بهذه الفروق القومية ٠ ولقد كتب هذا الفصل بالتعاون مع توماس شبرد T. Shebard احد أعضاء سكرتارية اليونسكو ٠

وقد بدأت تظهر فى كل دولة بعض الظنون المتعلقة بالأبحاث الامبريقية التى استندت على وسائل البحث الأمريكية ٠ وقد على الكثيرين ان هذه الوسائل قامت وتطورت فى اوروبا وان لم تصل الى مستوى الوقار الأكاديمى ، اذ وجدت أرضا خصبة فى امريكا مما شجع الجهود الخاصة فى دخول هذا المجال ٠ وقد عجل من هذه الابحاث النمو السريع للمدن والموجات المتزايدة من المهاجرين التى جعلت الابحاث الاجتماعية ضرورة حتمية ٠ ومن ثم غدى علم الاجتماع أحد العلوم الاساسية فى مناهج التعليم الجامعية مما أدى الى تخرج آلاف الباحثين الامريكيين علم حين لم يتخرج فى أوروبا الا بعضا قليلا من هذا العدد الذى عرفته أمريكا ٠

ومن الجدير بالذكر أن اعادة الوسائل الامبريقية الى أوروبا الغربية وانتشارها فى أجزاء اخرى من العالم يرجع الى الرغبة فى المحاكاة وكذا الى تطور الظروف الاجتماعية التى ماثلت الظروف الامريكية ٠ ورغم ذلك فقد استخدمت

هذه الوسائل فى كل دولة بشكل مختلف تبعا لاختلاف الظروف والفروق الفردية فى التعبير عن الموقف الاجتماعى ، مما أضاف تنوعا الى المناخ الاجتماعى الدولى والى متشابهاته وخلافاته · فالهنود تعود تقاليدهم الفلسفية الى آلاف مضت من السنين والسوفيت ماركسيون أما البريطانيون يحاولون ربط علم الاجتماع بمشكلات دولة الرفاهية على حين يأمل الفرنسيون أن يهتم علم الاجتماع بشكل أكبر بمشكلة القوة أى السلطة · ومن الواضح أن الموضوعات التى تشغل بال هذه الدول مختلفة بالضرورة ·

فى الهند ، فقط ، يمكن للفرد دراسة دور النظام الطبقى المغلق ، وفى فرنسا او ايطاليا فقط يمكن للفرد دراسة دور الاحزاب الشيوعية القوية · والسؤال الآن هل هذه التبيانات من شأنها أن تثرى رصيد المفاهيم واساليب او طرق البحث ، اننا نأمل ان يؤدى ذلك الى هذه النتيجة وان كنا لا نرى الا شواهد ضئيلة على ذلك · أن هناك حاجة الى قيام علم اجتماع علم الاجتماع Sociology of Sociology ويتعين أن تثير الدراسة الحالية تلك القضية ، حتى ولو لم يكن هناك أى اجابة واضحة ·

اخيرا أعود الى العلاقة بين علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية الاخرى · فبعد مناقشة عريضة لهذه التفصيلية فقد عرضت باختصار لعلم الانثروبولوجيا والسياسة والاقتصاد نظرا لارتباطها بموضوعنا الاساسى ولقد عالجنا علم النفس الاجتماعى بتفصيل أكبر اذ يتعذر علينا أن نحدد متى ينتهى هذا العلم ومتى يبدأ علم الاجتماع ، ومن الجدير بالذكر أن موضوع هذا الفصل يعد ـ فى الواقع ـ تعبيرا خاصا عن استخدامات علم الاجتماع · فقد تأثرت اعدادا كبيرة من الجماعات الاجتماعية من بينها شخصيات هامة من صانعى السياسة بالتحليل السسيولوجى والبحث الاجتماعى ·

وغنى عن البيان أن مثل هذه الاستخدامات تثير اشكالات جديدة لها آثار بالغة على لب العمل السسيولوجى ·

الفصل الأول

الاسهام الفكرى للتحليل المسحى فى علم الاجتماع العام

استرعى انتباه رجال الفكر والادارة على مر العصور اهمية الحصول على معلومات تتعلق بالامور الاجتماعية · وقد استخدمت فى سبيل تحقيق هذا الهدف الوسائل المتاحة حسب كل عصر من العصور · واذا وصلنا للقرن الثامن عشر وجدنا ان أغلب اعضاء الجمعية الملكية فى انجلترا تسابقوا فيما بينهم على جمع الحقائق الاجتماعية · وقد أدت المناظرات بين تشارلز بوث وبعض أصدقائه من رجال علم الاجتماع الى قيامه باجراء المسح الشهير لمشكلة الفقر ·

وقد قام ماكس فيبر فى المانيا ، مع بداية القرن العشرين ، بالاشراف على الدراسة الاجتماعية للعمال الزراعيين والصناعيين فى نفس الوقت الذي قام فيه المفكر الايطالى نيسفرو Nicefero بنشر كتاباته عن طبيعة القياس فى العلوم الاجتماعية التى توصل اليها من الأبحاث التى اجراها للجيوب المتخلفة فى ايطاليا ويمكننا ان نميز على وجه التقريب بين مراحل ثلاثة فى تطور الابحاث الاجتماعية · فقد اهتم المسح الاجتماعى فى المرحلة الاولى بدراسة المشكلات الاجتماعية الملحة وان لم تكن المسالة المنهجية المتمثلة فى استخدام الكم قد تيسرت بعد أو انتشرت انتشارا واسعا فى عملية البحث الاجتماعى ·

فقد حاول فردريك لبلاى أن يعرف بطريقة كمية المشاعر الدينية للاسرة عن طريق دراسة ميزانية الأسرة الشهرية التى تبين المبالغ المنصرفة لشراء الشمع المستخدم فى الكنيسة اثناء الصلاة · ورغم ان الذهاب الى الكنيسة قد لا يتخذ دليلا على تواجد المشاعر الدينية الا أن استخدام المؤشر الكمى للميزانية كعامل قابل للقياس قد ادى بدوره الى استخدام الميزانية الزمانية أى عدد الوحدات الزمانية التى تقضيها كل أسرة فى الكنيسة ·

وحين اتضح أن الذهاب الى الكنيسة يدل على مجرد تمسك الاسرة بالتقاليد الاجتماعية أكثر مما يوضح مشاعرها الدينية التى يمكن تقصيها عن طريق الاتجاهات الدينية ، فقد تحولت الابحاث الاجتماعية الى دراسة وقياس الاتجاهات وكان ذلك نصرا جديدا لعلم الاجتماع ·

ولقد بدأت المرحلة الثانية التى يمكن أن نطلق عليها مرحلة المسح التحليلى

للمجتمع فى الثلاثينات من هذا القرن فى الولايات المتحدة الامريكية فى الوقت الذى تضافرت فيه عدة اسباب سياسية فى الاحالة دون مساهمة دول اوروبا فى مثل تلك الدراسات الاجتماعية ابان اللاثينات والأربعينات لهذا القرن ، الأمر الذى ادى الى اجتكار امريكا للدراسات الاجتماعية اثناء هذه الفترة . ولما كانت ليست هناك حدودا لمادة البحث المتاحة امام علم الاجتماع من الناحية النظرية اذ يمكن مسح كل انماط السلوك الانسانى ابتداء من عمليات التفكير الى حركة البيع والشراء ، فان وسائل البحث المتاحة لم تكن تواكب هذا السيل الجارف من المشاكل ومن ثم فقد اقتصرت المرحلة الثانية فى استخدام المسح الاجتماعى على تطور وسائل جمع العينات وقياس الاتجاهات وتحسين اساليب الاستبار .

ولقد ادى هذا النجاح المنهجى الى جذب عدد كبير من المتحمسين الى استخدام المسح الاجتماعى، الأمر الذى أفضى الى تضخم النتائج وبالتالى صعوبة حصرها او تنظيمها . من هنا ظهرت الحاجة الملحة للتنظيم بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان ذلك بداية المرحلة الثالثة التى يمكن ان نسميها بمرحلة التقنين. ومن بين المشاكل الملحة التى كان يجب مجابهتها فى هذه المرحلة مشكلة حصر المفاهيم الاجتماعية التى يجب أن تكون موضوعا للمسح التحليلى ، ثم محاولة التعرف على العلاقة بين هذه المفاهيم الاجتماعية . وتعتبر هذه المرحلة من حيث أهميتها بالنسبة لعلم الاجتماع الموضوع الرئيسى لهذا القسم من الكتاب .

وينقسم علم الاجتماع كما يرى (تونيز) عالم الاجتماع الالمانى الى ثلاثة أقسام هى النظرية الاجتماعية وعلم الاجتماع التطبيقى وعلم الاجتماع الوصفى Sociography . ويهتم القسم الاول بالتوصل الى المفاهيم النظرية لهذا العلم ، على حين يهتم القسم الثانى باستخدام تلك المفاهيم فى تحليل الظواهر الاجتماعية ويقوم القسم الثالث باجراء وصف تفصيلى منظم للمشاكل الاجتماعية المعاصرة . ولقد تغير استخدام كل من علم الاجتماع التطبيقى والوصفى هذه الايام . فيشير علم الاجتماع التطبيقى الى الاعمال التى تعنى بصياغة الشكل السياسى واتخاذ القرارات العملية كما انه يهتم بصراعات أدوار

الأم العاملة ومتاعب حياة المدينة وتاثير الجماعات المرجعية على الراى العام . اما علم الاجتماع الوصفى فلم يعد يستخدم الآن لارتباطه بفكرة الوصف الفوتوغرافى اكثر مما يدل على التحليل المنظم لمادة البحث . وقد انتهينا الى استخدام اصطلاح المسح التحليلى لكونه يتناول الوصف التحليلى لعدد كبير من الوحدات الاجتماعية عن طريق التعرف على الخواص المشتركة بينهم . وقد تكون هذه الوحدات الاجتماعية منظمات او دول او حشود بشرية ويحتاج الباحث التحليلى قبل البدء فى العملية الاحصائية الى تحديد العلاقات القائمة بين عناصر الوحدة او الوحدات المدروسة .

لغة الخواص الموضوعية :

تشترك الأبحاث الامبريقية الاجتماعية مع لغة الحياة اليومية فى عامل مهم جدا يتلخص فى انه كما اننا نكون الجمل التى نستخدمها من كلمات فان نتائج الأبحاث ما هى الا مقولات تتعامد بعضها مع بعض بخواص موضوعية ويصبح هذا التعامد اكثر تعقيدا كلما ازداد عدد هذه الخواص ويتضح ذلك من الجملة الآتية - يتساوى الرجال والنساء فى الطبقة الاجتماعية العليا فى التصويت اما فى الطبقات السفلى فالرجال لهم اليد الطولى . ولا شك أن مثل هذه المقولة جاءت من عينات من الناس تتعامد اجتماعيا وتتداخل وفق الطبقة الاجتماعية والجنس .

وقد يتهم البعض لغة الخواص بالرتابة وذلك ليس صحيحا نظرا لما تحتويه هذه الخواص من خلافات وتباينات بينها تظهر مقدرتها على وصف التجمعات والافراد وكذلك تطبيقها على فترات زمنية مختلفة وهى تتنوع وفق كل ذلك . وتستخدم هذه الخواص ايضا لتصف السلوكيات الخارجية والمشاعر الداخلية ... الخ .

ولا شك أن الاستخدام المزدوج المتعامد بين أنواع الخواص يمكن أن يصل بنا الى تنميط المقولات بما يتفق مع لغة الخواص الموضوعية وما يتضمنه ذلك من نتائج فكرية او بحثية بعيدة الاثر .

ولقد اخذت مصطلحات ثلاثة نظرا لأهمية الدور الذى تلعبه فى مجال الابحاث الاجتماعية وهى العملية ، السياق ، Context والتنميط Typology وسوف أقدم كل منها بمثال لعبريقى لأبين ان هذه المصطلحات الثلاثة لم تاخذ حقها من التفسير الدقيق فى الابحاث السابقة · ولن أدعى اننى سوف أوضح تماما كل ما لم يتضح من قبل بالنسبة لهذه المصطلحات · ويمكن القول ان لغة الخواص تتميز بقدرتها على التعبير باقل الكلمات متتبعة المعانى المختلفة ولسوف يكون لما نقوم به ميزتان : ـ

اولهما : سنتمكن من معرفة مدى دقة الاصطلاح فى التعبير عن المؤشرات الاساسية التى يتضمنها ·

ثانيهما : سيساعدنا ذلك على ان نكون فى وضع افضل عند محاولة تفسير المعانى الخفية التى تتضمنها هذه المؤشرات ·

وأرجو ان تثير الامثلة التى سأختارها من مناطق بحث مختلفة اهتمام القارىء على الرغم من عدم تركيزى على مضمون هذه الابحاث حيث سيترك للقارىء تطبيقها على حالات مماثلة مالوفة لديه ·

العملية الاجتماعية :

ليس من الضرورى أن ننخرط فى نقاش معقد حول السببيه كى نصل الى اتفاق عام · ذلك أن دراسة العمليا تالاجتماعية لا يمكن ان تدور حول ما أذا كان أحد العوامل مسببا لآخر بما يتفق مع تتابع الاستجابة للمثير · فعلى سبيل المثال ان أى تغير فى مؤسسة ما له نتائجه على اتجاهات الجماهير ومن شأن هذه الاتجاهات أن تؤدى الى تغيرات مؤسسيه أخرى وهكذا · ويمكن أن نوضح لك بانه حين تقوم الأغلبية فى مجتمع ما بانتخاب حكومة معينة ، فان هذه لاغلبية قد تتغير اتجاهاتها بعد ذلك تجاه الحكومة التى انتخبتها من قبل وذلك تبعا لما تقوم به هذه الحكومة من اعمال · ولا جدال ان التغير فى الاتجاهات الجديدة لا يكون بنفس الدرجة لدى كل الأفراد · فقد يزيد لدى بعضهم الرغبة فى مساندة الحكومة وقد يحمل البعض الآخر اتجاه عدائى تجاه نفس الحكومة ·

وايا كان الامر فلن تكون تلك الاتجاهات الجديدة هى نفسـها التى صاحبت انتخاب الحكومة فى بادىء الأمر • واذا أضفنا عامل الزمن سوف تصبح الصورة أكثر تعقيدا خاصة وأن بعض هذه التغيرات تتم بمعدل زمنى أسرع من تغيرات أخرى •

ولسوف تتضح صورة العملية الاجتماعية هذه فى الشكل التـالى الـذى يرتبط تاريخه فى ذهنى ببعض الاشخاص • فقد استخدمه أول الامر عـالم الاقتصاد الامريكى تينبرجن Tinbeirgen لكى يفسر التحليل الدائرى للاعمال الحديثة ، ثم استخدمته بدورى لتفسير المشاكل الاجتماعية ، ثم اسـتخدم نفس الشكل عالم النفس هوفلاند Hovland ليبين الفروق بين التجارب المعملية ودراسة التغيرات الطبيعية •

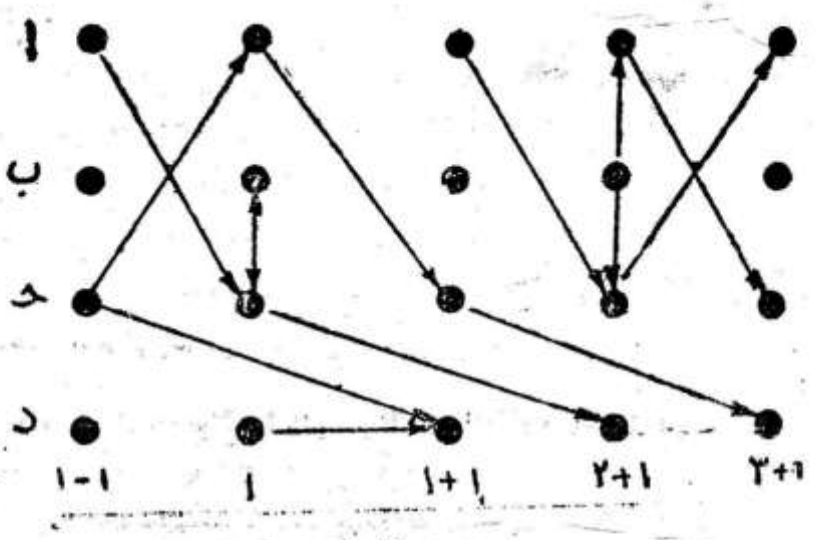

ويبين العمود الافقى المراحل الزمنية التى تمت فيها الملاحظات أما العمـود الرأسى فيبين حروف الهجاء التى تشير الى المتغيرات التى تم ملاحظتها • ويمكن أن يمثل هذا الشكل فى الدراسات السياسية متغيرات مثل نوايا التصـويت أو الاتجاه نحو القيام بحملة ما أو آراء أعضاء الاسرة •• الخ • اما الاسـهم فى الشكل المتقدم فهى تشير الى العلاقة القائمة بين مجموع المتغيرات • وتشـير بعض هذه الاسهم الى فواصل زمنية تفسر لنا كيفيـة تاثر اتجاه المـرد فى التصويت بما قد قرأه مثلا فى زمن سابق • وترتبط بعض الاسهم بعض المتغيرات

التى تنتمى الى نفس النقطة الزمنية · ويفيدنا ذلك حين نريد معرفة ما اذا كان بعض الأفراد يشتركون فى نفس وجهة النظر مع أصدقائهم وبعضها الآخر يعتبر اكثر من نقطة زمنية وأكثر من متغير وهى بذلك تمكننا من تفسير ما اذا كان تعرض الفرد لرأى صديق فى النقطة (١) أدى الى تغير فى وجهة نظره تجاه دعاية انتخابية فى نقطة (٢) وأخيرا تغير فى نواياه الانتخابية فى نقطة (٣) ·

وايا كانت التغيرات التى يشتمل عليها موقف البحث فانه بالامكان عن طريق التحليل أن تتحول هذه المواقف الى عناصرها الاولية باستخدام لغة الخواص الموضوعية · ولتوضيح ذلك اخترنا نتيجة توصلت اليها أحد البحوث التى اجريت على بعض طلاب احدى الكليات · فقد تمت مقابلة هؤلاء الطلاب على فترتين زمنيتين يفصل بين المقابلة الأولى والثانية عامين · ولقد كان يسأل الطلاب فى كل مرة عن اثنين من الخواص الموضوعية الاساسية وأول هذه الخواص هي اختيارهم الوظيفى أما الثانية فهى قيمهم الاساسية التى أقاموا على اساسها تفضيلهم لوظيفة معينة · ولتبسيط ذلك فقد صنفت كل هذه الخواص الى نمطين صنف على اساسها الطلاب ، فمن حيث الوظيفة تم تصنيفهم الى طلاب ذو اتجاهات محددة « أى يريدوا أن يصبحوا على سبيل المثال أطباء أو مدرسين أو علماء نفس الخ » وآخرين ليست لديهم اتجاهات محددة · وبالمثل فقد قسموا من حيث أغراضهم الشخصية من وراء هذه الوظائف « كأن يصبح طبيبا لخدمة الغير أو يصبح طبيبا كى يحقق ثروة معينه ·· الخ » ·

جدول يوضح موقف الطلاب من القيم المهنية والاختيار المهنى

فى الفترتين ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢

الاختيار	القيم ١٩٥	متسق متسق	متسق غيرمتسق	غيرمتسق متسق	غيرمتسق غيرمتسق	المجموع
متسق	متسق	١٦٣	(١٥)	٣٠	١٨	٢٢٦
متسق	غيرمتسق	(٢١)	٢٩	٨	٢١	٨٩
غيرمتسق	متسق	٣٩	٨	٧٣	(٤٩)	١٦٦
غيرمتسق	غيرمتسق	٦	١٤	(٤٣)	١٦٨	٢٣١
المجموع		٢٣٦	١٦	١٥٦	٢٥٦	٧١٢

ويبين الجدول المتقدم العلاقات المتداخلة بين القيم والاختيار الوظيفى كما جاء فى دراسة روز برج Rosenberg التى اجراها على مرحلتين زمنيتين الاولى عام ١٩٥٠ والثانية ١٩٥٢ ٠

يتضح من الجدول ان الارقام التى على حافة الجدول توضح نمط المجموع ومن هذا النمط نصل الى النتيجة الأولى توضح أن هناك اتفاقا أو تجانسا بين الاختيار الوظيفى والاتجاهات القيمية حيث يتضح أن عدد الحالات التى تبين وجود اختلاف بين الاختيار ونمط القيم نقصت عام١٩٥٢ عما كانت عليه ١٩٥٠ ٠ وبدراسة الارقام الداخلية فى الجدول وبخاصة فى السطر الثانى والثالث نجد أن الافراد الذين كان ينعدم لديهم الاتفاق فى الاصل قد انتقل جانب منهم الى السطر الاول أو الاخير من الجدول ، الامر الذى يوضح أن اختيارتهم قد تحقق فيها شىء من الاتفاق ٠ وقد أحيطت الأرقام التى تدل او تشير الى تحولات كثيرة نسبيا بدائره ٠ وكثير ما حدث أن الاختيارات الوظيفية قد تظل ثابته ثم تقوم القيم بالكيف أو التوافق معها وليس العكس ، أى أن الاختيارات الوظيفيـــة لا تتغير كى تتوافق مع القيم ٠

ومن الواضح أن مثل هذه العلاقة لا تعتمد على متغيرين فقط وعلى الدراسة المتكاملة أن تضيف المزيد من العناصر كما يتضح ذلك من السطر الاخير فى الجدول الذى يشير الى افتقار المشروع الى الكمال ٠ ويبين هذا السطر الأفراد الذين اتفقت اختياراتهم مع قيمهم فى بادىء الأمر ، ثم وجد أن بعضا منهم لم يستمر فى هذا الاتفاق ٠ وتشير المثلثات الى هؤلاء الأفراد ٠ وما يمكن أن نحصل عليه من معلومات من هذه النتيجة هو انه عند أى تخلخل فى الاتفاق بين الاختيار والقيم فانه كثيرا ما تكـــون القيم أقل اســـتقرارا من الاختيار الوظيفى ٠ وتوضح الارقـــام المحاطه بدوائر ومثلثات عدم قدرة القيم والاختيار على تفسير العملية الاجتماعية ككل ٠ وربما حدث عن طريق الصدفة أن بعض أسباب هذه التحولات قد ترجع الى عدم صحة الاجراءات المستخدمة فى القياس فى هذه الدراسة أو انه يرجع الى اغفال بعض التفاصيل الدقيقة للمنهج القياسى ٠

ولا أعتقد أن لدينا متسع فى هذا المقام لنشير الى التفاصيل الموجودة فى

هذا الجدول بيد أن ما يهمنا هو انه يمكن عن طريق الدراسة المتكررة المتتابعة لنفس الافراد أن نصل الى تحليل دقيق لفكرة العملية الاجتماعية ، وهناك العديد من الدراسات التى تتناول هذا الموضوع • فقد وجد أن هناك علاقات متداخلة بين الانتماء الى حزب ما وبين وجهة النظر المتعلقة بمسألة سياسية معينة ، أو بين المنتجات التجارية وبين تأثير الاعلان على المستهلك او بين الموقف العسكرى للجنود وبين فرص الترقى المتاحة امامهم •••• الخ •

وايا كان الامر فنحن لا يعنينا المضمون من هذه الدراسات بقدر ما تعنينا المنهجية التى تساعد علي اثارة الكثير من الجدل حول مشكلة العلاقات السببية • ولا ينطبق هذا على تحليل العمليات الاجتماعية فحسب ، لكنه ينطبق أيضا على مواضيع الاجتماع العام كما يتضح من الابحاث التى اعتمدت على التحليل فى علم الاجتماع العام •

السياق او الأطر الاجتماعية :

على الرغم من الاسهامات الهائلة للمسح فان حركة المسح قد خلفت الى حد ما مشكلات تواجه نمو علم الاجتماع العام • ويمكن أن يتجلى ذلك بوضوح بما حدث فى ميدان دراسات المجتمع المحلى • فقد أرسل بعض علماء الاجتماع الالمان ومن بينهم فون فويزى Von Wiese طلابهم الى بعض القرى كى يتمكنوا من ملاحظة العلاقات الاجتماعية بشكل مباشر • اما علماء الاجتماع الاستراليين والايطاليين فقد قاموا بملاحظة حياة العمال المتعطلين القاطنيين فى المدن الصناعية الفاسدة • اما الملاحظين البولدنيين فقد أستخدموا الخطابات وسجلات الحالة أو التراجم الذاتية فى دراسة القرويين قبل وبعد هجرتهم للولايات المتحدة • ومع بداية القرن العشرين سيطرت مدرسة شيكاغو على علم الاجتماع الامريكى نظرا لما كانت تتمتع به من مهارة فى تحليل مشكلات تلك الجماعات كعصابات المنحرفين وروابط السلاسلات الاثنية التى بدأت فى الظهور فى المدن الكبرى •

ومن أهم ما يميز هذا التراث اهتمامه بالمؤشرات التى تساعد على فهم النظم الاجتماعية والبناء المعيارى للجماعات • ولقد بذلت جهود

كبيرة من أجل التنسيق بين هذه الاعمال · فقد حاول عالم الفلك البلجيكى كيتلت Quetelet اكتشاف القوانين الاحصائية من سجلات الجرائم المودعه فى الادارة الفرنسية · اما المهندس لوبلاى فقد حاول التنقيب عما يساعده فى وضع علم نفس الثقافة · وايا كان الامر فمن الواضح ان الجهود كانت موجهة اساسا للجماعة وليس للفرد ·

ولقد كان نتيجة لظهور الاساليب الفنية الجديدة فى عملية تحديد العينات وقياس الاتجاهات والأنماط السلوكية أن بدأ الحماس يفتر بالنسبة لتطوير تلك الطرق القديمة · ذلك أن طريقة المسح بطبيعتها الخاصة هددت بتفتيت علم الاجتماع ، فبدلا من أن يتناول التجمع البشرى ككل فان المحلل المسحى يتناوله كحشود مؤلفه من افراد منعزلين ·

وسرعان ما أرتفعت أصوات كثيرة لمعارضة هذا الاتجاه وما به من عجز · فقد كان المعارضين لهذا الاتجاه التجزيئى أو الذرى يتطلعون الى اتجاه محلى شمولى يهتم بالمجتمع ككل · ومن أوضح الأمثلة على ذلك تعليق أحد علماء الاجتماع على كتاب العلامة استوفر Stouffer الذى صدر بعنوان الجندى الامريكى · حيث قال هذا العالم أنه كان يمكن لهذا العمل ان ينتمى الى علم الاجتماع انتماءا حقيقيا لو انه طالعنا بعنوان « الجيش الامريكى » بدلا من الجندى الامريكى ·

ومن الجدير ملاحظة أن هذه الاعتراضات كغيرها من الاعتراضات الصادرة من بعض المحافظين ، لم تبحث فى الواقع عن العلاج المناسب وان كان أحد لا ينكر أن لها الحق فى اعتراضها · فلم يكن علم الاجتماع بحاجة الى رفض المنهج المسحى كليا لكنه كان بحاجة الى توسيع نطاق استخدام « لغة الخواص النوعية » حتى يتمكن العالم من مناقشة الكليات أو الجماعات كما يستطيع مناقشة ودراسة الافراد · وهذا ما حدث بالفعل وكان بمثابة بداية تحول كبير فى البحث الاجتماعى الامبريقى ·

ويمكن زيادة هذا الموضوع ايضاحا اذا تتبعنا التطورات الحديثة فى دراسة

التنظيمات الاجتماعية • فليس هناك سبب يدعو الى الاحجام عن تناول هذه التنظيمات الاجتماعية بشكل كمى اذ بمجرد تحليل طبيعتها تحليلا دقيقا لابد أن نتوصل الى أن هذه التنظيمات لابد لها من استخدام عمالة ومعيار للانتخاب أو معيار لأختيار العمال يمكن وضعه كما يمكن قياسه بدقة نسبية • كذلك أن الافراد عندما يتسلمون عملهم لابد لهم من الاستمرار بقدرة انتاجيةمعينة كما ان ذلك يتطلب ايضا دراسة نظم المكافأت والعقاب أثناء العمل • الا أن العاملين لابد لهم من الاشراف ، ويتطلب هذا بدوره دراسة القيادة ومن ثم نجد لدينا شكلا هرميا يعكس البناء الاجتماعى لهذه التنظيمات تربط بين وحداته قنوات عديدة للاتصال وتتوفر على قدر من الضبط والنظام لمعرفة ردود الافعال ، ويتطلب هذا بدوره وجود خطوط مرشدة لهذه الخطوات على كل المستويات •

من هنا نرى أن هذا المنهج يسمح بقياس الخواص الجماعية التى قد تكون اكثر تعقيدا من خواص الافراد • بيد أن الخواص الجماعية لا تختلف كثيرا عن الخواص الفردية اذ بمجرد توافر هذه القياسات يصبح من الممكن ولو نظريا ان نتتبع تأثير احدى الهيئات على أفرادها • من الواضح اذن أنه حتى يتسنى وضع التعميمات أو الوصول الى مرحلة التعميم لابد أن تتضمن تلك الدراسات دراسة عدد كبير من المنظمات أو الهيئات المماثلة • واذا كان هذا الامر مرهقا فانه يتضمن من الناحية العملية لا النظرية قدرا من التعويق •

وتذهب احدى الباحثات الاجتماعية الروسيات « اندريفا » فى احدى مقالاتها التى ناقشت فيها الخواص الموضوعية أن الخواص أو الخصائص الفردية ضرورية لأى تحليل امبريقى ، ومعنى ذلك أن الباحثة الروسية لا يرضيها نوع القياس للهيئات التى استخدمناها فى الامثلة السابقة • ويقوم جدل هذه لباحثة على اساس أن صاحب العمل الخير يمكن أن ينقلب الى انسان شرس أذا هدد عمله بالافلاس • وهكذا فأن الضغط المارس على التنظيم وغيره من السمات العريضة للبيئة الاجتماعية يمكن أن يوضع فى الاعتبار فى الدراسة • ولا نعرف ما قالته الباحثه الروسية ما أذا كانت ترى أنه لابد من أخذ النظام الاجتماعى كل أثناء الدراسة أذ لو كان الامر كذلك فان ذلك من شأنه أن يتطلب اجراءات

تحليلية مختلفة تماما عما كنا نناقشه • وعلى أى فاننا نستطيع أن نوضح هذا الموضوع بمثل واقعى من انجازات البحث الاجتماعى الامبريقى • فقد قام السناتور جوزيف مكارثى فى الولايات المتحدة فى الخمسينات بهجوم على أساتذة الجامعات متهما اياهم بانهم يفتقرون الى الافكار الوطنية ويقومون بانشطة هدامة • وكان من الممكن تصنيف الكليات تبعا لعدد الأحداث التى تقع فى كل من هذه الكليات • ويعد مثل هذا الاحصاء من الخواص المأخوذة بها فى دراسة أجريت على سبعة وسبعون كلية خلال عهد مكارثى • وقد تم مقابلة عينة من الأساتذة داخل هذه الكليات ثم تصنيفهم تبعا لخاصيتين موضوعيتين هما :

ا ـ الى أى حد يشعرون بالخوف أو القلق عن هذا الموقف •

ب ـ الى أى حد يعتبروا زملائهم جبناء •

وقد تم تقسيم الاساتذة الى من يخافون أو لا يخافون الاحداث وهؤلاء الذين اعتبروا أن أغلبية زملائهم ليسوا جبناء • كما كان متوقعا كانت هناك علاقة قوية بين هاتين الخاصيتين ودليل ذلك أن من كانوا يشعرون بالخوف كانوا يشعرون ايضا أن زملائهم يخافون مثلهم • ويمكن تغير مثل هذه العلاقة اما بالاسقاط واما بالواقع • والواقع أن الموقف الفعلى لهذه الكليات كان من الممكن أن يجعل أى شخص أكثر خوفا • فاذا ما قسمنا الكليات تبعا لتصنيفها من عدد الاحداث الخطيرة التى كانت تحدث عان تكرار وحدات الخوف وما يتبعها من رهبة الموقف لم تكن بنفس الدرجة ، وقد تم حصر نتائج هذه الدراسة فى الجدول التالى : ـ

عدد الاحداث داخل الوحدات :				
	٥ أو أقل	٦ ـ ١٠	١١ ـ ١٥	١٦ ـ فأكثر
نسبة الاساتذة الذين				
يشعرون بالقلق شخصيا	٤٠٪	٥١٪	٥٤٪	٥١٪
نسبة الاساتذة الذين				
يرجعون الجوف لزملائهم	٢٣٪	٤٢٪	٥٠٪	٥٢٪

ويبين الجدول انه فى الكليات شديدة الاضطربات اقر أكثر من ٤٠٪ من

الاساتذة بانهم يشعرون شخصيا بالخوف ، كما أن نصف هذا العدد قد انتقل اليه الاحساس بالرهبة من زملائه · أما فى الكليات البعيدة عن الخطر لم يهتم أحد فيها بهذا الموضوع · فاعضاء هيئة التدريس فى الكلية قد يقراون عن هذه الاحداث وتثيرهم لبعض الوقت وينتهى الامر باتهامهم لزملائهم نتيجة للقيم التى تتعرض للخطر . وكما يتبين من الجدول كلما اقتربت الارقام داخل الكليات التى تعيش نسبة عالية من الاحداث كلما تقارب عدد مرات الاحساس بالخوف والرهبة وأن كان الاول أكثر من الثانى فى معظم هذه الكليات حيث يكون هناك مناقشات حول تهديد حق الحرية داخل الكلية ·

ومعنى ذلك أن كل مدرس كان يشعر بالهدوء النفسى أو العصبية النسبية بشكل يتفق مع ما يحيط به من توتر · وترجع أهمية نموذج هذه الدراسة الى أنها تقوم على عينة تتالف من مجموعة من الهيئات المتماثلة تضم كل منها مجموعة من الافراد المتماثلين وقد أصبح أن نتحدث بشكل تقليدى عن القضايا ذات السياق أو الاطار الواحد عندما نهتم بدراسة الخواص الفردية لمجموعة كبيرة من الافراد المتماثلين ·

ولقد أصبح علماء الاجتماع بعد ذلك يتحدثون بشكل تقليدى عن القضايا الاجتماعية ذات النطاق المحدود ، ويقصد بها القضايا الاجتماعية المتشابهة التى يشترك فيها الجماعات والافراد فى خواصهم ، والتى يتم فيها دراسة الافراد والجماعات معا · ولقد نشرت فى السنوات السابقة كثير من الأبحاث التى تدور حول هذه القضايا الاجتماعية المحلية · فقد تم التوصل الى اساليب لقياس مشاعر الافراد الدينية مثلا فى منطقة ما حيث ظهر أن هذه المشاعر من شانها أن توجد الاحساس بالأمان داخل البيئات المتشابهة دينيا ، أما الذين يعيشون فى بيئات اجتماعية ينتمون فيها الى أقليات دينية فانهم لا يشعرون بنفس الامان · كما ثبت أن حياة الفرد فى بيئة تتكون من اغلبية تنتمى الى نفس مذهبه الدينى من الامور التى تزيد لحساسه بذاته وتقييمه لها ·

وقد حاول بعض علماء الاجتماع فى دراسة آخرى بحث العلاقة بين الموقف المالى لهيئة المحلفين من ناحية والدخل المحلى للمنطقة من ناحية اخرى وعلاقة

ذلك كله بمبالغ التعويض التى تدفع فى حالات الحوادث وقد وضع هذا العالم فى الاعتبار الخاصة الموضوعية الفردية وهى دخل كل عضو من هيئة المحلفين كما وضع فى اعتباره أيضا الخاصة الموضوعية الجماعية وهى الدخل المحلى فكلما كانت المنطقة ثرية كلما زادت مبالغ التعويض فى حالات الحوادث · الا انه كان يقل حجم مبلغ التعويض لأن المحلفين فى بعض الأحوال كانوا يضعوا فى اعتبارهم أن هذا التعويض تدفعه شركة التأمين · ويبين هذا البحث العلاقة المتبادلة بين المعايير الاجتماعية والانتمات الفردية ·

واذا حاولنا تلخيص ما سبق يمكن القول أن وسائل المسح الاجتماعى واهتمام علم الاجتماع بالجماعات الكبيرة لا يتناقض · كما انه ليس هناك فى تطور وسائل القياس أو التحليل الكمى المنطقى ماينفى امكانية تواجد هاتين الوسيلتين واستخدامهم فى نفس الوقت · واذا كانت احدى الوسائل تفضل الأخرى فان ذلك يرجع الى اعتبارات عملية اكثر منها نظرية · ومن ثم فانه عندما نوجه اهتمامنا الى دراسة وحدة اجتماعية كبرى أو مشكلة معقدة لابد من اختيار وسائل أخرى الى جانب المسح الاجتماعى · وتعرف هذه الطريقة وهو اتجاه جذب انتباه الباحثين فى السنوات الماضية ·

التنميط الاجتماعى :

اهتم كثير من علماء الاجتماع باستخدام التنميط الاجتماعى Typologies نظرا للتنوع والتباين الشديد القائم · فهناك نماذج متباينه عديدة من الشخصيات والانساق والتنظيمات الاجتماعية · وقد دفع ذلك الى الاستفادة من التنميط فى عملية التحليل · ولقد ذهب بعض الكتاب من بينهم ماكس فيبر الى ابعد من ذلك حيث اعتبر بناء أنماط متميزة ومعينة هو لب الفهم السوسيولوجى · وهنا يتعين علينا أو من المفيد ان نتسائل عما قد نعنيه بالنمط اذا حاولنا آن نعبر عنه بلغة الخواص الموضوعية ·

ولقد ابتدع المناطقة فكرة الصفه المكانيه الفراغيه وبناءا على هذه الفكرة التى يتعين استخدامها بالاتجاه الماكر وسسيولوجى أو علم الاجتماع الشمولى

يبدو انه بالامكان اختيار مجموعة من الخواص الموضوعية محاولين ايجاد او التوصل الى مجموعة العلاقات او التداخلات بينها ويتكون من هذه العلاقات او التداخلات ما يمكن ان يكون نمط • وعلى سبيل المثال فقد حدد ماكس فيبر ثمانية صفات للبيروقراطية الحقيقية • ومن الواضح أن المرء يمكنه ان يفكر فى الابنية الاجتماعية التى تتسم ببعض من تلك الخصائص فقط ويضعها كانماط • كذلك وضع علماء اللغويات تقسيمات للغات الى أنماط عن طريق تحديد الصفات المشتركة فى الأصوات اللغوية • التساؤل الآن هل يمكن الأخذ بسلسلة الأنماط التى يضعها كاتب معين ؟ وهل بالامكان أقتراح نسق من الخواص الموضوعية التى قد يكون قد أشتق منها التنميط ؟ ولما كانت هذه الفكرة سوف نناقشها فى الفصول التالية فاسوف نقدم مثالا للتنميط الاجتماعى أو التقسيم الاجتماعى فى هذا المجال •

فقد افترض اريك فروم أن علاقة الشاب بوالديه يمكن تصنيفها فى اربعة انماط : ـ علاقة قوامها السلطه المطلقه ، علاقة قوامها سلطه بسيطه ، علاقة تفتقد الى السلطه واخيرا علاقة اساسها التمرد ، وقد أجرى أستبيان لعينة من الشباب تناول كيف يشعر هؤلاء الابناء تجاه أبائهم •

ولقد صنفت علاقة السلطة فى الاسرة تبعا للاسلوب الذى يمارس به الاباء سلطتهم وتبعا للأسلوب الذى يقبل به أبنائهم تلك السلطة • ولقد درجت الممارسة الوالديه للسلطه فى اطار هذا الاستبيان اما قوية او معتدلة او ضعيفة ، كما درجت قبول الابناء للسلطه على اساس عال ـ ضعيف أو منخفض • ولقد شكلت تلك الدرجات تسعة انماط أو مجموعات ممكنة من الناحيه المنطقية •

جدول يوضح تنميط العلاقات الاسريه

ممارسة الوالدين للسلطه	مدى قبول الابناء للسلطه		
	معتدلة	منخفضه	عاليه
قويـة	١	٢	٣
معتدلة	٤	٥	٦
ضعيفة	٧	٨	٩

ويتطابق هـذا الجدول مع الأنماط الأربعة التى وضعها اريك فورم التى استقاها من بعض الاعتبارات النوعية المختلفة ٠

نمط فروم	العلاقات أو الارتباطات	ممارسة السلطة	قبول السلطة
سلطة مطلقة	١ و ٢	قـوية	عالية أو متوسطة
سلطة بسيطه	٤ و ٥	معتدلة	عاليه او متوسطه
عدم وجود سلطة	٨ ،	ضعيفة	متوسطة
التمرد	٣ و ٦	قوية أو معتدله	ضعيفة

الا ان فروم لم يضمن تنميطة العلاقات رقم ٧ ، ٩ على افتراض انه لن يكون هناك قبولا مطلقا أو منخفضا لسلطة لا تمارس ٠ الا ان عملية البحث كمصدر من مصادر الأكتشاف قد تشير الى احتمال منطقى لوجود ابناء يرغبون فى سلطة لا تمارس بالفعل وهى العلاقة رقم ٧ ٠ ويشجع هذا النمط من السلطه على اجراء ابحاث أخرى ٠

يتضح مما سبق اهمية الاسلوب القطاعى أو التنميطى فى علم الاجتماع ، وهو الاسلوب أو المنهج الذى يقوم بدراسة عدة خواص موضـــوعية لقطـــاع اجتماعى واحد بهدف الوصول الى عملية تنميطية ٠ ويتميز هذا المنهج بانـــه يوضح لنا الأهمية المنطقية للتنميط الاجتماعى ، وفى نفس الوقت يفتح أمامنـا مجالات تجريبية لتصنيف النظم الاجتماعية الكبرى ٠ وعلى ايه حال فقد سبق استخدام هذه الدراسة القطاعية فى علم الاجتماع العام نظرا ، لأنها تسهم فى تضييق الفجوة بين دراسة القطاعات الاجتماعية الصغيرة والنظم الاجتماعيـة الرئيسية ٠

ومن الجدير بالذكر ان ما ناقشناه من قضايا أساسية فى اطار هذا الفصـل معلوم لدى اساتذة المنهج الذين يقومون بالتدريس لطلاب البحوث ٠ الا ان هؤلاء غير مدركين او واعين بقيمة ادوارهم التى يمكن ان يقوموا بها ٠ ذلك ان علمـاء الاجتماع الذين لا يهتمون بالبحث الامبريقى تضعف المادة التى يقدمونها وتقل اهميتها ٠ ومؤدى ذلك أن مشكلة النظرية والعمل الامبريقى مازالت مشـــكلة مسيطرة فى عقل كل فرد ويمكن ان يكون من المناسب ان نبدأ فى تناول تلك المشكلة او القضية على نحو يجعلها تأمل فى الوصول الى فهم أو ادراك افضل فيما ٠

الفصل الثاني
علم الاجتماع الشـــمولى

استعرضنا فى الفصل السابق تطور منهج المسح التحليلى الذى امكن أن نميز فيه بين مراحل ثلاثة · المرحلة الاولى ، مرحلة نشط فيها التفكير الاجتماعى بنماذجه المختلفة · وقد امتد هذه المرحلة الظروف الاجتماعية المحيطة ، حيث ظهر طائفة من المفكرين غير الاختصاصيين · أما المرحلة الثانية فهى المرحلة التى ظهر فيها المتخصصون فى العلوم الاجتماعية الذين يرجع اليهم الفضل فى ادخال وسائل متخصصة فى البحث العلمى · ثم جاءت مرحلة التقنين (المرحلة الثالثة) التى أسهمت فى وضع قوانين علم الاجتماع العام · ولقد رأينا فى الفصل السابق عدم امكانية الفصل بين هذه المراحل الثلاث ولسوف يهتم هذا الفصل بالاتجاه الماكروسوسيولوجى Macrosociology ، اى الاتجاه الشمولى الذى تتجلى فيه بعض الحدود الفاصلة بين المراحل المتقدمة . كما يمكننا أن نلحظ فيه أيضا مدى التداخل بين العوامل المختلفة التى تؤثر على العمليات الاجتماعية المختلفة ·

وترجع بداية علم الاجتماع الشكلى Formal Sociology الى القرن التاسع عشر ، وبخاصة الكتابات الكلاسيكية التى ظهرت مع التطور الاقتصادى الذى صاحب نمو الطبقة الوسطى ،وانبثق عن سوء الاحوال الاجتماعية والاقتصادية التى لحقت بالطبقات العاملة فى أوروبا ، وساعدت على قيام اشكال جديدة من النظم السياسية الديمقراطية لم تكن قائمة من قبل ·

ولقد فرضت تلك المشكلات نفسها على كتابات علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر · غير أن هذه الحركة الاجتماعية قد أبطأت من خطاها فى نهاية هذا القرن (١٩) وكادت أن تتوقف . بل قد توقفت بالفعل فى أوروبا قبل وأثناء الحرب العالمية الاولى والثانية ، حيث لم نشهد أعمالا اجتماعيا هامه صدرت فى أوروبا بين عام ١٩٢٠ ـ ١٩٥٠ · ولقد اختلف الأمر فى الولايات المتحدة الامريكية ، اذ لم تعرف البحوث الاجتماعية فيها مرحلة انتقالية كما هو الحال بالنسبة لاوروبا ·

فحين انتهت الولايات المتحدة من مرحلة الاحتلال كانت الصناعة ، وقد بدأت فيها منذ عهد ليس ببعيد سببا فى خلق مشكلات بالغة التعقيد ساعدت عليها موجات المهاجرين الذين جعلو من المشاكل اليومية موضوعا اجتماعيا جديرا بالبحث والدراسة • ولقد كانت أهم الموضوعات التى فرضت نفسها فى هذا الوقت مشكلة الاقليات الاثنيه ومشكلة تحسين الخدمات الاجتماعية ومحاولة تفهم المراكز الحضرية الجديدة التى تتزايد يوما بعد آخر •

ولقد كان من الضرورى تواجد وسائل بحث جديدة لتناول تلك المشكلات والقضايا تناولا امبريقيا • ولقد تم ذلك بالفعل حيث استحدثت مناهج بحث جديدة درست فى عدد من معاهد التعليم الجامعى • ولقد بدأت الانظار ، نتيجة لذلك ، تتجه تدريجيا الى ما يجرى فى علم الاجتماع الامريكى ، خاصة وقد لوحظ أن ما هو قائم من دراسات ليس سوى دراسات لقطاعات صغيرة من المجتمع ، الامر الذى دفع بالعلماء الى المناداة بضرورة وجود نظرية اجتماعية •

فقد بدأ علماء الاجتماع يشعرون بالافتقار الى وجود دراسات شاملة ، كما بدأو يشعرون بالخوف ـ كذلك ـ مما يمكن أن تؤدى اليه الدراسات الاجتماعية ـ حينذاك ـ من المحافظة على الوضع القائم الذى ينئ بالعديد من المشكلات الاجتماعية •

ومن الجدير بالذكر أن هذه المرحلة شهدت ترجمة أعمال كل من ماكس فيبر واميل دركايم وجورج سيمل مما جعل الامريكيون يدركون محلية أفكارهم بالنظر لافكار هؤلاء الاوربيون العمالقة • وقد كان نتيجة لسيطرة هذا الشعور أن بدأ البحث الاجتماعى الامريكى يتجه الى ممارسة دورة للدولى ، بأن بدأ يجرى كثيرا من الابحاث الاجتماعية على الدول المتخلفة الامر الذى أدى بدوره الى شمولية الابحاث الاجتماعية • ومن ثم يمكن القول أن اتجاها جديدا بدأ يعرف طريقه فى علم الاجتماع هو الاتجاه الماكروسوسيولوجي أو حركة الاجتماع الشمولى •

ولقد تولد عن ظهور الاتجاه الشمولى قيام أنماط جديدة من الدراسات الاجتماعية جعلت من الوحدات الاجتماعية الكبرى مادتها الاساسية • ولقد أدى ذلك – أيضا – الى تعقيد مواضيع البحث كما ولد اجتذاب الباحثين الاجتماعيين الى عدد من الايديولوجيات اثار العديد من التساؤلات عن معنى الانتماء الى النظام الاشتراكى فى روسيا ؟ أو لما لا يكون للديمقراطية جذور عميقة فى ألمانيا ؟ ، أو لماذا نجحت السوق الاوربية المشتركة ؟ ، بينما فشلت كل المحاولات لتوحيد العالم العربى ؟ ،

ولقد أدت هذه الاسئلة وغيرها الى الاهتمام باحياء التراث الكلاسيكى لعلم الاجتماع ، بيد أن هذا الاتجاه قد قوبل باتجاهين مختلفين • فرغم أن مواضيع البحث كانت أكثر عمقا وشملت قطاعات أكبر من حيث المكان والزمان الا أن الشواهد والادلة الملموسة كانت بدورها كثيرة ووفيرة • واذا تحدثنا عن وجود مرحلة جديدة أو حركة اجتماعية جديدة فليس مرجع ذلك هو توفر الدراسات ، ولكن مرجعه هو وجود عدد من الظواهر المتشابهة أفرزتها حركة المسح السابقة •

ويمكن القول أن المرحلة الاولى لعلم الاجتماع الشمولى هى بالضرورة حركة اهتمام بنتائج البحوث التحليلية التى قام بها علماء أوربا فى القرن التاسع عشر • اما المرحلة الثانية التى سنعرض لها فهى حركة اجتماعية قام بها علماء الاجتماع من كل الدول لتطوير أهداف هذا العلم وجعل وسائل البحث فيه أكثر دقة ومحاولة جعل نتائجه العلمية أكثر موضوعية • أما المرحلة الثالثة لعلم الاجتماع الشمولى وهى مرحلة التقنين فانها لم تتأتى بعد •

وقد كتب هذا الفصل خصيصا ليساهم فى بدأ هذه الحركة (المرحلة الثالثة) • وأعتقد أن منهج التقنين فى هذه الحركة لابد أن يكون منهجا استقرائيا • ولن أحاول – هنا – تعريف علم الاجتماع الشمولى ، لكننا سوف نتناول باختصار بعض الدراسات التى يمكن أن نستخلص منها الأسس التى لا غنى عنها لنجاح المرحلة الثالثة •

وتتسم الحركة الاجتماعية لعلم الاجتماع الشمولى بسمتين بارزتين :

اولا ـ انشغال العاملين فى المجالات الاجتماعية ـ بشكل بالغ وواضح ـ بعدد صغير من المتغيرات · ولا ادل على تاثرهم بحركة المسح الاجتماعى من استخدامهم للغة الخواص الموضوعية التى كانت تستخدم فى تراث القرن التاسع عشر ·

ثانيا ـ ومن بين ما يميز هذه الحركة ـ وان لم يكن واضحا كل الوضوح ـ هو أن اختيار القضايا التى يتم بحثها والاستنتاجات التى يتوصل اليها كانت تتاثر الى حد بعيد ، بالافكار الاجتماعية التى توارثها علماء الاجتماع فى هذه المرحلة ، أى أنهم لم يصلوا الى مرحلة الاصالة بعد · ولسوف تدور معالجة هذا الفصل حول هاتين الملحوظتين ·

ونستعرض فيما يلى اربعة دراسات للتعرف على اربعة انماط من الخواص الموضوعية تناولها الاتجاه الماكروسوسيولوجى ، أى علم الاجتماع الشمولى · ولسوف نتناول بعض الابحاث الاخرى لتعزيز ما وصلت اليه تلك الدراسات · ولسوف يتضح من هذا الفصل الخلاف البين بين ما سأتناوله هنا ، وما تناولته فى الفصل الاول حيث لم اتعرض لمناقشة صياغة الخواص الموضوعية للمسح الاجتماعى بالتفصيل نظرا لتوفرها فى الكتابات الاجتماعية ·

ومن الثابت ان علم الاجتماع الشمولى لم يتسم ـ بعد ـ الى حد النضج فيما يتصل بتعريف اصطلاحاته · اذ يمكن ملاحظة أن ما كتب من أبحاث لم يكن سوى تساؤلات حول المشكلات الاجتماعية أكثر من كونها حلولا لها ·

واذا كانت بعض المصطلحات الاجتماعية المعقدة كالعملية الاجتماعية ، والبناء الاجتماعى ـ على سبيل المثال توضحها ـ تبعا لمنهج المسح التحليلى ـ قدر بسيط من الخواص الموضوعية ، فان علم الاجتماع الشمولى فلم يتضح فيه بعد الفرق بين الخواص الموضوعية الفردية والمتاميم العامة التى يمكن أن تندرج تحتها هذه الخواص · ولسوف نحاول فى هذا المقام أن نوضح أهم

المسالك والاشكال التى تخبرها علم الاجتماع الشمولى هذه الايام ٠

سنبدأ هذا الموضوع بتناول أمر بسيط نسبيا هو كيفية انتخاب خاصة موضوعية وفق علم الاجتماع الشمولى ٠ فقد قام العلامه (أكستين) Eckstein بتحليل المجتمع النرويجى ، ووجد انه يتميز عن أى مجتمع آخر بوجود احساس عميق بالجماعة ٠ وقد أرجع هذا الاحساس العميق الى بعض العناصر ، من بينها ان هذا المجتمع لا ينظر الى الافراد كمجرد أدوات لتحقيق المنفعة ، كما أنه يحبذ أن تستند العلاقات الاجتماعية الى محض الاعتبارات الاقتصادية ٠ كذلك لاحظ اكستين أن المجتمع النرويجى يتجنب المواقف التنافسية فضلا عن استعداد الانسان النرويجى للمساهمة فى الانشطة التعاونية وتفضيله للهيئات والمنظمات كسبل لتحقيق أهدافه ٠

ومن الواضح أن (اكستين) يستخدم هذه المؤشرات (الخواص) ليدلل على تفضيل هذا المجتمع العلاقات غير الاقتصادية على العلاقات الاخرى ٠ ويستشهد على صدق ذلك بأنه ليس هناك تصارع بين الاطباء النرويج الذين يقومون بأعمال خاصة وأخوانهم الذين يعملون فى الهيئات العامة ، كما أن الافراد الذين لا يقدر لهم النجاح فى مجال العمل السياسى يتجهون الى العمل فى الهيئات العامة ٠ ولقد أجرى اكستين مسحا عاما على عديد من الدول ليتعرف على مدى ثقة الافراد فى أبناء وطنهم وقد وجد أن النرويجيين أكثر الشعوب ثقه فى أبناء وطنهم من اية شعوب اخرى فى شمال اوربا ، حيث حصل على سبعة وسبعين اجابة موجبه وهى أعلى نسبة فى مجموعة دول شمال أوربا ٠

ولقد استخدم (اكستين) ـ كذلك المقابلات الخاصة كى يعرف كيف يحاول النرويجيون تجنب ازلال غيرهم من الناس ، كما رأى أن رغبتهم الشديدة فى التضامن تشير الى ميلهم لتجنب المشاعر العدائية ٠ كما قام ايضا باستنتاج صفة اللاتنافسية النرويجية من مؤشرات أخرى كرياضة التزحلق على الجليد والانتخابات التجريبية ٠ فرياضة التزحلق على الجليد لا توجد فيها منافسة ، اذ هى مجرد لعبة للمتعة ومشاركة الاخرين ٠ أما الانتخابات التجريبية فهى

رسيلة للوصول الى اغلبية مطلقة فى الانتخابات الرسمية والقرارات الهامة وتحاشى المواقف العدائية بين الاحزاب السياسية ٠

وفى الامكان معرفة اهمية المؤسسات فى النرويج من كثرة عددها والخدمات التى تقوم بطغتيتها ، اذ أن كثيرا من الابحاث التجارية ، وبخاصة المتعلقة التسويق ، تجرى بشكل تعاونى ٠ كذلك الحال بالنسبة للتعاون بين النقابات الهيئات واصحاب الاعمال ٠ اذ يرى (اكستين) أن من شأن ذلك التعاون تسهيل عملية التفاوض بين الطرفين ٠

ويدعم هذه النتيجة ما توصل اليه (ليبست) Lipset فى دراسته التى ام بها ، حيث وجد أن اللامركزية فى امريكا من الاسباب التى أدت الى العداء المستمر بين النقابات وأصحاب الاعمال ٠ ولم يكتفى (اكستين) بما قدم من ادلة على هذه الخاصة الموضوعية التى أسماها « الاحساس الجمعى » حيث استخدم الكثير من المؤشرات الاخرى ، منها ـ على سبيل المثال ـ عدد حالات الانتحار فى النرويج ومقارنتها بدول شمال أوربا ٠ ففى النرويج نجد أقل نسبة من حالات الانتحار وترجع الى الاحساس بالذنب ، وليس الى الاحباط فى أى مجال من مجالات النجاح ٠

ننتقل الان الى مثال آخر فى علم الاجتماع الشمولى ٠ أى نظرية علم الاجتماع الشمولى ٠

يتعين أن نشير أن الباحث فى علم الاجتماع الشمولى لا يكتف بالاشارة الى بعض الخواص الموضوعية الماكروسوسيولوجية ، اذ يحاول أن يبين ـ أيضا ـ كيف أن قيم هذه الخواص الموضوعية تتغير من فترة الى أخرى ٠ قد حاول « رنسيمان » أن يدلل ، فى أحد فصول كتابه ، على صحة مقولته بان عدم المساواة فى المراكز الاجتماعية بين العمال اليهود وغير اليهود فى انجلترا قلت منذ الحرب العالمية الثانية ، بينما ازداد الاحساس بالحرمان النسبى بين العمال اليهود ، ولن اناقش هذا الجزء الثانى من هذه المقولة

المتعلقة بزيادة الحرمان النسبى حيث لم يقم رنسمان Runcimen بالبرهنة عليه مثلما فعل بالنسبة للجزء الاول التى دلل عليها ٠

فقد أوضح أن عـدد طلاب الجامعات اللذين ينتمون الى أسر عاملة ازدادو كما ازداد عـدد ابناء الاسر العاملة الذين يرغبون العمل فى وظائف الطبقـــة الوسطى ٠ وعلى العكس من ذلك فقد بين بالارقام ن عدد الخـدم فى الطبقة الوسطى قـل فى نفس المرحلة كما ازداد حجم الزواج بين أبناء العاملين اليدويين وابناء الطبقة الوسطى ٠ ولقـد استخدم « رنسمان » – فى سبيل توضـيح هذه النتيجة – بعض المؤشرات من المجلات والصحف الكاريكاتيرية التى تبين فى مقالاتها ورسوماتها اللازعة اشتراك الاسرة العاملة والمتوسطة على حـــد سواء فى الاشتغال بالاعمال اليدوية داخل وخارج المنزل ٠ كما بين ، ايضا ، من واقع التراجم الذاتية لقـادة حزب العمال كيف انهم مرتبطون بأسلوب حياة الطبقة الوسطى ٠

يتضح من مقارنة كل من (اكستين) و « رنسمان » أن الدراسات التى تبحث فى التغير المـاكروسوسيولوجى وخواصه الموضوعية يجب أن تعتمد على مؤشرات متنوعة كمضمون وسائل الاعلام أو تكوين الهيئات الطـلابية ٠٠٠ الخ هـذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى لابد من استخدام ظـواهر التغيب التى تشهدها المؤسسات الاجتماعيـــة مثلا اذا كان موضـــوع البحث يتناول تغيرا اجتماعيا كبيرا ٠

وتهتم الدراسة الثالثة فى الخواص الموضوعية بملاحظة الفوارق المكانية بينها لا الزمانية ، اى التباين الذى ينشـــأ نتيجة لا ختـلاف الدول لا نتيجة لا ختلاف الزمان ٠ وتدليلا على ذلك يرى « ليبست » فى كتابه : (أول عالم جديد) أن اهم خاصيتين يتسم بها الشعب الامريكى هما : الحق المتكافىء بين كل الافراد ، والمكافئة لكل انجاز رغم كونهما خاصيتين تاريخيتين من خواص هذا المجتمع ، فان أحـدا من المؤرخين لم يحاول بيان المؤشرات المـادية الدالة عليهما رغم أنهم أشاروا الى ارتباطها بعضهما ببعض ٠ ويرى ليبست أن مثل

هـذا المجتمع لابد ان يتسم بالتجانس اى تسوده التشابهات أكثر من المجتمع الذى تسوده الفـوارق الطبقية ٠

وتظهر فى كتابات (ليبست) النزعة الاستعمارية حين يحاول تتبـع تطبيق هاتين الخاصيتين من خلال المؤسسات الامريكية ، مستعينا فى ذلك بقـدر هائل من المؤشرات يتخـذها للمقارنة بين النقابات الامريكية والنقابات الاوربيـــة الغربية ٠ حيث تشير الاحصاءات الخاصـــة بحركات الاضراب أن الاضرابات الامريكية أكثر عنفا ، وأن عدد موظفى النقابات الامريكية يفـوق عدد المستخدمين فى الدول الاخرى ٠ كما أن اللجان الخاصة بهذه النقابات لا تستطيع أغلب الاحيان اقناع موظفى النقابات ٠

ويذهب (ليبست) الى أن الفـارق بين أجـور العمال المهرة وغير المهرة فى امريكا شديدا بالمقارنة باية دولة اخرى ، حيث لا تسمح النقابات الامريكية بعضوية العمال غير المهرة وبذلك يكتسب العامل الامريكى المـاهر بعضويته فى النقابة حقا كبيرا ٠ كذلك أوضح ليبست أن النقابة الامريكية تقوم بعملها كمؤسسة ، بينما تقوم النقابة الاوربية بعملها انطلاقا من أيديولوجيا معينة ٠ أما النقابات الاسترالية والكندية فهى تجمع بين الصفتين ٠

ومهما يكن من أمر فغالبا ما تتخـذ عدة خطوات للوصول الى العلاقـة الرابطة التى تصل الخاصة الموضوعية الميكروسوسيولوجية بما تمثله ٠ على سبيل المثال ، حيث تسود المجتمع نظرة المساواة المطلقة واهمية المنجزات فان ما يلاحظ هـو أن هذا المجتمع لا يهتم بوسيلة النجاح بقـدر اهتمامه بالنجاح نفسه ٠ وقد يؤدى ذلك الى نوع من التسامح فيما ترتكبه النقابات أو الاتحادات من فساد ٠ وقـد توصل الى هـذه المصادرة « ليبست » ، فيما يتعلق بالمجتمع الامريكى ، حيث يسود الاحساس بأن الدخل الفردى على اطلاقـه أهم كثيرا من التعرف على مصدر هـذا الدخـل أو طريقة الحصول عليه ٠

وقـد قارن (ليبست) بين الراى العام الامريكى والاوربى فيما يتعلق بتفضيل الدخـل الفردى من العمل اليدوى على الدخل الاقل من العمل الاكثر

ارتباطا بالطبقة الوسطى · وقد اتضح ان العمال الاوربيون يفضلون الاخير ، اما الامريكان فيفضلون الاول · وتعد أبحاث « داهرندوف » Dahrendorf المتعلقة بمسألة الديمقراطية فى ألمانيا وما تتعرض له من قضايا حيوية من اهم الابحاث التى اعتمدت على نسق متكامل من الخواص الموضوعية الماكروسوسيولوجية ·

فقد بدأ « داهرندورف » باربع عوامل أساسية ، منها النظرة الى نظام أو نسق القيم فى ألمانيا · وعلى حين أن (اكستين) حدد بحثه على المجتمع النرويجى ، فان (داهرندورف) جعل بحثه نوعا من المقارنة بين المانيا وعددا من الدول الانجلوسكسونية · ويتشابه (داهرندورف) مع (ليبست) فى هذا الاتجاه غير انهما يختلفان فيما بينهما فى نقاط عدة · فعلى حين لم يحاول (ليبست) تحويل القيم وتجسيدها فى خواص موضوعية ماكروسوسيولوجية ، فان داهرندورف قد قام بالتمييز بين القيم العامة والقيم الفردية ·

واذا كانت القيم العامة تشتمل على نحو ما أوضح (داهرندورف) على تشجيع الافراد على الابتسامة الدائمة والعدل فى التعامل مع الاخرين واحترام حقوقهم الى آخر ذلك ، فقد ابان أن القيم الفردية الاساسية فى المجتمع الالمانى تتجلى فى الثقة بالذات والاخلاص للاسرة والتماسك عند الشدائد · ومن أهم المؤشرات التى استخدمها (داهرندورف) مؤشر النظرة الى الاحساس بالوحدة عندما قارن بين الشعور الالمانى بالوحدة وشعور الشعوب الاخرى · فالالمانى يرى أن الوحدة هى نوع من البطولة ، على حين أن معظم الشعوب الانجلوسكسونية ترى فى الوحدة دالة على عيب أو انتقاص فى اجتماعية الفرد وقد وصل « داهرندورف » الى تقرير ن القيم الفردية اهم من القيم العامة ، ذلك ان القيم الفردية تنتقل الى الافراد عن طريق الاسرة ، أما القيم العامة فهم يحصلون عليها من المدرسة · ومن ثم كان عليه أن يقيم الدليل على أهمية الاسرة الالمانية التى تفوق أهمية المدرسة · من هنا كانت دراسته لهاتين المؤسستين الاسرة والمدرسة ·

وقد وجد داهرندورف ـ من بين المؤشرات التى استند اليها ـ ان دستور

جمهورية المانيا الاتحادية هو الدستور الوحيد الذى أعطى الاسرة المسئولية الكاملة فى تعليم أطفالها · كما وجد أنه فى حالة التنازع بين الاسرة والمدرسة أمام محكمة ما فان قرار المحكمة غالبا ما يكون فى صالح الاسرة · ويرى « داهرندورف » أن التعليم المدرسى يستمر الى ما بعد وقت الظهيره ، ومن ثم فان الاطفال لا يذهبون الى منازلهم لتناول الغذاء حيث يظلون طوال اليوم · اما أنواع الرياضة والانشطة الاجتماعية الاخرى ليست متضمنة فى المناهج المدرسية ·

ولقد أورد « داهرندورف » العديد من الوثائق المتعلقة بالمنظارات حول العملية التربوية فى المانيا ، حيث اتضح من هذه الوثائق أن اهتمام المدرسة ينصب على التشكيل الفكرى للطلاب فى المراحل المتقدمة ، وأن مسئوليتها مسئولية عامة وليست مسئولية متخصصة · ومعنى ذلك أن ما تبقى من العملية الاجتماعية فقد ترك للاسرة · كذلك اتضح له أن أولى الامر لا يهتمون بملاحظات المدرسين المتعلقة بمنع الطلبه من حضور الالعاب الرياضية على أساس أن الطلاب ليس لديهم الدافع الكافى لحضور الالعاب الرياضية المدرسية · وربما يعنى ذلك فى كثير من الاحيان أنه ليس من عمل المدرسة أن تهتم بتطوير هذه الدوافع الاجتماعية التى من شأن الاسرة أن تقوم بها ·

وقد قام « داهرندورف » بالاشارة كذلك الى استطلاع الراى العام فيما يتعلق بأهم الصفات الشخصية المرغوب فيها · وقد توصل الى أن نصف الذين قابلهم – على وجه التقريب – يعطون أولوية أو أهمية للاحساس بالانتماء للاسرة كأهم الصفات المرغوب فيها فى المانيا · ولابد أن نذكر فى هذا المجال أن « داهرندورف » قد استخدم المؤشرات اللغوية فى أبحاثه · ومن المعروف أن علم الاجتماع اللغوى ، وقد أضحى مجالا جديدا للبحث ، يهتم بتناول البناء الاجتماعى وانعكاساته على العادات اللغوية · وقد انعكس تطور هذا العلم فى عملية البحث حيث أصبحت التركيبات اللغوية هى التى تشكل البناء الاجتماعى ، أو بمعنى آخر بينما أن اللغة التى يتعلمها الاطفال تؤثر على طريقة رؤيتهم للاشياء أو للبيئة الاجتماعية ، فانه البيئة من شأنها بالتالى أن

تؤثر على العلاقات التى يكونونها مع غيرهم • من هنا يمكن القول أن اللغة تقوم بعملية تاثير على البناء الاجتماعى من جيل الى آخر • وتعد دراسة العلاقات المتداخله بين اللغة والبناء الاجتماعى من المواضيع الجديدة بالنسبة للتحليل الاجتماعى اى بالنسبة لعلم الاجتماع الشمولى • ذلك ان المؤشرات اللغوية تستخدم جانبا الى جنب مع انواع أخرى من المؤشرات ، ويظهر ذلك فى التعبيرات اللغوية التى تدل على موقف اجتماعى واحد فى المجتمعات المختلفة ، فالمرشح الامريكى يجرى للانتخاب ، Runs for election أما البريطانى فهو يقف أمام البرلمان Stands for parliament أما المرشح الفرنسى فهو يقدم نفسه للناخبين Presents himself to electerate

من هنا نرى أن نفس الموقف الاجتماعى الواحد تستخدم المجتمعات الثلاث تعبيرات مختلفة لتدل عليه • والخلاف بين هذه التعبيرات أكثر من مجرد الاختلاف اللغوى حيث نرى أن لدى أهل لاسكيمو ، مثلا ، تعبيرات كثيرة يصفون بها الثلج تماما كما لدى العرب تعبيرات كثيره يصفون بها الجمال • أى أن التعبيرات المستخدمة فى موقف اجتماعى بالنسبة للمرشح اكثر دلالة لدى بعض الشعوب التى لديها اسماء كثيره لشىء واحد •

أخيرا لابد أن نشير الى اهمية الدور الذى تلعبه عينات الماكروسيوسولوجى فقد اشرنا فى الفصل الاول الى اهمية الفروق الهامشية بين الاجابات المقدمة على سؤال واحد • ورأينا ان ذلك يعتبر الخطوة الاولى لاى مسح تحليلى • وقد أصبح من الضرورى فى عملية التحليل أن نقوم بوضع جداول رأسية وأفقية توضح العلاقة بين مختلف الاسئلة ومختلف الاجابات •

فقد بين اكستين أن الشعب النرويجى أكثر الشعوب ثقة فى ابناء شعبه • كما أقام ليبست الدليل على أن أعمال أو وظائف الطبقة الوسطى فقدت أهميتها فى الولايات المتحدة • كما اشار دامرونجورف الى اهمية الاسرة والانتماء اليها فى المانيا • وتعتبر تلك الدراسات امثلة توضح لنا الفروق الهامشية داخل الجداول الرأسية والافقية •

يتبين مما تقدم أن حديثنا - عن تكون الخواص الموضوعية الماكروسوسيولوجية كان بمثابة توضيح لنوع للقضايا العامة التى يمكن أن تندرج تحتها هذه الخواص • ويمكن أن تتضح الصورة بشكل أكثر اذا أضفنا للامثلة السابقة بعض الامثلة الاخرى •

اهتمت دراسة اكستين - كما رأينا - باستقرار النظام الاجتماعى ومشاكله • ولقد استمر هذا الموضوع كموضوع هام فى الابحاث الاجتماعية • بيد أن تلك الاهمية قد خفت فى السنوات الاخيرة • فقد دعى بعض الكتاب مثل كوزر Coser الى وجوب دراسة الصراعات الاجتماعية •

ولقد استحوذت دراسة الصراعات على اهتمام علم الاجتماع الشمولى حيث كونت لنفسها مجموعة من الخواص الموضوعية أطلق عليها المتناقضات وتمدنا دراسة أيزنستادت Eisenstadt عالم الاجتماع الالمانى بمثال لابأس به لمعرفة هذا الاتجاه • فقد قام « ايزنستادت » بدراسة ما أسماه بالامبراطوريات البيروقراطية المركزية التاريخية على غرار الامبراطورية الصينية فى العصور الوسطى والامبراطورية العثمانية •ويرى هذا العالم أن الامبراطوريات الجديدة أكثر تنظيما من الامبراطوريات فى العصور الوسطى ، لكنها أقل تطورا لبعدها من الدول الصناعية كما قرر أنه اذا لم تنجح تلك الامبراطوريات البيروقراطية فى تنظيم نفسها اقتصاديا على الشكل الحديث فسوف تتحول الى امبراطوريات تماثل امبراطوريات العصور الوسطى •

ومعنى ذلك أن هذه الامبراطوريات البيروقراطية التى اشار اليها « ايزنستادت » تمثل مرحلة انتقال فى التطور الاجتماعى • ولقد أرجع « ايزنستادت » حالة الانتقال الى مجموعة من المتناقضات • وقد تنشأ بعض هذه المتناقضات فى سياسة الحكام التى تناهض بعض الطبقات الاجتماعية بينما تساند بعض الطبقات الاخرى • كما قد تنشأ اشكال أخرى من المتناقضات عن بعض الهيئات البيروقراطية التى تحدد لنفسها اهتمامات

تتعارض مع مصالح الحكام · وتعد التشريعات الطبقية ـ كذلك ـ من أهم العوامل المسئولة عن ظهور تلك المتناقضات ·

ويؤكد « ايزنستادت » أن الطبقات الوسطى الجديدة حين لا تستطع التخلص من الرموز التقليدية الماضية نجدها تنسج لنفسها محيطا أرستقراطيا تعيش فيه بين السياسات والخطط طويلة المدى وتلك قصيرة المدى · واذا أضفنا الى كل ما تقدم الاتجاه الى خلق نمط من البيروقراطية الذاتية ، سوف نجد أن هذه التناقضات قد افضت الى وضع الاسس التى جعلت الحاجة الى التغير الاجتماعى أمرا حتميا ·

وفيما يتصل باهتمام بعض علماء الاجتماع بدراسة تنميط النظم الاجتماعية ـ مثلما أشارت دراسة رنسمان فان المصطلح الذى استخدم للتمييز بين أنماط ومجموعات النظم كان له معنيين ، فمن ناحية نجده يشير الى تناول جماعات خاصة من السكان ، كما فعل « رنسمان » حين قارن بين العمال اليدويين وغير اليدويين وتهتم ـ فى هذا الاطار ـ الدراسات التى تتناول الصفوات بهذا المستوى او المعنى · ويشير المدلول الثانى الى تقسيم المجتمع الى عدة نظم كالنظم السياسية والاقتصادية والدينية ، او تقسيمه الى مجموعات يمتلكون ويحكمون أو يحكمون ولا يملكون · ومن أهم التقسيمات الحديثة التى أثرت فى الدراسات الاجتماعية ، التقسيمات التى وضعها « توماس مارشال » عندما درس تطور المواطنه فى انجلترا · ويقول فى تحليله لتطور فكرة المواطنه ، أن نشأه الحقوق المدنية ترجع الى تطور الرأسمالية · فقد أنشئت المحاكم للحفاظ على هذه الحقوق مما أدى ـ بحكم هذه الطبيعة ـ الى النضال من أجل الحقوق السياسية · أى أن الحقوق السياسية جاءت تاليه على الحقوق المدنية · ولم تنشأ الحقوق الاجتماعية الا مع التسليم وبعد وجود الحقوق السياسية والمدنية · ويعد مقال « مارشال » فى حقوق المواطنه من أهم الاعمال فى علم الاجتماع [illegible]

ويعد المثال المـاخوذ من « ليبست » نمطا آخر للانشغال السسيولوجى بدور القيم فى عمل التظم الاجتماعيـة اذ ان اختيارات الافراد وعـــلاقاتهم بالاخرين تحددها ما يتمثلوه من قيم عن بعض الاهداف وانماط السلوك التى يؤمنون بها • ومن المؤكد أننا لا نعزف على وجـه التحديد كيف تطور او نشا الدور الالزامى لهذه القيم • ويعتقد البعض أن هذا الدور الالزامى ينشا مع عملية تنشئه الطفل الاجتماعية حيث يتجلى فى أشكال او صور مختلفة • وعلى الرغم من عدم وضوح كيفية قيام أو ظهور هذا الدور ، فان ما نعرفه جيدا ـ رغم ذلك ـ هـو أن هناك ـ رغم ذلك ـ دورا تلعبه القيم فى النظام الاجتماعى • ومن ثم فقد اهتم كثير من علماء الاجتماع الشمولى بدراســة دور القيم واهميتها فى المجتمع • ولسوف فى دراسته لسياسة Lucian Pye نناقش الدراسة التى قام بها (لوسيان بيى) بورما •

فقد ناقش « بيى » بالتفصيل اثنين من القيم أحـدهما يتعلق بفكرة القيادة القوية فى بورما والاخر يتعلق بشعور المواطن فى بورما الذى يتجلى فى عـدم الاهتمام بمصالحه والاذعان لمطالب الاخرين ، و بمعنى آخر يناقش قيمة القوة القيادية من ناحية وقيمة الاثار المترتبة عليها من ناحية أخرى • فكل الطبقات فى بورما تعتبر القيادة القوية نوعا من الرومانسية الخطرة كالحب فى المجتمع • فلابد أن يكون القائد جياش العاطفة اى لابد اللايتسم بالعداء تجاه الذين يرغبون الحياة فى سلام • وقـد انتهى « بيى » الى تقرير أن الصراع حول القيم فى بورما يرجـع الى بنـاء الاسرة وهـو يعد العامل المسئول عن الصعوبات التى تواجهها بورما فى حياتها السياسية •

ويعـد مفهوم التنظيم أحـد الابعاد الهامة أو القضية الرابعة التى اهتم بها علم الاجتماع الشمولى • فقد رأينا كيف حاول « دهرندورف » أن يقيس اهمية نمطين من أنمـــاط التنظيم الاجتماعى هما الاسرة والمدرســـة • فقد أوضحت دراسته ان علم الاجتماع يحاول الوصول الى الخواص المميزة للنظم تماما كما يفعل علم النفس حين يحاول وصف الشخصية الانسانية • ومن بين الموضوعات التى تلقى اهتماما كبيرا فى هذا المجال العلاقة بين سلطة وكفاءة المنظمات وبين ما يتصف به أفرادها من أخلاقيات ••• الخ •

واذا كانت هذه الخاصة الموضوعية لم تدرس الدراسة الكافية حتى الان ، فان أهم من قام بدراساتها هـو (شلز) Shills في دراسته التي اجراها على مثقفي الهند • ولقـد استفاد « شلز » في هذه الدراسة من الهندسة الفراغيـة وبخاصة فكرتي المركز والمحيط • ويقصد بالمركز تلك المؤسسات والادوار التي تمارس السلطة من أي نوع ، أما المحيط فهـو يتكون من مجموع الوحـدات الاجتماعيـة التي تتلقى الاوامر والتصـورات وتسهم بدورها في تكوينها او انتشـارها •

واذا كان لهذين المفهومين مدلولهما المساحي فان مدلولهم الاجتماعي يتبلور في مفهوم المؤسسة أو المنظمة ، كما يمكن أن يكون لهم مدلول سيكولوجي اذا تحـدثنا عن احساس مثقفي الهند بالدونية الثقافية بالنظر الى الذين حصـلوا تعليمهم في الدول الاوروبية •

وقـد ناقش « شلز » بالتفصيل العلاقات المحتملة بين المحيط والمركز ، ويرى في هـذا الصدد أن المسافة بين المركز والمحيط هي بجال المسافة بين دولة ما وأخرى من حيث درجة اكتفائهم الذاتي • وأن انتقال المعلومات يسير دائما في اتجاه واحـد من المركز الى المحيط • ومهما يكن من أمر فان هـذه الفكرة من أهم الخراص الموضوعية التي قـد تثير كثيرا من الجدل والنقاش وتستدعي مزيدا من الابحاث •

العمليات المـاكروسيولوجية :

يمكن أن ننهج في تناول القضايا التي سنطرحها في هذه الصفحات الباقية من هذا الفصل أحد منهجين متطرفين ، فاما أن نبدأ بتعريف واضح دقيق للعملية الاجتماعية بأن نتعامل مع خاصة موضوعية محدده ثم ملاحظاتها بشكل مستمر • أم نلجاء للوسيلة الاخرى التي تقوم على استخدام منطق التفسير ، أي ننطلق من تفسير الاشياء التي نراها الى وضع تعريفات •

ويعد « هيمبل » من بين المناطقـة المعاصرين الذين يمـكن الاستفاده من اتجاهاتهم في هذا الفصل • فقد بدأ « بتعريف دقيق أخـذه من العلوم الطبيعية ، حيث يرى أن تفسير اى حـدث بسيط يمر بعـدد من الخطوات يتضمنها قانون

عام يتجلى فى الربط بين المتغيرات والكشف عن المعايير والقيم التى يرتبط بهـا الحـدث ٠

ويرى هيمبل ، ولاسباب مختلفة ، ان تلك القاعدة لا يمكن تطبيقها بدقـة على الظواهر التاريخية المركبة ٠ ومن ثم فقد ادخـل مفهوم أو فكرة كروكيـات التفسير أو التفسير الكروكى اى الاولى Explanation Sketches وتستخدم تلك التفسيرات الاولية حين لا يكون القانون العام معروف جيـدا ، ومعايير الموقف غامضة ٠

ويتبين من منطوق هذا المفهوم ، انه يعلو فـوق كل أشـكال التفسير الناقصة ، التى تحتاج الى سـد وجوه النقص فيها عن طريق البحث الامبريقى ٠ وتتجلى وجوه النقص أو الغموض التى تسم المفهومات ، كما سيتضح من مثالنا ، فى أشكال عديدة ٠ من بينها ، الافتراضات أو التصورات غير المعلنة أو المحددة للمفهوم ، التجزيئى الذى يؤكد على جانب واحـد دون الاخر ، ثم التباين الشديد فى النتائج الامبريفيه ٠ والعنصر العام فى مثالنا هـو حركة أو عملية تؤدى منطلقة من عنصر بنـائى فى مرحلة مبكره الى عنصر بنـائى متغير فى مرحلة متأخرة ٠ ومما لا شك فيه أن محاولة الربط بين هـذين العنصرين سوف يسفر عنه وجود بعض العناصر أو العوامل السببية التى من شأنها أن تؤدى أما الى جعل العملية حالة حركة ، أو تحدد اتجاهها ، أو تربط عـددا من العـوامل السببية أم ان تجعل تيارها على نحـو آخر ٠

ومن المفيد ان نطبق مفهوم الكروكيات التفسيرية على عمل علماء الاجتماع الشمولى ٠ ويمكن أن توضح لنـا الدراسات الواقعية عـددا محـدودا من أشكال الكروكيات المفسره ٠ ويمكن أن تعكس لنـا تلك الاشكال التى يمكن أن نعنيها ، على نحـو دقيق ، روح التحليل السيولوجى القائم ٠ واذا كان عالم الاجتماع الشمولى يحبذ العمل مع عـدد محـدود من المفهومات الاساسية ، فانه يستخدم، بالتالى ، عدد محـدودا أيضا من أشكال التفسير ٠

ويمكن أن نميز فى نطاق تلك التفسيرات بين ثلاثة أنواع : التفسير الطولى،

Linear Sketch · والتفسير الاستراتيجى Strategy mode ثم التفسير الدياليكتيكى dialectic type ويوضح ذلك التصنيف بشكل دقيق روح كثير من أنماط التحليل السسيولوجى القائمة ·

(أ) ويعتبر التفسير الخطي او الطولى الذى يسير فى خط مستقيم من ابسط أنواع التفسيرات ، حيث يقوم على افتراض أو تصور أن أول عنصر من العملية هـو المسئول عن وقوع الثانى ، وبالتالى فهناك عنصر ثالث هـو سبب العنصر الثانى ثم رابع سبب للثالث وهكذا · أى أن عمليـــة التغيـر تتم بشكل خطى اوتوماتيكى مهمله – بذلك – وجود أية روابط بين السبب والمسبب ·

ويرجع ما يتسم به هذا النوع من تقصير أو عـدم اكتمال الى طبيعته شديدة التحديد التى تميل الى الالتجاء الى تفسيرات تفترض أن اسبابها ثابته لا تتغير ، الامر الذى يؤدى الى عـدم جـدوى الاعتماد على هـذا التفسير لانه يفتقد القدره على اعطاء الشكل الكامل للتفسير ·

ولقـد قام انكلز Inkeles بدراسة التغير المتتالى أو المتتابع فى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٣٠ · فقد تغير ، فى هذا الوقت ، شكل السلطة فى عملية الانتاج الصناعى حيث تبدل من المسئولية الجماعية الى نمط السلطة الفردية · وقـد أدى ذلك ، بالتالى ، الى اعادة تنظيم علاقات السلطة داخل النظام المدرسى باعتباره المستودع الكبير الذى يعد للمصنع · فقد افسح نمط العلاقة شـــبه المتساوية بين المدرسين والطلاب الطريق لقيام نمط علاقى آخر ذو طابع هرمى بينهما ، مما أوجـد ضرب من النظام داخل الفصل المدرسى ، كما وضع حـدا لاشكال عـديدة للافكار التقدمية · ويمكن القول أن آخر موجه من التغير حدثت فى الاسرة التى تعـد ، أساسا ، بمثابة استجابة لنمط السلطة المتغير للنظـام المدرسى · فقد حث الاباء الى ممارسة ضرب من التحكم المتشدد على أطفالهم وعلى أشكال الحريات ، السابقة ، وقـد ادى ذلك الى قيام ضوابط حكومية قاســـية ·

وما يمكن أن نستنتجه هـو أن تلك التغيرات وقعت داخل نظـام يقوم

على التحكم الشديد ، حيث يكون التغير فى القانون أو الوضع حاسم • كما يمكن أن نستنتج أيضا أن هذه الدولة تقل فيها العقبات التنظيمية حيث لا توجد أية مؤسسات يمكنها ان تعارض او تناقض السياسة العامة للدولة •

(ب) التفسير الاستراتيجى ويمكن التعبير عنه مجازا بسلوك فرد يجد نفسه فى موقف معين ، وعليه أن يقرر ما عسى أن تكون عليه الخطوة التالية •

ولقد درس « اتيزونى » Eizioni الاتحاد كعملية تؤدى عن طريق الجمع بين الوحدات المنفصلة أو المنعزلة الى مجتمع محلى أكبر : ويتعين أن تتخذ خلال تلك العملية ، كثير من القرارات الاستراتيجية • وتعد بعض هذه القرارات ، من الوجهة الامبريقية ، خطوات فى الاتجاه السليم ، على حين تؤدى الاخرى الى الفشل • وقد تؤدى بعض تلك القرارات الاستراتيجية فى أوقات الازمات أما الى الاسراع او الابطاء بجهود الاتحاد • وتعرف النتائج أو الاثار بأنها المنتج المباشر للقرار • فمن المحتمل أن يؤدى الاسراع بالوحدة الى تعطيلها أو ربما يؤدى الى تدمير الجهود التى بذلت من قبل ، وربما كان التأخير فى عملية قيام الوحدة هو أسرع السبل فى المدى البعيد • ولا يهتم « اتيزونى » بمشكلة التعرف على لماذا اتخذ قرار معين ، اذ يهتم بالنتائج المتداخلة العديدة التى نشأت عن التشعبات السابقة ويحدد وزنها النسبى فى اطار المنتج أو الاثر النهائى •

واذا كان فى الامكان الوقوف على أصل أو كيفية اتخاذ القرار ، بسهولة فى المثال السابق ، فان ذلك يتعذر تحقيقه خاصة اذا كان اتخاذ القرار رهين صفوة حاكمة أو أى طبقة أخرى من المجتمع • ولقد قيل ان بعض الاتجاهات الحاسمة تتجلى بالضرورة فى بعض الأفعال الواضحة • وقد قام « مور » Moore فى هذا الصدد بمقارنة رد فعل الارستقراطية الانجليزية والفرنسية بالنسبة لنظام المزرعة التجارية الجديد • وقد وجد « مور » أن التحول من ملكية الارض الارستقراطية الى مجتمع صناعى حديث أمرا سهلا بالنسبة للانجليز ، حيث كان أصحاب الارض مشتركون فى عمليات تجارية

مما سهل تقبلهم للتحول الاجتماعي الكبير · أما الفرنسيين الذين لم يشتركوا في عمليات تجارية ، فقد كان الامر صعبا بالنسبة لهم · وهنا نلحظ ارتباط التفسير الاستراتيجي بالتفسير الخطي ·

(ج) ويختلف التفسير الاستراتيجي عن التفسير الخطي من حيث اهتمامه بالعوامل ، حتى وان كان الامر يتعلق بعامل واحد ، كمعرفة – على سبيل المثال – رد فعل واحتمالات الاختيار · ذلك أن قرارا أو عاملا واحدا من شأنه أن يترتب عليه آثار بعيدة عديدة · ويمكن أن يصبح نموذج التفسير الخطي أكثر ثراء لو وضعنا في الاعتبار ان تفسير أي حدث من الاحداث يتعين أن يستفيد من نمط التفسير الدياليكتيكي الذي يهتم بأكثر من خط في نفس الوقت · فالعمليات الاجتماعية تكشف عن نفسها وتتفاعل مع بعضها البعض ·

فقد تظهر مقاومة لعملية التغير الاجتماعي ، وفي هذه الحالة اما أن تحبط العملية وأما أن تغير اتجاهها الاصلي ، وأما أن تؤدي الى تراجع الحركة الاجتماعية · فالتأثير الدياليكتيكي – اذن – من شأنه أن يضيف أفكارا اجتماعيه جديدة لما يتضمنه من ارتباط الفعل برد الفعل باستمرار · ويكشف تحليل النظم – تبعا للتفسير الدياكيلتيكي – أن النظم تتداخل مع النظم المحيطة بها ، مما يترتب عليه وقوع كثير من النتائج لا يمكن معرفتها قبل بحثها ·

ويمكن أن تعد دراسة تحول فرجينيا من مجرد مؤسسة الى مجتمع مثال طيب لفكرة العملية الديالكتيكية وتاثيرها · فقد بدأت فرجينيا كما يقول دياموند Diamond على غرار شركة الهند الشرقية ، بيد أن القلاقل التي صاحبت اقامة الشركة أو المؤسسة ادت الى احباط كل التوقعات السابقة ·فقد واجهة المؤسسة ، مثلا ، صعوبات في ايجاد أي عمالة كما تجلت في فقد الموارد المعدنية الامر الذي أدى الى اجبار الشركة على أن تغير اهدافها وتتحول من البحث عن المعادن الى الانشغال بالانشطة الزراعية ·

وقد ادى ذلك الموقف الى محاولة الشركة وضع حوافز واغراءات للعمال المجلوبين من أوروبا على وجه الخصوص تجلت في منح المواطنين حق امتلاك

قطعة من الارض ، بعد أن يقضوا فترة زمنية فى العمل · ولقـــد دأدى ذلك كله الى تغيير اساسى فى شخصية المؤسسة اذ تغيرت شخصيتها الاحتكارية الاولى ونتج عن ذلك اصدار عـدة قوانيين كان من شانها خلق الاسس التى ارست بناء مجتمع لم يكن وراد فى الحسبان عند تخطيط هـذه المؤسسة فى بداية الامر على غرار شركة الهند الشرقية البريطانية فى الهند ·

يتبين من هـذه الدراسة ان ما فرض من حلول لمجابهـة مشكلة مؤسسة فرجينيا لم تكن قائمة من قبل ، بل لم تكن متوقعه عند قيام المؤسسة · ومعنى ذلك أن البيئة لعبت دورا هاما فى تشكيل وتحـديد المشاكل وبالتالى فرضت مجموعة من الحلول اد تبدورها الى تغير فى البناء الاجتماعى للمنطقة ·

ومما لا جدال فيه أن التعرف الدقيق على اطار أى مؤسسة اجتماعيه يتطلب بالضرورة معرفه دقيقه بالتاريخ التطورى لهذه المؤسسة · وقـد نبـه الى هذا الامر البحث الذى قام به « سمسلر » Smelser فى تحديد وتعريف الاسرة البريطانية ابان الثورة الصناعية · فقد كانت الاسرة الانجليزية التى تنتمى الى الطبقات الدنيا فى بداية الثورة الصناعية متعدده وظائف ، وان كان لها بعض العلاقات المعروفه بين الاباء والابناء · بيد أنه سرعان ما دعت الحاجه الى حدوث تغييرات اجتماعية خاصة بعـد دخول الاستحداثات التكنولوجيـة فى مجـال الصناعة ·

فقد تهددت الحالة الاقتصادية للاسرة كما ظهر قـدر كبير من الاضطرابات التى استدعت وجـود حلولا تشريعية وتنظيمية لساعات العمل وظروفه داخل المصانع بعـد أن منت بالفشل المحاولات التشريعية السابقة · وقد استطاع التشريع الانجليزى عام ١٩٤٧ أن ينجح فى اصدار قرار كان من شانه تحـديد وظائف الاسرة عن طريق منع تشغيل الصبيه من ناحية ، وتحـديد ساعات العمل بالنسبة للمرأة حتى تستطيع القيام بوظائفها المنزلية تجاه أطفالها · وجـدير بالذكر أن المحاولات التشريعية لعام ١٩٤٧ كانت فاشلة ، اذ ادت الى اضطرابات لم تكن موجودة من قبل

فقد أدى القانون الخاص بتخفيض ساعات العمل بالنسبة للاطفال الى بعض الاضطرابات ، وبخاصة فيما يتصل بموقف الام العاملة من ابنها العاطل · أما القانون الثانى الذى حرم عمل الاطفال ، ولم يحاول الاقلال من ساعات العمل بالنسبة للمرأة لم يكن كاملا ولا ناجحا أيضا · فقد أدى الى مزيد من الاضطرابات فى العلاقة الاسرية بين الاباء والابناء ، حيث كان يعتمد الاباء قبل ذلك على عمل الاطفال · واذا كان القانون الاخير الذى صدر عام ١٩٤٧ قد سعى الى تحقيق نوع من التوازن فى حياة الاسرة ، وجعلها قادرة على أن تكيف نفسها مع العصر الصناعى الجديد ، فانه لم يستطع أن يحقق ذلك بشكل مفاجىء اذ أخذت الاسرة – من نفسها – تتوافق مع احتياجات الصناعة الحديثة بشكل تدريجى ·

واذا كان بعض علماء الاجتماع لم يحاولوا ربط التغيرات الاولية بوجود ما يطلقون عليه المتواليات المرحلية ، أى أنهم يحاولون التوصل الى تحديد المراحل التى يمر بها النظام الاجتماعى فى تغيره ، فان علماء الاجتماع الشمولى لم يهملوا هذه الفكرة · وعلى سبيل المثال فقد اقترح « سمسلر » سبعة خطوات تمر فيها الانظمة الاجتماعية الاولية كالاسرة حتى تتغير فى بنائها ·

فعلى سبيل المثال يبدأ تغير الاسرة بوجود خلل وظيفى داخلها أو خارجها ، مما يدفع الى التحرك للبحث عن حل لما ينبع عن ذلك من اضطرابات حتى نصل الى حل · يقول « سمسلر » أن النظم الاجتماعية قد تمر بتغير دون المرور بكل المراحل أو الخطوات ويؤكد « بندكس » Bendix · أنهذه التغيرات قد تختلف من مجتمع الى آخر تبعا للمرحلة الزمنية والبيئة الاجتماعية ككل · ومثالا على ذلك أن مراحل التغير التى مرت بها انجلترا ، أو تحول فيها المجتمع الانجليزى من الزراعة الى الصناعة لم تكن بالضرورة نفس المراحل التى اجتازتها ألمانيا ، حيث استطاعت ألمانيا أن تستورد بعض العناصر التكنولوجية الجاهزة من انجلترا ·

ويضيف « بندكس » انه على الرغم من أن التحرك الصناعى بدأ فى ألمانيا

واليابان فى نفس الوقت ، الا أن التاريخ السابق على الصناعة فى كل من البلدين جعل التغيرات اليابانية تختلف تماما عنها فى المانيا ٠

ويتفق « ديفا » Deva المؤلف الهندى مع الراى القائل بأن التغير الاجتماعى لا يتم بنفس الطريقة تحت كل الظروف ٠ ويضرب لنا أمثلة عديدة على ذلك فيقول :

« أن ما يعد ابتكارا فى وقت ما قد يصبح تأخرا فى وقت آخر » فأول مدينة استخدمت عربات الترام ستغدوا مدينة قديمة من الوجهة التكنولوجية ، اذ ما استخدمت مدينة أخرى وسائل نقل أكثر كفاءة ٠ ويقرر (ديفا) أن الدول التى بدأت الحركة الصناعية كان عليها ـ فى بادىء الامر ـ أن تشجع التجارة الحرة فتتخلص من اقتصاد العصور الوسطى ، وقد بدأت بعد ان تعقد نظامها الاقتصادى تعرف مركزية التخطيط والوانا من التدخل الحكومى ، الامر الذى جعلها تلقى مقاومة كبيرة عندما تحاول التغير وبخاصة من جانب الرواسب الباقية للنظام الذى وضعته الدولة عند تشجيعها للتجارة الحرة ٠

وعلى العكس من ذلك النموذج فان الدولة التى بدأت حركة التصنيع متأخره فيها وقامت على استيراد النظم الاقتصادية المعقدة ، لم تجد مقاومة لسبب بسيط هو أنه لم يكن لديها نظام اقتصادى يدعو للتجارة الحرة ٠ فلم تعرف هذه الدول فى تطورها مرحلة الاقتصاد الحر لا لاسباب سياسية ، لكن لانها رات أنه يمكنها ببساطة أن تتحرك مباشرة الى نظام أحدث منه ٠

وهناك نوع جديد من الجدل الاجتماعى يجدر الاشارة اليه يتعلق بقضية لتييم النتائج التى نحصل عليها من دراسة مجموعات اجتماعية صغيرة على المستوى الشمولى بيتر هوفتون Beter Hoftion أن النتائج التى نتوصل اليها من دراستنا للجماعات الصغيرة حيث يمكن دراستها بسهولة يمكن أن نطبقها على المجموعات الاكبر كالدولة التى لا تعدو أن تكون أكثر من جماعات متعددة صغيرة من الافراد ٠

وقد استخدم هوفستاتير Hofstatter ما توصل اليه بيلز Beals

من انه يمكن التمييز بين الجماعات الصغيرة بين نوعين من الأبطال ، ابطال شعبيين وابطال اكفاء ، اذ طبق هذه النظرية على الشعوب ، وانتهى الى أن الالمان يعتبروا القادة الاكفاء للشعوب تماما كالفرنسيين الذين يعتبروا أحب شعب للشعوب • ومعنى ذلك ان فردا واحدا قد يكون أكفأ الابطال بالنسبة لجماعة معنية ، كما قد يكون فرد آخر غيره أحب الافراد بالنسبة لها أيضا •

ولقد ناقش اتيزونى Etzioni هذا الموضوع بشكل أكثر دقة • وقد استخدم مقوله نظرية كمصادرة على وجود علاقة بين متغيرين او أكثر • ويرى أن تلك المقولة يمكن نقلها أو تطبيقها من مجال صغير محدود الى مجال اكثر اتساعا • بيد أن ذلك يتطلب توفر كثير من المؤشرات والمتغيرات والبيانات ، كما يتطلب أن تكون المتغيرات ثابته • ويدلل على ذلك بقوله أن الاصدقاء دائما ما يكونوا متشابهين فى خصالهم الاجتماعية ومواقفهم وما يفضلونه • وتبعا لذلك فان الجماعات لا تتكون الا اذا كان هناك قاسم مشترك من الخصال الاجتماعية التى تجعلهم أكثر ارتباطا • وينقل « ايتزونى » تلك المصادرة من اطار العلاقة الاجتماعية الداخلية الى اطار العلاقة الخارجية • فالجماعات المتشابهة فى خواصها يمكن أن تكون فيما بينها نوعا من الوحدة وخاصة مع الجماعات التى تشترك معها فى نفس الخواص • ويدلل « اتيزونى » على ذلك بنجاح السوق الاوروبية المشتركة لاشتراك كل من دول السوق فى بعض الخصال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية • ويمكن أن ينسحب نفس الوضع على الجهود المبذولة لتكوين اسواق مشتركة فى أفريقيا وأمريكا •

ويطبق « اتيزونى » هذه المصادرة ـ أيضا ـ على امكانية الوصول الى حكومة عالمية ، اذ تدل بعض المؤشرات على محاولة بعض الدول لاقامة مجتمعات او حكومات اقليمية • اذ يمكن لهذه الحكومات بفضل توفر بعض الخواص المشتركة فيما بينها تنظيم وحدة مما يجعل بالتالى فى الامكان قيام حكومة دولية او دولة عالمية • ومن ثم فان استخدام هذه المصادرة فى علم الاجتماع الشمولى من شأنه أن يمكننا من التنبؤ بما يمكن أن يحدث فى المستقبل لاى

مجتمع عن طريق نقل النتائج المنبثقة من دراسة الجماعات الجزئية الصغيرة الى الكليات ٠

يتبين مما سبق أننا اهتمامنا بمناقشة الخواص الموضوعية الاجتماعية والتفسيرات العامة باعتبارها الاسس البنائية لعلم الاجتماع الشمولى ٠ غير انه من الملاحظ أننا اكدنا بشكل واضح على منهجية الابحاث نظرا لجدية علم الاجتماع الشمولى واهتمامه بالقضايا الاجتماعية الكبرى وما يتضمنه من نتائج اجتماعية وسياسية ٠ واذا كان هناك من تساؤلات يمكن أن يطرحها معالجة هذا العلم فانه من الممكن ترتيبها على النحو التالى :

(أ) لماذا يتعين تناول التكامل بشكل منهجى بدلا من تناوله بشكل نظرى ؟

(ب) كيف يختار عالم الاجتماع الشمولى مشاكله ؟

(ج) ما هو الدور الذى تلعبه النظم السسيولوجية القائمة فى تفسيرات علماء الاجتماع الشمولى ٠

(د) ما الذى يمكن أن تسهم به دراسات هؤلاء العلماء بالنسبة لعلم الاجتماع العام ؟

وجدير بالذكر أن تلك الاسئلة من شانها أن تؤدى الى أحدث النظريات السسيولوجية التى سوف يتعرض لها بالتفصيل الفصل التالى من هذا الكتاب ٠

قائمـــة ببليوجرافية

1 — Almond, G. and Coleman, J. (eds.), The Politics of Developing Areas, Princeton (N.J.), 1969.

2 — Almond, G. and Verba, S., The Civic Culture, Boston (Mass.), Toronto, 1963.

3 — Apter, D., The Politics of Modernization, Chicago (Ill.), 1965.

4 — Aron, R., 18 Lecons de La Société Iidustrielle, Paris, 1966

5 — Bailyn, B., "The Ovigins of American Politics" in : Perspectives in American History vol. 1, 1967.

6 — Bellah, R., Tokugawa Religion London, 1959.

7 — Bendix, R., Nation - Building and Citizenship, New York, 1964.

8 — Benedict, R., The Chysanthemum and the Sword, Cleveland; London, 1967.

9 — Coulborn, R. (ed.), Feudalism in History, Princeton (N.J.). 1965.

10 — Dahrendorf, R., Geeellschaft und Demokrarie in Deutschland, Munich, Piper & Co., London, 1968.

11 — Diamond, S., "From Organization to Society : Virginia in the 17th Century", American Journal of Sociology, 63, March 1958, P. 457.

12 — EckStein, H., Division and Cohesion in Democracy, Princeton (N.J.), 1966.

13 — Eisenstadt, S. N., Political Systems of Empires, London, 1969.

15 — Geertz, C., Agricultural Involution, Berkeley (calif.), 1966.

14 — Etzioni, A., Political Unification, New York, 1965.

16 — Goldthorpe, J., "Social Stratification in Industrial Society" in : R. Bendix And S. Lipset, Class, Status and Power, London, 1967.

17 — Inkeles, A. and Bauer, R., The Soviet Citizen, Cambridge (Mass.), 1959.

18 — Leach, E. R., Political Systems of Hoghland Burma. Boston (Mass.), 1954.

19 — Levy, M., Modernization and the Structure of Societies, Princeton (N.J.), 1966, 2 vols.

20 — Lipest, S.M., The First New Nation, London, 1964.

21 — Marsh, R., Comparative Sociology, N.y, 1967.

22 — Maishall, T. H., Class, Citizaenship and Social Development, New York, 1964.

23 — Mendras, P. (ed.), Société et Volonté Generale, Paris 1966.

24 — Moore, Jr., B., Sosial Origins of Dictatorship and Democracy, Boston (Mass.); London, 1967.

25 — Porter, J., The Vertical Mosaic, Toronto, 1965.

26 — Pye, L., Politics, Personality and Nation Building, New Haven (conn.); London, 1963.

27 — Runciman, W. G., Relative Deprivation and Social Justice, London, 1966.

28 — Shills, E., "Political Development in the New States", Comparative studies in Sociology and History 2 (3,4), 1960.

29 — Smelser, N., Social Change in the Industrial Revolution, London, 1959.

30 — Van Den Berghe, P., Race and Racism, New York, 1967.

31 — Witifogel, K. A., Oriental Despotism, New Haven (conn.), 1957.

الفصل الثالث

البحث عن نظرية

ظهر مفهوم نظرية بشكل واضح أول مرة ، من خلال التطور التطبيقى للعلوم الطبيعية • ولقد مرت النظرية – فى ظهورها – باطوار ثلاثة أساسية ، الاولى كانت فيه بمثابة عدد من الاصطلاحات الاساسية ، لبعض منها مقاييس ، والبعض الاخر مركب ، وهى اصطلاحات لم يتحدد صدقها فى بداية الامر • الثانية بدأت تتحدد فيه العلاقة بين الوحدات الإساسية مما ساعد على الوصول الى بعض الاستنتاجات • أما الطور الثالث فقد بلغت فيه النظرية مرتبة اخضاع الاستنتاجات لعملية الملاحظة الواقعية •

وتتسم النظرية فى ارقى اشكال تطورها بخاصيتين : الاولى ، طبـــع العمليات وما نصل اليه من استنتاجات بشكل كمى • الثانية الاتجاه الاختزالى Reductionist tendency فخواص الغازات يمكن معرفتها بحركة الذرات الغازية ، كما ان خواص المواد الكيمائية يمكن معرفتها عن طريق البناء الذرى لهـذه المواد :

ولا يمكن لاحد منا ان يعتقد ان هذا النمط من النظرية قائم اليـوم فى علم الاجتماع ، أو يتصور انه فى الامكان قيامه فى المستقبل القريب • ومن الجـدير بالذكر انه عندما يتحدث الكتاب عن النظرية الاجتماعية فانهم يشيرون فى [illegible] الى واحد او آخر من العمليات التالية :

١ – نسق تصنيفى موضوع بعناية •

٢ – اصطلاحات مركبة توجه الملاحظ نحو الحقائق ذات الاهمية •

٣ – صياغة مشكلات بحوث على مستوى عال من الاهمية الاجتماعية •

٤ – افكار عامة توضح المصدر الذى يأتى منه – فعلا – التغير الاجتماعى أو ذلك الذى يتعين أن يصدر عنه التغير •

٥ – افتراضات او توقعات تتعلق بنتائج امبريقية لم تستقر بعـــد « فروض » •

٦ ـ ربط النتائج الامبريقية بغيرها مما قد استقرت او بتلك التى ما زالت فروض « تفسير » ٠

وجدير بالذكر ان تلك الانشطة العقلية الهامة لا يمكن لاى عمل علمى أن يتحقق دونها ٠ اذ فى هذه الحالة يكون من الافضل أن نتكلم عن ما يمكن أن نسميه بالانعكاسات التحليلية بدلا من ان نستخدم كلمة نظرية ٠ وبهذا الشكل يكون الفرد قادرا بشكل افضل على تشخيص او تحديد أين يوجد الفكر المنهجى او موقعه فى علم الاجتماع ٠ ويمكن النظر لاشكال عديدة من الانعكاس التحليلى على أنها تشكل خطوات على الطريق الى نظرية بالمعنى الدقيق ٠ واذا كان علماء الاجتماع اعتادوا على استخدام كلمة نظرية بشكل عام فضفاض فانه ليس فى ذلك خطورة طالما انهم يتحاشون الوقوع فى أى خلط اصطلاحى ٠

واول تيار او اتجاه يوضح ذلك الموقف بشكل كامل الى حد بعيد ـ اتجاه « روبرت مرتون » الذى يلقى قدرا عظيما من القبول ويعبر عن هذا الاتجاه نظريات المدى المتوسط Middle Range وتعنى هذه النظريات كما يدل عليها اسمها بمستوى من التحليل يذهب الى ابعد من مجرد جمع الحقائق ، لكنه لا يدعى ـ فى نفس الوقت ـ الشمولية ولا يغرق نفسه فى التأملات الفكرية الضخمة التى ليس لها أى علاقة بالواقع ٠

وبعد عرض هذه النظرية ننتقل الى مرحلة ثانية فى تاريخ النظرية حيث نتناول الاتجاه الماركسى الذى غير تاريخ العالم لما ارساه من افكار ٠ فقد كان نتيجة للتاثير الكبير لهذا الاتجاه أن احجمت البلدان التى شملها وخضعت له لفترة ملحوظة من الزمن عن القيام باية بحوث اجتماعية امبريقية ٠ وقد تغير هذا الموقف بعد ذلك فى كل البلدان الشيوعية حيث بدأ علم الاجتماع بالمعنى الغربى يقبل فيها ويعترف به ٠ بيد ان ذلك لم يحدث دون تحفظات فقد تعرضت النظرية الماركسية فى بعض جوانبها الى التعديل ، بحيث أمكننا أن نشاهد فيها مجالا للعمل الامبريقى ، كما استفاد علم الاجتماع الغربى بدوره من هذا التحول ٠ ولسوف أحاول فى تحليلى أن أظهر الجوانب الايجابية فى تلك النظرية ٠

اما عن الموضوع الثالث فى هذا الفصل فسوف يتناول اهم اتجاه وابرزه على المسرح المعاصر وهو يتحدد فى الاتجاه الوظيفى الذى حظى بدراسات معمقة ومستمرة فى التراث السسيولوجى • واذا كان من الصعوبة بمكان ان نقرر بسهولة ما هو الاتجاه الوظيفى ، فان ذلك يرجع الى الاشكال العديدة التى تجلى فيها هذا الاتجاه حيث انشغل كل شكل بالبحث عن نظرية اجتماعية دون البحث فى طبيعتها • ويعتبر معظم علماء الاجتماع المحدثين انفسهم علماء وظيفيون ، ومهما يكن من امر ذلك التصور فاننى سأحاول القاء الضوء على الاثار الايجابية لهذا الاتجاه •

ولسوف احاول فى نهاية المطاف ان ابين مكانه فكرة علم الاجتماع النقدى فى سياقه التاريخى • ولقد ابنت الاسباب الدافعة الى هذا العمل فى المقدمة العامة التى وضعتها لهذا الكتاب •

نظريات المدى المتوسط :

تشير النتائج الامبريقية فى العادة الى وجود تفاعل او تداخل بين عدد من الخواص او المتغيرات • ومن الامثلة الدالة على ذلك ما لوحظ خلال الحرب العالمية الثانية من أن الجنود الجامعيين يتحملون أهوال الحرب بدرجة أكبر من اقرانهم غير المتعلمين • ويمكن أن نفسر هذه الملاحظة الملفته للانتباه بطرق متعددة او مختلفة • ومن بين التفسيرات المعقولة التي يمكن وضعها ما يلى :
ـ يتحمل الافراد ـ المزودين بالقدرة على أن يكونوا اكثر مرونة فى التعامل مع المشكلات ـ الازمات بشكل أفضل ، ومؤدى ذلك أن التعليم العالى يحقق ويساعد على وجود هذه القدرة • وتسمى النتائج فى اطار هذا الشكل العريض فى الغالب بالتعميم الامبريقى • اذ يمكنها أن تقدم لنا نتائج أخرى فى مجالات تبعد عن الحياة العسكرية •

يمكننا مما تقدم أن نخطوا خطوة أكبر لنقترب من مستوى نظرية المدى المتوسط • ويتعين ن تقرا هذه النظرية على النحو التالى : يحقق التدرج الاجتماعى نفسه فى المجتمعات الغربية بعدد متنوع من الميكانيزمات الاجتماعية منها وراثة الثروة وممارسة التاثير الاجتماعى اى السلطة ••• الخ • وتسهم

احدى تلك الميكانيزمات ، امداد الطفل بالتعليم العالى ، فى ايجاد اثرين على الاقل ، فهى تؤدى الى وظائف أفضل ، بالاضافة الى انها تحقق فرصة اكبر للبقاء ، اى الاستمرار فى مواقف الازمات أو التغلب عليها · ومن الجلى ، كما نرى ، ان القضية ليست مجرد دراسة سلوك معين نتيجة ازمة محددة ، انما القضية هى ميكانيزم اجتماعى معين من شأنه ان يديم اوضاع طبقية معينة على مدى أكثر من جيل واحد ·

وتحذرنا نظرية المدى المتوسط من مغبة استمرار التحليل وتوغله فى مستويات أعلى حتى لا نصل الى حد التصور التأملى كأن يبدء الفرد – على سبيل المثال – فى تأمل ما اذا كانت النظم الاجتماعية تتطلب نظما مستقرة ومستمرة من التدرج الاجتماعى وما اذا كان ذلك فى حالة ، صدقه ، نتيجة للطبيعة أم أنه نتيجة قانون يطبق على أى مجتمع فى أى مكان · ويقول انصار تلك النظرية انه اذا ما توغلت كثيرا فأن شيئا لن تستطيع تفسيره فى الواقع ، كما اننا ننتهى من حيث بدأنا ·

ولسوف نحاول فيما يلى تناول مثالين واقعيين بالتحليل لنثبت ما سبق ان أوضحناه ، بدلا من الوقوف عند حد الامثلة التصورية · والمثال الاول ماخوذ من « مرتون » نفسه · فقد بدأ مفهومه « بناء الدور » Rola Set من ملاحظة ان كل مركز اجتماعى Social Status لا يتضمن مجرد دور واحد بل انه يرتبط بمجموعة من الادوار · فالمدرس على سبيل المثال عليه أن يتعامل مع تلاميذه ، وفى نفس الوقت يتعامل مع القواعد المدرسية ومع أبويه أيضا · ويرتبط كل دور من هذه الادوار بمجموعة مختلفة من التوقعات ، كثيرا ما تكون متناقضة · ويقرر « مرتون » أن مفهوم بناء الدور قد أثار مشكلة تحديد الميكانزمات الاجتماعية التى تحدد وتوضح توقعات المنخرطين فى بناء دور معين وتقلل من الصراع بين الافراد الشاغلين لمركز ما ·

ويمكن تحديد بعض تلك الميكانزمات فيما يلى :

أولا – يختلف الافراد المشتركين فى الدور الواحد تبعا لدرجة ما لديهم من

قسوة ، فعلى سبيل المثال لابد أن يكون المدرس اكثر حرصا على القـــواعد من المشتركين معه فى نفس الدور ٠

ثانيا – كثيرا ما تؤثر شدة التلاحم بين الاعضاء الذين يشملهم بناء الدور ، على تشاغليه ٠ فعلى الرغم من ان الاطفال ، على سبيل المثال دائما ما يكونوا اقل قسوة ، فان المدرس بحكم مواجهته اليومية لهم وبحكم معرفته بردود افعالهم ، يعد اكثر قدرة على ارشادهم فى مواجهة الصعوبات التى يقابلونها مع المجموعات المنخوطة معهم فى الموقف ٠

ثالثا – يمكن استخدام التوقعات المتصارعة للفصل بين اعضاء بناء الدور الواحـد ، وهكذا يمكن للمدرس ان يثير الاباء غير الراضين عن احد المديرين ، خاصة اذا كانوا يميلون الى الديموقراطية ويميل هـو الى الافكار المحافظـة فى النظـام التعليمى ٠

رابعا – عزل بعض انشطة الدور التى تبدو عـدائية بالنسبة للاطراف الاخرى ٠ فالمدرس الذى يريد أن يدرس نظرية الاحيـاء الحـديثة يمكنـه ان يتحاشى كتابا معينا كى لا يثير غضب الاباء الرجعيين ٠

ويناقش « ميرتون » عـددا من الوسائل التى تســاعد على ادارة المواقف الاجتماعية القائمة ٠ اذ يرى انه اذا وصلنا الى درجة عالية من المواقف السلوكية المنتظمة سوف يتمكن الافراد – فى اغلب الاحيان – من اداء وظائفهم دون ان تقعـدهم صراعات بناء الدور ٠

ويمكننا أن نستنتج من مناقشة ميرتون عـددا من القضايا الاساسية ، منها ان مفهوم بناء الدور – فى حد ذاته – يوجهنا الى ظواهر اجتماعية فى غاية من الاهمية والتعقيد ، وان قائمة الميكانزمات ليست الا ضرب من التصنيف له قيمة تحليلية هامة ، وتشير كل من هاتين الفكرتين الى وجـود بعض المشاكل التى لا يجب انكارها ، منها على سبيل المثال الى اى مدى وتحت اية ظروف ينجح او يفشل ميكانيزم ما ؟ وغنى عن البيان أن هذه الميكانزمات لا تعبر عن

نظرية بالمعنى الكلاسيكي ، اذ هي جسر بين التأملات العقلية والملاحظة الامبريقية ٠

واذا كانت فكرة بناء الدور تهتم اساسا بالعلاقات بين الافراد ، فان المثال الثانى الذى سنعرض له يتناول مستوى أعلى من التعقيد اذ سيركز على العلاقة بين الهيئات والتنظيمات الكبيرة ، كالعلاقة بين البيروقراطية العامة والخاصة ، أو بين الجماعات الاولية وبخاصة الاسرة ٠ فاذا كانت البيروقراطية تتسم بلاشخصية وبوجود خطوط ثابته للاتصال تتميز بوجود الخبراء ٠٠٠ الخ ، فان الجماعات الاولية تقوم أساسا على العفوية والاتصالات المباشرة ٠ ومن ثم تحافظ ـ بذلك ـ على نوع الحياة الدافئة التى لا تضعها البيروقراطية فى اعتبارها ٠ ورغم ذلك فقد بدأنا نلاحظ فى السنوات الاخيرة أن كل من هذين النمطين المتناقضين يتداخلان فيما بينهما من حيث الادوار التى يؤدونها ٠

ولعلنا نبدأ بالقول أن الخبراء وهم دعامة البيروقراطية اصبح لا قيمه لهم وبخاصة فيما أسماه « لتواك ميير » Litwck Meyer بالاحداث غير المتوقعة ٠ وتنقسم هذه الاحداث الى ثلاثة أنواع ، منها ما يتميز بالبساطة بحيث يستطيع اى شخص التعامل معه كخبير كانقاذ ولد من أمام قرام أو سيارة ٠ وعلى النقيض من ذلك قد تصل معلومات الخبراء انفسهم الى غاية الضآلة فيما يتعلق بالتربية الاخلاقية للاطفال مثلا ٠ أما النوع الثالث من هذه الاحداث فهى تلك التى تصل فى ندرتها الى حد كبير من عدم التوقع بحيث يبدو أنه من غير الممكن علاجها عن طريق هيئة من الخبراء ومثال على ذلك الزلازل او الهياج الجماهيرى ٠

ومما لا جدال فيه ان الجماعات الأولية وخاصة الاسرة هى أكثر الجماعات قدرة على معالجة هذه الاحداث غير المتوقعة ٠ هنا تتراجع كفة البيروقراطية عندما تواجه مثل هذه الاحداث ، لما تحتويه من عوائق حتميه تتمثل فى وجود شبكات اتصال طويلة واعداد كبيره من المسئولين الذين يتعين الاتصال بهم لحل تلك المشكلات ٠ واضح هنا التناقض أو التباين بين البيروقراطية

والجماعات الاولية صغيرة الحجم المباشرة الاتصال فيما يتصل بمواجهة كل منهما للمشكلات ٠

ولما كانت الحياة مليئة بالاحداث غير المتوقعة التى لا تقوى الجماعات الاولية على التعامل معها ، كان لابد من وجود نوع من التعامل المرن بين الجماعات الرسمية والتنظيمات الكبيرة ٠ هنا تواجهنا مشكلة ايجاد نوع من الاتصال بين هذين النمطين لتسهيل التنسيق بينهم . ويشير « لتواك » ومساعديه الى قائمة الميكانزمات التى تساعد على هذا التنسيق ٠ واذا اكتفينا كما فعلنا من قبل بمجال التعليم ، يمكننا ان نقرر أن لدى المدرسة عديد من الاساليب المختلفة لاقامة خطوط اتصال مع الاسر التى تقوم بخدمتها ٠ فهناك الخبراء التربويين والمشرفين الاجتماعيين والممثلين الرسميين للمدرسة وضباط الامن ومجموعات من المتطوعين عن طريق مجلس الاباء ٠ كما أن هناك أيضا وسائل الاعلام ٠ بل قد يستخدم التلاميذ أنفسهم فى نقل الرسائل الى اباءهم ٠

ولا شك أن كل طريقة من هذه الطرق لها ميزاتها وعيوبها ٠ كما أن المشاكل المدرسية تختلف وتتنوع بدورها من حيث مضمونها ٠ فقد تكون المشكلة التى تواجه المدرسة امتناع المجتمع برفع قيمة المصروفات المدرسية ، أو قد تكون ممثلة فى كيفية مساعدة الاباء على فهم المشاكل التعليمية ، كما قد تكون قائمة فى محاولة الوصول الى تحقيق التعاون فى احد مجالات الصحة العامة ٠

يتبين أن الهدف الاساسى لنظرية التوازن التأكد من نوع الاتصال الاكثر مناسبة فى مواجهة عدد معين من المشاكل ، وقد اعتمد « لتواك » ومساعديه فى كتاباتهم ، للوصول الى ذلك الهدف على بعض الاقتراحات التى توصلت اليها بعض الابحاث الامريكية ٠

وعلى الرغم أننا لم نشر الا الى المؤسسات التعليمية ، فان لتواك يرى امكانية تطبيق هذه النظرية على نطاق أوسع من أشكال التنظيمات البيروقراطية والمجتمعات الصناعية ٠ ومن الثابت أنه رغم تجول اهتمام الدراسات من مستوى

الافراد كوحدات الى مستوى الهيئات والجماعات الاكبر ، فان نظرية التوازن لا تختلف كثيرا عن نظرية بناء الدور • فهى تلفت انتباهنا – فى هذا المجال – الى بعض الحقائق التى تحتاج مزيدا من الضوء ، من بينها وجود تصنيفات دقيقة من شأنها أن تساعد فى تنظيم الملاحظات الاولية ، وأفكار تنبثق عن الابحاث الجديدة • مما تقدم يتضح لنا أن هذه النظرية لا تؤكد ولا تتدعى استخداما موسعا لمصطلح النظرية • وعلينا أن نشير الى ملاحظتين ونحن بصدد البحث عن نظرية • فرغم أن نظريات المدى المتوسط قد لقت المزيد من المديح فى السنوات السابقة ، فان عددا محدودا من هذه النظريات لقيت بعض الاهتمام بتحليلها ودراستها • كذلك لم يتضح بعد متى يمكن توسيع نطاق تعميماتها الامبريقية ، بحيث تصل الى مستوى المدى المتوسط وما زلنا نتوقع مزيد توضيح هاتين الفكرتين •

واذا كانت نظريات المدى المتوسط قد عنيت فى احسن صورها بالهيئات او التشكيلات ذات المدى المتوسط فان هناك نظريات أخرى اهتمت بنطاق المجتمع ككل يمكن مناقشتها •

الماركسية :

وكيف استقبل الماركسيون البحث الاجتماعى الامبريقى ؟

يعد علم الاجتما الماركسى – كما هو معروف الان – أكثر من غيره اهتماما فى البحث عن نموذج لنظرية اجتماعية شمولية ، فهناك المفهومات الاساسية كالطبقة ونوع الانتاج ، كما أن هناك العمليات كالتحليل الديالكتيكى والبناءات الفوقية والتحتية • وعلى الرغم من أن مفكرى هذا الاتجاه ينخرطون فى كثير من الجدل حول المعنى الدقيق للمفهومات المطروحة ، فان ما يقصدونه فى نفس الوقت يتجلى بوضوح من خلال أفكارهم العامة •

فقد بدأ العالم الشيوعى وبخاصة مع عام ١٩٥٦ ، يقبل بشكل ملحوظ على البحث الاجتماعى الامبريقى ، أو كما كان يسمى حينذاك بعلم الاجتماع الواقعى • وقد بدأ هذا التغير ، فى بادىء الأمر ، فى أوروبا الشرقية •

ثم اخـذ طريقـه الآن فـي الاتحـاد السـوفيتي ، حيث سـبق ذلك كثير من الجـدل حـول المكان المناسب لعـلم الاجتماع الواقعي في نطاق المـادية التاريخية · وقـد تمخض هـذا الجـدل عن نوع من الاتفاق يمكن تلخيصه فيما يلي :

١ ـ يحـدد نظام الانتاج السائد سلوك الافراد واتجاهاتهم · ويتطلب التحقق من ذلك اجراء دراسة امبريقية تستند إلى أسباب عملية ونظرية ·

٢ ـ يعـد من اهم اعمال الحزب الشيوعي ، وهـو الحارس على مصالح الطبقة العاملة ، القيام بتوجيه الحياة الاقتصادية والثقافية للدولة · ويمكن تسهيل هـذه المهمة اذا تم الحصول على المعلومات الواقعية التي تجسد ظروف المجتمع · ويتوقف مدى التاثير الفعلي لدور الحزب كموجه للبحث الاجتماعي ، على عملية التقييم المستمر التي تم قبولها من جانب العلماء ، على أسـاس ان هـذه العملية هي احـد المهام الشرعية للحزب ·

٣ ـ تعـد الدول الشيوعية ظاهرة تاريخية حـديثة تستوجب الدراسة ·

٤ ـ ليس هناك الآن تناقض بين الفكـر المـاركسـي وعلم الاجتمـاع الواقعي · وتعزز هـذه الفكرة العـديد من مقـولات الكتـابات المـاركسية الكلاسيكية ، كما يعززها أيضا أن ماركس رفض في أحيـان كثيرة أن يتكهـن بشكل تفصيلي عن مدى ما سيصل اليه المجتمع الشيوعي ، فقد قـدم لنـا ماركسي تحليلا دقيقا للنظام الرأسمالي كما وجـد حينذاك · ومن ثم فمـن المسموح به الآن ان نضيف الى تحليلاته للنظام الرأسمالي التغيرات التي شهدتها المجتمعات الرأسمالية كما نراها هـذه الايام ·

ومن الثابت ان العلماء الشيوعيون المحـدثون هم الذين شجعوا ونفـذوا اعمالهم في نطاق علم الاجتماع الواقعي ·· ويفسر لنـا هـذا الاتجاه ظهور ما هو معروف الان بالاتجاه اللاستاليني De - Stalinnization

ـ بيد اننا لا نذكر الدور الذي لعبه اتصال الشرق بالغرب في الاسراع ببطء

التطور · وتقوم بعض الحكومات الشيوعية فى هذه الايام بتشجيع البحث الاجتماعى الامبريقى بقدر أكبر مما تقوم به بعض الحكومات الغربية ·

ويعد من أهم واجباتنا الآن توضيح كيف تطور علم الاجتماع ، على أساس من الابحاث الاجتماعية الامبريقية الغربية المتاثره بالمادية التاريخية كنسق فكرى وبالتالى ارتباطها بالدول الشيوعية كواقع اجتماعى · وستقوم مناقشتى لهذا الاتجاه من خلال تناول الموضوعات التالية :

١ ـ دراسات الاتجاهات ·

٢ ـ تحليل العمل ·

٣ ـ بحث الجماعات الصغيرة ·

٤ ـ مشاكل التنظيم ·

٥ ـ اتجاهات الانتشار ·

ـ من الضرورى الاشارة الى أننى سأكون محققا جدا فيما يتعلق بالمراجع التى سوف أستعين بها نظرا لعدم معرفتى للغة السلافيكية · وقد توافر لى عدد من المؤلفات بالفرنسية المتعلقة بعلم الاجتماع السوفيتى · وقد تم توزيع هذه المؤلفات فى المؤتمر الدولى السادس لعلم الاجتماع فى أفيان سبتمبر ١٩٦٦ · كذلك ان علماء الاجتماع فى المانيا الشرقية ، من ناحية أخرى ، قدموا العديد من الكتابات التى درستها بعناية · وقد درست أيضا علماء الاجتماع البولنديون فى كتاباتهم بالفرنسية والانجليزية المتوفرة فى الدوريات · غير أن أهم الكتابات التى عنيت بها كتاب Szczepanik بعنوان علم الاجتماع الامبريقى الماركسى ·

ولقد توصلت ، بالاضافة الى ذلك ، الى مجموعة من الابحاث الوصفية كتبها « بيتو » و « كس » · كما اطلعت على بعض المسوح التى أجراها علماء الاجتماع الغربيون أمثال « كلوفك » Klove و « تلوست » Tlust كما أطلعت على كتابات « جورج فيشر » Ficher الذى نشر العديد من تحليلاته وتلخيصاته للدراسات السوفيتية · ويضاف الى ذلك الاتصالات

الشخصية التى اتيحت لى على مر العديد من السنوات ببعض عملاء الاجتماع من الدول الشيوعية ٠

دراسة الاتجاهات :

تعتبر استفتاءات الرأى العام من الامور الشائعة الى حد بعيد فى عديد من الدول الشيوعية ، التى تختلف كثيرا فى مناهجها الاستفتائية عن ما هو معروف فى العالم الغربى ٠ فمما لا شك فيه هناك اختلاف فى نوع الاسئلة التى توجه أو لا توجه للشخص موضوع الاستفتاء لأسباب سياسية معروفة لذلك لا نعجب اذ أجريت دراسات تفصيلية كثيرة على اتجاهات العمال ٠ ويتبلور هدف هذه الدراسات ، كما يقول كل من فى التحرى العلمى لوجهة النظر الثقافية والفنية للانشطة الاجتماعية والوظيفية الى جانب الدراسة العلمية للمثل العليا وامزجه الجماعات المختلفة من العمال الذين تم تقسيمهم تبعا للسن والجنس والتعليم والحالة الوظيفية والوطن ، ومن المؤسف حقا أننا لم نحصل على معلومات تفصيلية تتعلق بنوع الأسئلة التى وجهت حتى يمكننا المقارنة بينها وبين نظيرتها فى الدراسات الغربية ٠ ويبدو ان الزملاء الشيوعيون ليسوا على درايه بالابحاث الغربية وبخاصة تلك التى اجراها اسماء ليست على درجة من الشهرة تلفت انظارهم ٠

واذا أخذنا على سبيل المثال مشكلة الاغتراب سوف نجد أنها حظيت باهميه بالغة بالنسبة للباحثين الشيوعين ٠ فمن ناحية هناك توقع ـ كما قال كارل ماركس ـ باختفاء الاغتراب من المجتمع الشيوعى ، كما أن هناك من ناحية اخرى خوف من ظهور أنواع اخرى من الاغتراب خاصة فى المراحل التحولية فى المجتمع ، ويقرر فى هذا الصدد « ايفوتشوك » Iovtchouk ان هناك تناقضات فى مجتمعنا بين الجماعية والفردية ذلك أن المجتمع لم يزل غير قادرا على توفير الاحتياجات المادية والروحية لكل الافراد ، كما أن اعضاء الجماعات بما فيهم العمال لم يصلوا فى كثير من الاحيان الى درجة من الوعى تمكنهم من تقدير او معرفة العلاقة بين مصالحهم الاساسية ومصالح المجتمع ٠ من هنا

تبرز أهمية الابحاث الاجتماعية المساعدة على تعليل اغتراب الانسان داخل المجتمع الاشتراكى ·

يتضح مما سبق أن هذا الباحث لم يحاول الاشارة الى الابحاث التى تناولت قضية الاغتراب فى المجتمعات الغربية وفى امريكا ، فقد قام مجموعة من العلماء فى هذه المجتمعات بالاهتمام بمشكلة الاغتراب واستطاعوا الوصول الى تحديد هذا المفهوم وتحليله بشكل كمى ، كما استطاعوا ايضا تطوير بعض وسائل قياسها كميا ·

ومن المأمول فيه أن يقوم الباحثين الذين يمتلكون الناصية اللغوية والمهارات المنهجية اللازمة بدراسة ومقارنة وسائل البحث المختلفة بالتفصيل · وستنحصر المشكلة فى البحث عما اذا كان علماء الاجتماع الواقعيين استطاعوا عن طريق التراث الماركسى أن يتوصلوا الى طرق جديدة من طرق المعرفة الامبريقية فيما يتصل بمشكلة الاغتراب كمشكلة معقده ·

بحث العمل:

يواجه المجتمع الشيوعى مشكلة مزدوجة ، فعلية أن يتهم بدرجة كافية بالعمل داخل المصانع ، كما أن عليه من ناحية أخرى أن يجعل من العمل قيمة يشعرها الفرد ما أمكن ذلك · ويقول ج · اوسيبوف G. Ossipov فى هذا الصدد، ان ازدياد استخدام الالة من شأنه ان يؤدى الى الاستغناء عن العامل فى الاعمال الالية الرتيبة · وبذا يتحرر الانسان ويتفرغ لبعض الانشطة الخلاقة · غير أن هذه العمالة تختلف باختلاف الجماعات العمالية المختلفة · فهى تتباين تبعا للسن والجنس والتعليم والحالة الوظيفية على هذا يمكن القول ان المجتمع يواجه مشاكل فى غاية من التعقيد مثل مشاكل التدريب وتكييف جماعات الملاحظين وتنظيم صغار العمال ، ثم مشاكل التفاعل بين العمل العقلى والعمل اليدوى بالاضافة الى مشاكل اختيار الافراد للوظائف المناسبة وانتقال العمال بين الاعمال المختلفة · ومؤدى ذلك ان ابحاث علم الاجتماع الواقعى عليها أن تبحث فيما

العوامل السيكولوجية الاجتماعية المؤثرة فى زيادة الانتاج من ناحية والمؤدية من ناحية اخرى الى تطوير العلاقات الاجتماعية .

وجدير بالذكر ان الدول الراسمالية لديها مشاكل مماثلة يطلقون عليها معنوية العمل . غير ان موقف الدول الشيوعية يختلف حيث يتم دراسة معنوية العمل بهدف تحقيق زيادة الانتاجية والحد من ظاهرة تنقل العمالة من عمل الى آخر . اما هدف هذه الدراسات فى الدول الشيوعية فهو يتحدد فى الجمع بين رضا العمال من ناحية وزيادة الانتاجية من ناحية أخرى . ويكفى تحقيق الهدف الاول حتى اذا لم يتحقق الهدف الثانى .

ومن سوء الحظ انه لا تتوفر لدينا التقارير المفصلة التى توضح لنا كيفية تغلب هذه المجتمعات على تلك المشكلة من خلال عملية البحث الامبريقى ، وان كانت هناك بعض الابحاث التى تشير الى وجود نسبة محدودة من الطبقة العاملة تمارس اعمالها كجزء من واجباتها المدنية . ويجعلنا هذا الامر ان نستنتج أن التشجيع وحده لا يكفى اذ لابد من وضوح درجة أكبر من المساهمة العمالية ، وتحقق ارتباط اكثر وضوحا بين التنظيم ومستوى المعيشة من ناحية ، ونوع العمل الموكل للعامل من ناحية أخرى .

وتوضح بعض الدراسات الاخرى ان العمال اليدويين المتعلمين كثيرا ما يكونوا اكثر قدرة على ربط عملهم بشخصيتهم . وتتشابه هذه النتيجة مع تلك التى اشرنا اليها فى بداية هذا الفصل من دراسة الجنود الامريكان المتعلمين .

لقد اخترت موضوع العمل لاسباب عديدة من بينها ان العمل يمثل تحد قاس امام الباحث عند محاولته تصميم بحث امبريقى . كما انه ذو اهمية اجتماعية كبيرة فضلا عن انه اكثر تعرضا من غيره لتحيز الباحث . وجدير بالذكر ان النتائج السالبة التى تنتهى اليها البحوث فى البلدان الشيوعية كثيرا ما لا تظهر او تعلن بعكس النتائج الايجابية التى يبرزونها وان لم تكن محللة تحليلا كافيا . اما فى الدول الغربية فان مشكلة العمل يتم دراساتها بشكل

اكثر موضوعية لسوء الحظ كما يقول البعض ، غير انه يمكننا ان نقول ان هذا الاتجاه الموضوعى يمكن ان يؤدى فى كثير من الاحيان الى انجاز دراسة دقيقة على مستوى من التكامل الامبريقى .

ولقد قام العلماء الشيوعيون بالتفرقة الدقيقة بين الجماعات الفرعية من العمال ، كالتفرقة بين العمال الذين وفدوا حديثا من الريف وبين الذين يشتغلون على الالات ويحتاجون مؤهلات فكرية خاصة . كذلك التفرقة بين من يهتمون بحياتهم الخاصة اكثر من اهتمامهم بمساهمتهم فى الانتاج . وقد كان المبتكرون اكثر الفئات الذين ناوا اكثر ، من غيرهم ، قدرا كبيرا من الاهتمام . المبتكرون هم الذين يقومون بانجاز اضافات تكنولوجية وادارية فى محيط مصنعهم . وقد اجريت دراسة احصائية تفصيلية فى رومانيا على آلاف المبتكرين . وقد اسهمت هذه الدراسة فى تقديم وصف تفصيلى لخواصهم فى تعريفنا بمقترحات العمال ، وبالاسباب الكامنة خلف عدم اسهام العامل باكثر من اضافة ، هل مرجع ذلك عدم منح الادارة المكافاة المناسبة للابتكار الأول ؟ أم لأن هذا الابتكار لم يكن اكثر من فكرة عابرة لا تنم عن عبقرية لصاحبها ؟

ومن اهم المشاكل التى تواجه الاقتصاد المخطط مشكلة التوافق بين رغبات طالبى الوظائف ، وبين الوظائف المرصودة فعلا فى الخطة . وتعتبر دراسة « نوفو سيبرسك » Novosibirsk من اهم الدراسات التى عنيت بهذا الموضوع . وتوضح هذه الدراسة الخلافات الكبيرة بين تطلعات بعض الشباب بين ما وصلوا اليه بالفعل . ويتعين ان نشير هنا الى ندرة هذا الصنف من المعلومات حتى فى اطار الدول الغربية نفسها الامر الذى يثير العديد من التساؤلات ، اهمها ما هى النتائج التى يمكن أن تترتب على هذا التناقض على المستوى الفردى والجمعى ؟ وهل يمكن أن ينجح نظام توجيهى فى حلها ؟ يحاول علماء فرنسا وضع بعض الحلول لهذه المشكلة خاصة أن فرنسا تعد من أكثر الدول الغربية تطورا فى نظمها التخطيطية .

وقد قرر « شوبكن » Tchobkin ، باعتباره أهم المشتغلين بدراسة نوفو سيبرسك ، أن هناك مشكلة أخرى فى هذا المجال تتلخص فى وجود علاقة بين الوظائف المرغوب فيها وبين التعليم العالى من ناحية والمركز الاجتماعى للابوين من ناحية أخرى ٠

بحوث الجماعات الصغيرة :

بدأت ، بمجرد انقضاء المقاومة السياسية ، المسوح التى تتناول الاتجاهات وانماط السلوك المختلفة فى الانتشار بشكل كبير دون أن تلقى أى تساؤل عن الفائدة منها أو عن منهجيتها ٠ واذا ما نظرنا الى دراسة الجماعات الصغيرة فان الموقف مختلف الى حد كبير ٠ فلم يزل هذا الضرب من الدراسات فى حاجته الى المزيد من الدفاع عنه وتوضيح أهميته ، كما أن التقارير القليلة التى تعالج بعض من هذه الدراسات تبين أن دراسة الجماعات الصغيرة قد بدأت تنتقل من اطار الغرب الى دول الشرق ٠ وتتجلى الاهداف التى تسعى مثل هذه الدراسات الى الاجابة عليها فى المجتمعات الغربية على وجه الخصوص فى حل المشكلات التى تعترض الجماعات المدروسة وكذلك دراسة كفاءة هذه الجماعات فى القيام بوظائفها ٠ ولقد قامت جماعة من علماء النفس الاجتماعيين فى المانيا الشرقية باجراء تجارب على بعض الجماعات الصغيرة بحثا عن التعاون بداخلها ٠ ولا يمكن لاحد منا أن ينتهى الى نتائج واقعية نهائية يمكن استخلاصها من هذه الدراسات نظرا لأن كثيرا مما انتهت اليه هذه الدراسات وما وضع من تقارير ، كان هدفه الصدام مع الزملاء الشيوعيون الذين لا يعتقدون فى فائدة هذا النوع من الدراسات ٠ والدليل على ذلك انه يتعذر الوصول الى معلومات ذات قيمة تتصل بهذا النوع من الدراسات فى أى من البلدان الشيوعية وان كان هناك تقرير وضعه (أوسيبوف) عن البحث السوسيولوجى فى الاتحاد السوفيتى ٠

فقد ميز (اوسيبوف) ـ (وهو من العلماء المعروفين جيدا فى التراث

الغربى) – بين التنظيم الرسمى وغير الرسمى ، (البناء الرسمى والبناء غير الرسمى) • ويعد المثال الذى يعرض له (أوسيبوف) فى غاية الاهمية • فقد قارن بين انتاجية جماعتين من العمال تمارسان من الناحية الفنية نفس النشاط ، على مدى عدد من الشهور • وقد تبين أن احدى هذه الجماعات تؤدى عملها على نحو افضل من الاخرى وأن هذا التباين بينهما أخذ يتزايد شهرا بعد شهر • وقد قدم (أوسيبوف) التفسير التالى لهذه الظاهرة •

يرى (أوسيبوف) أن السبب الأساسى فى اختلاف انتاجية الجماعتين يكمن فى العلاقات السيكولوجية الاجتماعية القائمة داخل كل من الجماعتين • ففى الجماعة ذات الانتاجية العالية كانت العلاقات متساوية ، اى متسقة بينما اختلفت وتباينت فى اطار الجماعة الاخرى • ويعد تحسين البناء الرسمى لجماعات العمال • وتحقيق الالتقاء بين البنيات الرسمية وغير الرسمية من العوامل الهامة اذا ما اردنا أن نجعل العامل راض وقانع بعمله ومن ثم يحسن ويزيد من انتاجيته •

وجدير ان نشير بأن المادة التى اقام عليها (أوسيبوف) ملاحظاته تلك لم يستمدها من واقع تجارب معملية ، بل انه استمدها من المواقف الطبيعية التى لاحظها •

ولما كانت تعوزنا البيانات الامبيريقية المتصلة بهذا الموضوع ، أجد انه من المفيد الاشارة الى فكرة توصلت اليها من مقابلة علم الاجتماع الماركسى وبحث الجماعات الصغيرة • ولسوف أعتمد فى هذا المجال على كتابات (اريك هاخن Erick Hohn) عالم الاجتماع الالمانى الشرقى الذى يشهد له بالحياد بين الجانبين • فقد تناول فى دراسة له – بعنوان (فى الواقع الاجتماعى والمعرفة السوسيولوجية) – فى ضوء المادية التاريخية – وقد كان دافعه من الامور المثيرة للانتباه ، حيث ذكر : (لم يكن غير مقصود أن جعلت مناقشته مشكلة الجماعات فى نهاية تحليلى • ففى اعتقادى انها تجد شكلا مركزا لكل الجهود

الرامية الى القضاء على الدجماطيقية فى ميدان المادية التاريخية) ؟

وبعد ان اعلن (هاخن) رفضه لعلم الاجتماع البرجوازى الى مناهضة الكتاب الشيوعيون الذين ما زالوا غير راغبين فى قبول البحث السوسيولوجى · وفى هذا الصدد يذهب الى القول : لماذا نحتاج الى تصنيف الجماعات فى اطار المادية التاريخية ؟ ، ويرى (هاخن) أن المشكلة الحقيقية التى يتعين فهمها وتحديد مدى تاثير المجتمع على الفرد وعلى الوقائع ، وفى هذا الصدد نرى نه يتعين علينا ألا ننشغل بمجرد التعرف على كيف نفسر النوعية الاجتماعية للسلوك الفردى فى ضوء نظرية عامة ذلك أن هذه المشكلة الأخيرة قد انتهى حلها ويذهب بعد ذلك الى تقرير حقيقة أساسية تتمثل فى أن سلوك الفرد يحددة وضعة فى النظام الاقتصادى ويعود فيقول ان الجماعة الصغيرة يمكنها ان تصبح من أهم الوحدات التى تقوم بدور الوساطة بين العلاقات الاجتماعية الاساسية والفرد والتى لها بالتالى التاثير الاجتماعى على الاحداث ·

ولم يحاول هاخن أن يقدم دراسات تدلل على الدور الوسيط للجماعة لكنه قام بشىء آخر فقد وضع ثمانية افتراضات تدور حول كيف يمكن للبحث أن يعدل من فكرة الجماعة كاداة للتحليل السوسيولوجى · فقد وضع تصنيفات عديدة للجماعات ولا يستطيع علماء الاجتماع الغربيين أن يميزو بدورجة كافية بين الجماعات المرجعية الاساسية وغير الاساسية · ويمكن القول أن اهم ثلاثة جماعات عند (هاخن) هى الجماعة التى نستقى منها افكارنا عن كيف نرتدى ملابسنا والتى تمدنا أيضا بالمبادىء الاسسية لناشط النظام الاجتماعى · اما النمط الثانى فيتجلى فى حصر الجماعات الاولية فى الاشكال التى تتكون لدراسة ومناقشة أى موقف سياسى طارىء ومن ثم فهو يخرج الاسرة عن هذا النطاق نظرا لانها تكاد تكون جماعة شبه نسقية · أما النمط الثالث فيطلق عليه (هاخن) التجمعية ، واذا استثنينا ما فى هذا التعبير من ضمنيات فيمكننا ان نستبدله بمصطلح عصبة أوزمره Clique.

وقد قام ، هاخن ، مستهديا بالتحليل الماركسى حين تناول ماركس بالتحليل ببيان كيفية وصول نابليون الثالث الى السلطة ، بالتمييز بين اثنى عشر جماعة فرعية من الجماعات البرجوازية فمنهم من يقوم على المصالح الماديه ومنهم من تربطهم العلاقات الاسرية ومنهم الجماعات الثقافية وجماعات الموظفين ... الخ . ولقد درس علماء الاجتماع الغربيين ، فى واقع الامر ، مثل هذه الجماعات الفرعية كالجماعات الحربية الصناعية وجماعة المفكرين ... الخ . وليس لدى الا القليل من التحليلات التى قام بها العلماء الغربيين لتوضيح أوجه الاختلاف والشبه بين هذه الجماعات الصغيرة .

ويثير هاخن سؤالا هاما يتلخص فى كيف يمكن لهذه الجماعات أن تتداخل فى البناء الطبقى الرئيسى للمجتمع ؟

وأخيرا يولى اهتماما كبيرا بالعلاقة بين ابحاث الجماعات الصغيرة والابحاث التى تتناول التغير الاجتماعى الشامل . ولعله فى امكاننا الان بمعاونة اجراء المزيد من الملاحظات والتجارب ، أن نحدد متى يمكن أن تقوم هذه الجماعات بحماية الفرد أثناء عمليات التغير ؟ كذلك متى يمكنها أن تساعده على التكيف ؟ ومتى تبداء هذه الجماعات فى التفتت نتيجة ردود الافعال المتعارضة التى يكشف عنها بعض الافراد خلال مواجهتهم لبعض التحديات الاجتماعية ؟

مشكلات النظم الاجتماعية :

يتضح مما سبق أن ما اثير من افكار تعود فى معظمها الى فلك علم الاجتماع الماركسى . ورغم ذلك فانه ليس من قبيل اهتمامنا الاشارة الى صحة أو عدم صحة وجود اتجاهين فى البحث الاجتماعى الامبريقى ، هم الاتجاه البرجوازى والاتجاه الماركسى . وفى هذا المجال يقرر سيزسبانكسى Szczepanski ان هذا الامر يمكن أن يدخل فى اهتمام باحثى الايديولوجيات . أما الذى يهمنا فيمكن أن ينطلق من سؤال محدد يتلخص فى هل يستطيع التراث الماركسى ، بطبيعته أن يؤدى الى افكار جديدة فى البحث العلمى ؟

وتناقش ج ، أندريفا ، G. Andreeva هذه القضية السابقة مبتدئة بمقارنة بين الوضعية والوظيفية والماركسية وهى مرتبة تصاعديا حسب اهميتها وترى « اندريفا » أن الوضعية الجديدة لم تقدم شيئا جديدا يسترعي الانتباه بل هى تحصيل حاصل · أما الوظيفية فتراها ، اندريفا ، أفضل حالا حيث ادخلت فكرة الجماعات المرجعية Refrence group التى تعد اطارا يرجع اليه الباحث فى تفسير انماط السلوك الفردى بشكل يمكننا من فهمه على نحو كبير · أما التحليل الاجتماعى الواقعى « الماركسى » فهو يهتم بكل ما يمكن ملاحظته من السلوك فى ارتباطه بالأنساق الاجتماعية المختلفة · وبالتالى يمكن الوصول الى العلاقات الاجتماعية الواقعية · فلا يكفى لفهم السلوك أن نتناوله فى اطار المعايير الموضوعية سعيا الى الكشف عن علاقاتها الاساسية · انما يجب أن نبحث عن أعمق الاسباب التى تضرب بجذورها داخل النسيج الاجتماعى ·

ومن الواضح ان تأكيد « اندريفا » على ما أسمته بالعلاقات الحقيقية والمعايير الموضوعية ، قد جعل جدلها أقرب الى القضايا الميتافيزيقيا التى يصعب البرهنة عليها أو الاخذ بها فى آن واحد · غير أنه يمكننا بقليل من الصبر أن نصل الى صورة المجتمع كما تراها هذه الباحثة فالمجتمع ، كما تراه ، يجسد حالة من الحركة الدائمة تحدد كل ما يحدث فيه التكنولوجية · وطبيعة الانتاج ووسائله ، ثم السوق وتقسيم العمل ونظم الملكية ··· الخ · ونظرا لتضخم هذه المفاهيم فى كتابات علم الاجتماع فلن نحاول الرد عليها أو مناقشتها · وكل ما يمكن قوله هو أن الماركسية حددت وظيفة عالم الاجتماع فى القيام بالربط بين ملاحظاته الامبريقية ومفاهيمه النظرية بنظام الانتاج السائد فى مكان ما وزمان ما ·

ويمكن أن تفيدنا مقارنة ما سبق توضيحه بمشاكل العالم الغربى فى توضيح هذه القضية · فلا يمكن لعالم الاجتماع أن ينكر أن السلوك الانسانى تسهم فى تحديده عوامل سيكولوجية احيانا واحيانا أخرى تسهم فى تشكيله

عناصر اخرى تتضمن مركز الفرد داخل الهيكل الاجتماعى والثقافى · ويحاول بعض العلماء قياس مدى التاثير النسبى لهذه العناصر المختلفة على السلوك الانسانى ، فى حين يهتم البعض الاخر بتناول عدد محدود منها فقط · وعلى سبيل المثال يحاول اتباع مدرسة دوركايم ، الذين يعدون علم الاجتماع مجالا قائما بذاته ، تخطى العوامل النفسية لا لعدم اعترافهم بها أو محدودية نظرتهم لكن كى يتمكوا من ابراز العوامل الاجتماعية سعيا منهم الى اقامة أو تحديد مجال البحث الخاص بهذا العلم · ومن ثم فانهم لا يدعون أنهم يقدمون تحليل شامل للسلوك الفردى ·

ويتعين علينا أن ننظر الى موقف علم الاجتماع الواقعى الماركسى كدافع مودى الى قيام أبحاث لا غنى عنها · ذلك أن هذا العلم يبدأ ببعض الملاحظات الامبريقيه محاولا تفسيرها فى ضوء العوامل الاجتماعية والاقتصاديه الاساسية ، وان كان هناك بعض من انصار هذا العلم لهم وجهات نظر مختلفه عند تناولهم هذا التنسيج الاساسى للمجتمع ·

ويعتز الماركسيون الواقعيون ، كما يسمون انفسهم ، بوجهات نظرهم وتؤكد ، اندريفا ، على ضرورة التغلب على الصعوبات المنهجية · وتقترح اندريفا ، ضرورة قيام نوع من التناسق بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الاخرى كالفلسفه مثلا ، ويؤكد بعض المفكرين الاخرين على ضرورة استخدام وسائل بحث مختلفه كالمسوح والملاحظة والتحليل الكمى والاستعانة بالمادة التاريخية ··· الخ · ويمكن للقول أن تلك الدعوة ستجد لدى الكثيرين من علماء الغرب قبولا وان لم يكونوا على نفس الدرجه من التفاؤل · فقد كانوا دائبى العمل للكشف عن طلاسم هذا المركب الصعب ، ولم يحالفهم الحظ · وما علينا الا أن ننتظر لنرى كيف سيحالف الحظ العلماء الماركسيون فى حل صعوبات هذا المركب فى اطار استخدامهم لنظرياتهم البروليتارية ·

واذا كان لنا أن نفسر تفاؤل زملاؤنا الشيوعيين فان ما يمكن تقريره هو

ان تفاؤلهم راجع الى حداثتهم فى هذا المجال · وقد جعل هذا الأمر ، سيزسبانسكى ، Szczeparski ياسف على عدم استخدام نظريات النطاق او المدى المتوسط فى الدول الشيوعية · ويرجع هذا الأمر الى استيلاء قادة الأحزاب واللجان المركزية على عملية صياغة النظريات العلمية وسيطرتهم عليها حتى عهد قريب · ومن ثم لم يحاول علماء الاجتماع الخوض فى هذا الأمر خشية الصراعات الأيديولوجية · بيد أنه يلاحظ أن ،سيزسبانسكى ، قد فات عليه أن هذه النظريات « نظريات المدى المتوسط » لم تتطور فى أوروبا الا بفعل الصراعات الأيديولوجية ·

ولا يسعفنا المجال الا بحالة واحدة لم يحاول فيها أحد الماركسيين اعتبار المادية التاريخية نظرية مطلقة أو وحيدة · فرغم أن ، أندروزيجى مالويسكى ، Andrzej Malewski يؤمن بحقيقة المادية التاريخية فانه بذل جهدا لتاكيد أهمية ما يمكن أن تصل اليه الأبحاث الواقعية المستفيدة من الحقائق التاريخية ، من نتائج ·

ويميز « مالويسكى » فى مقالته « المضمون الابستيمى للنظرية المادية التاريخية » بين مجموعات ثلاثة من الأفكار الماركسية ·

أ ـ مجموعة تؤكد على أهمية ظروف المعيشة فى تحديد سلوك الأفراد واتجاهاتهم التجمعية ·

ب ـ مجموعة ترى أن المجتمع يتركب من جماعات متصارعة المصالح ·

ج ـ مجموعة تهتم بالتغيرات فى البناء الاجتماعى ·

ويعزز « ما لويسكى » كل مجموعة من هذه المجموعات بما كتب من أفكار ماركسية حيث يحاول الافادة منها فى الأبحاث العلمية · ولسوف نختار مثال خاص بكل مجموعة توضح منهجيته فى شرحها ·

مثال مجموعة (أ) :

اذا امتلكت بعض الجماعات مميزات اجتماعية معينه . فان اغلب اعضاؤها سيقاومون بشدة اى تهديد أيديولوجى من شانه أن يطيح بهذه المميزات .

مثال مجموعة (ب) :

تزداد قوة الجماعة بازدياد ممتلكاتها . ومن ثم لا يستغنى عن مثل هذه الجماعة فى عملية الانتاج ، الأمر الذى يزيد من درجة تحكم أفراد هذه الجماعة فى السلطة العسكرية .

مثال مجموعة (جـ) :

اذا تصارعت جماعتين ، فان الجماعه التى ستنتصر هى تلك التى تتفق مصالحها مع تطور وسائل الانتاج والتطور الاقتصادى للعام .

وعلى الرغم من أن تلخيصنا هنا لا يفى بحق الكاتب ، فاننا نشترك بان افكار « مالوبيسكى » ستتفق مع اطروحه الماركسيين . بيد أن اهتمامنا به يرجع الى أنه يمثل الاتجاه الذى يحاول أن يجعل التقدم يواكب الحياة المعاصرة أو الأسلوب الحديث فى البحث العلمى .

الاتصال المتبادل :

كان متوقعا أن تقوم حركة اتصال متبادل بين علم الاجتماع الغربى والشرقى ، اذ كان من الضرورى على الدول الشيوعية أن تتفهم الصعوبات التى ما زالت قائمة . ولقد بدأ كتاب المعسكر الشرقى – على سبيل المثال – يقبلون على مفهوم « السيبرنتيك »(*) Cybernetics اخيرا ، من ثم بدأت مناقشة الأفكار الغربية والاشارة الى كتاب للغرب . وخير دليل على ذلك أن أمامنا الآن كتابا من المانيا الشرقية يتناول هذا العلم بالشرح

(*) علم حديث بدأ فى السفيفات فى أمريكا يحاول اقامة العلاقه بين الحركه الذاتيه للانسان والمجتمع والآله ... الخ . فكل شىء – تبعا لهذا العلم يعمل ذاتيا بدرجة متفاوته .

للجمهور العام · وقد وردت فيه أسماء عديدة لكتاب من الغرب والشرق · فقد ورد فيه اسم « آسبى » W. R. Ashby ٤٨ مرة واسم « ونير » N. Wiener ٣٨ مرة ، أما ماركس فقد ذكر ٣٤ مرة ولينين ١٦ مرة ·

وقد لوحظ مثل هذا الاتجاه فى الغرب ، وان كنا لا نتوقع أن يكون بنفس الكثافة ، نظرا لسبق الغرب فى عملية البحث عن نظرية · وأعود مرة أخرى لأشير الى كتاب صدر أول مرة عام ١٩٥٣ من وضع عالمين من علماء الاجتماع الامريكيين هما « بندكس » و « ليبست » عنوانه (الطبقة والمركز الاجتماعى والقوة) · ونظرا للنجاح البالغ الذى أحرزه هذا الكتاب فقد أعيد طبعه عام ١٩٦٦ · واذا حاولنا أن نقارن بين فهارس الطبعتين سوف نجد ان ١٦ صفحة من الطبعة الأولى حذفت من الطبعة الثانية ، وكانت تتناول بتفصيل مفصل بعض نتائج الدراسات التى أجريت على المجتمع الأمريكى حينذاك مستخدمة أساليب المسح والاستبيان المختلفة · وقد تضمنت الطبعة الجديدة خمسة عشر صفحة تناولت علم الاجتماع الشمولى والبناء الاجتماعى فى الدول الاجنبية · وقد شمل الجزء الخاص – فى هذا المؤلف – بالنظريات ، اربعة من المؤلفين الشيوعيين · ولعل أهم ما حدث فى هذه الطبعة من تغيير هو ما يتجلى فى اهداء الكتاب · فقد أهديت الطبعة الاولى الى بول ك· هات P. K. Hatt أحد المشاهير فى ميدان المسوح الاجتماعية ، أما الطبعة الجديدة فقد أهديت الى واحد من أهم العلماء والمحاضرين الشرقيين هو « ستانسلو أوسووسكى » Stanislaw Ossowswi

بيد أننا نلاحظ نغمة من النقد والهجوم يوجهها كل من الفريقين الى الاخر · ففى الوقت الذى يتهم الشيوعيون فيه اخوانهم فى الغرب بموالاتهم للرأسمالية ، نجد نفس الشىء يحدث فى المعسكر الغربى حيث يرى هذا المعسكر أن علم الاجتماع الشرقى لا يقدم سوى تجارب لا ترقى الى المستوى النظرى فى الولايات المتحدة · فالعلماء الشرقيين هم مجرد أتباع للحزب الشيوعى ينفذون أوامره ويرشدون أعضاؤه فى عمليات التخطيط والتنمية التى تبدأ أساسا فى عقول الحزب الشيوعى ·

ولا غرو أنه يمكننا اذابة حدة التناقض هذه اذا أخذنا فى اعتبارنا فكرة الوظيفة الظاهرة مقابل الوظيفة الكامنة · ورغم أن الكتاب الشيوعيين على علم بأن عددا قليلا جدا من علماء الاجتماع الغربيين هم الذين يعملون فى خدمة الصناعة أو الهيئات الحكومية ، فانهم يرون أن علم الاجتماع الغربى قد صيغ على نحو يخدم الأمر الواقع ويحافظ عليه · ولقد كانت هذه القضية اهم القضايا التى آثارها الكتاب الشيوعيين ، ويؤكدون ضرورة الفصل بين الدور الظاهر للعالم عن دوره الكامن أو الخفى · واذا كان عالم الاجتماع الغربى يقدم خدمات كامنه لاصحاب السلطات المسيطرين ، فان عالم الاجتماع الشرقى يرى أن مجتمعه خيرا ويحاول أن يجعل أبحاثه ذات فائدة للآخرين ·

ويمكننا بعد تحليل هذا الموقف أن نستبعد الاتهامات المتبادلة التى لا أساس لها حتى نتمكن من الوصول الى الموقف الحقيقى الذى ينجلى أساسا فى التساؤل عن ، هل استطاع العلماء الشيوعيون – حقيقة – الاسهام ببحوثهم فى عمليات التخطيط الاجتماعى ؟ · وتستند الاجابه الايجابية لهذا السؤال الى أن عالم الاجتماع هناك ، يقوم بتحليل الموقف ، ثم يقوم الحزب الشيوعى – بعد ذلك – باصدار قراراته فى ضوء الحقائق التى يعرفها ثم يقوم عالم الاجتماع بالتالى بالتحقق من نجاح او فاعلية القرارات ونتائجها ، بحيث اذا لم تكن ناجحة يقوم بدراسة المعوقات وتقديم الحلول التى يستند اليها الحزب فى اعادة النظر باصدار قرار اخر · من هنا نلحظ قيام علاقة ديالكتيكيه بين البحث الاجتماعى والموقف السياسى ثم قرار الحزب · ولقد أثرى ارتباط الابحاث الاجتماعية بالاهداف العملية علم الاجتماع الشيوعى بكثير من القضايا المعرفية والمنهجية ·

ولقد حظى ما يحدث فى المعسكر الشيوعى ، على النحو الذى بيناه ، باهتمام بالغ من جانب علماء الاجتماع الغربيين الذين يرجعون تقدم علم الاجتماع الشيوعى الى سهولة وامكانية قيام البحث الاجتماعى فى المجتمع المخطط عنه فى المجتمعات الأخرى ·

ويفتخر علماء الاجتماع الشيوعيين ـ منذ البداية ـ بانهم استطاعوا الجمع بين النظرية والممارسة العملية ، نظرا لأنهم يعملون فى اطار نظرية متكاملة · فالبحث الاجتماعى يبدأ منطلقا من النظرية الماركسية ، وهى النظرية التى ترجع كل ما يمكن ملاحظته الى نظام الانتاج · فعالم الاجتماع الشيوعى يأخذ بالمبدأ القائل ، ارجع كل ما يلاحظ الى شىء آخر ، ولا تقف عند مجرد وصف العلاقات الانفية بين الاشياء والاحداث ، بل حاول أن تجد ميكانيزم يفسر هذه العلاقات ثم قم بتحليل هذا الميكانيزم حتى يتناسب عمليا مع أى موقف اجتماعى تهتم ببحثه » · ويمكن أن نفسر ان هذا النوع من السعى وراء النظرية الاجتماعية هو المسئول عن قيام الاتجاه الوظيفي ·

الاتجاه الوظيفى :

لن أحاول اعطاء صورة كاملة للاتجاه الوظيفى لكثرة ما كتب عنه كاتجاه اجتماعى جديد · لكن يمكننى أن أقول باختصار ، ان هذا الاتجاه يمثل افضل تمثيل الجهد الاجتماعى المعاصر فى محاولته لتنظيم المعطيات المتزايدة من الوقائع الاجتماعية دون الرجوع الى التأملات الجوفاء التى عنيت بماضى المجتمعات او مستقبلها · وسوف احاول القاء بعض الضوء على طبيعة هذا الاتجاه ، وما فيه من ميزات منهجية ـ التى رغم ما فيها من غموض ـ نجحت الى حد كبير من الافلات من هجوم النقاد والمفكرين لها · ولسوف يكون من المفيد اذا تتبعنا التطور التاريخى لهذا الاتجاه ·

بدأ دور كايم فى أحد مؤلفاته عام ١٨٩٣ بصياغة قاعدة منهجية ذهب فيها : اذا كنت بصدد دراسة ظاهرة اجتماعية عليك أن تصل الى السبب الذى أدى اليها والوظيفة التى تمارسها الظاهرة · ولقد تبع هذه القاعدة المنهجية كل تلاميذ دوركايم · وقد بلغت هذه الأفكار فى العشرينات من هذا القرن درجة بالغة من الزيوع على النطاق الدولى على يدى علماء الانثروبولوجيا البريطانيين · ويقول مالينوفسكى أن الحقائق الاجتماعية

يمكن تفسيرها عن طريق وظائفها التى تؤديها أى الدور الذى يلعبه داخل النسق الثقافى المتكامل • ويرى رادكليف براون أن لكل نظام اجتماعى طابع أو ذاتية معينة ، ويعكس هذا الطابع نمط وظيفى معين • ويمكن أن يسهم التحليل الاجتماعى للوحدة الوظيفية للجماعة فى بيان مدى ما تسهم به من الناحية الوظيفية للنظام الاجتماعى ككل •

ولقد دخلت الوظيفية علم الاجتماع نتيجة التعاون الذى قام بين تالكوت بارسونز T. Parsons حين كان محاضرا صغيرا فى جامعة هارفارد وأستاذه L.J. Henderson الذى كان عالما فى البيولوجيا • ولقد انبثقت من جامعة هارفارد – بعد ذلك – طائفة من علماء الاجتماع فى الخمسينات من بينهم دافيز Davis وميرتون ومور Moore وهويت Whyte ••• الخ • وكذلك بعض الاوربيين من بينهم « بوريكود » Bourricaud dysfunction

ولقد نتج عن تعاون هذه المجموعة كتاب بارسونز الشهير « النظام الاجتماعى » ١٩٥١ •

وتعد مقالة ميرتون « الوظائف الظاهرة والكامنة » نقطة تحول فى مركز الاتجاه الوظيفى ، اذ تعرضت لبعض المشكلات التى لم يتعرض لها أحد من قبل • ويمكن ان نقول أن معظم ما كتب – بعد ذلك – قد أشار بشكل او بآخر الى مقالة ميرتون • وتنقسم هذه المقالة إلى جزئين • يهتم الأول بتلخيص ونقد ما كان معروفا بالوظيفية الراديكالية • ويعرض هذا الجزء لمسلمات ثلاثة :

الأولى – تعد الوحدات الاجتماعية بمثابة عناصر وظيفية بالنسبة للنظام الاجتماعى ككل •

الثانية – تقوم هذه الوحدات بوظائفها الاجتماعية •

الثالثة – نتيجة لذلك فان هذه الوحدات ، ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها •

ولم يقل ميرتون صراحة أن الوظيفية الراديكالية تدعم فهمها بتصابا بين

أبناء جيلها · ونستطيع أن نتبين من اشاراته للكتابات الانثروبولوجية ، ان هذه المسلمات الثلاثة كانت فى حاجة الى تنقيـــح · وتوضح الصفحات التى كتبها ـ بشكل عام ـ الصورة التى كان يتعين أن تكون عليها الراديكاليـة الوظيفية ، وليست الصورة التى كانت عليها بالفعل ·

ويهتم الجـزء الثانى من مقالة ميرتون بكيفية التحليـل الوظيفى فى علـم الاجتماع ، وهو يعـرض ذلك من خـلال احـد عشر عنصرا · يقـوم كل عنصر منها بتقنين الاجراءات الوظيفية ، كمـا تقوم ـ فى نفس الوقت ـ باثـارة المشكلات والتساؤلات الناشئة عن تطبيق هـذا التقنين · ونشير فيمـا يلى الى احـد النصوص التى تتناول عنصرا من العناصر الأحـد عشر ، وبخاصـة العنصر السادس وهو بعنـوان الميكانيزمات التى تؤديها الوظائف ·

« يتطلب التحليل الوظيفى فى علم الاجتماع ، كمـــا فى العـــلوم الاخرى كعلم النفس وعلم وظائف الأعضـاء ، تفسيرا مفصلا للميكانيزمات التى تعمـل لتؤدى وظيفة معينة · (ومن أمثـلة هـذه الميكانيزمات الاجتماعية تقســـيم العمل ، التدرج القيمى الاجتماعى ، الطقوس الشعائرية ··· الخ) · ومن الأمثـلة التى يمكن اثارتها ، ما هى قوائم الميكانيزمات الاجتماعية بالنظـــر للقائمة الضخمة للميكانيزمات السيكولوجية ؟ ما هى المشـــاكل المنهجية التى سنواجهها عندما نحاول توظيف هذه الميكانيزمات الاجتماعية » ؟ ·

ويشير ميرتون كذلك ، خـلال حديثه ، الى سوء الوظيفة dysfunction وكيفية تأثيرها على عملية التكيف داخل النسق · ولقـد جاءت اشارة ميرتون تلك فى المسـلمة الثالثة ·

ويحسن بنا أن نتساءل ـ فى هـذا المجال ـ لمـاذا استمرت الحـــركة الوظيفية ؟ ·· وما هو الدور الذى تؤديه لعلماء الاجتماع ؟ · وهناك اجابتين لهـذا التساؤل :

وتتجلى الاجـابة الأولى فى ان هـذه الحـركة تقـوم بتوحيد مواضيع

البحث الاجتماعى ، حيث اصبحت ـ تبعا لها ـ كل من الأسرة والسوق والحزب السياسى نظما اجتماعية · اما الاجابة الثانية فتكمن فى عنوان المقال ذاته ، اذ توجد ـ بالفعل ـ وظائف ظاهرة ووظائف كامنة لكل النظم الاجتماعية · والوظيفة الظاهرة هى الوظيفة المقصودة التى يمكن التعرف عليها مثل وظيفة مصلحة الصحة نظافة الشوارع · الوظيفة الكامنة هى الوظيفة غير المقصودة وهى لا تعرف الا بعد دراستها · فمثلا الوظيفة الخفية للشعائر الدينية هى تنمية الشعور بالتكامل الاجتماعى · ولا شك ان الاشارة الى وجود وظيفة اجتماعية خفية ، هى من اهم الاسهامات الوظيفية التى كل للكتابات والأبحاث التالية :

ولا شك ان هناك تشابها واضحا بين الوظائف الظاهرة والكامنة فى علم الاجتماع من ناحية ، وفكرة الشعور أو اللاشعور فى علم النفس من ناحية أخرى · وكما ان عالم النفس ينتقل من الملحوظ الى مستوى أعمق من التجريد ، فان لعالم الاجتماع طريقتين منهجيتين للبحث تتماثل مع طريقتى عالم النفس · وتقوم للطريقة الأولى على تفسير الحقائق الاجتماعية باعتبارها تجارب نفسية فردية ، وهى طريقة يتجنبها كثير من علماء الاجتماع المعاصرين ·

اما للطريقة الثانية فينتقل فيها عالم الاجتماع الى ما وراء الملحوظ مفترضا أن معظم أفعال الأفراد تاتى بشكل لايدركونه ، ويتحكم فى هذه الأفعال للنظام الاجتماعى بما فيه من نواهى وعقوبات · ويبدأ هذا التحكم الاجتماعى خلال عملية التنشئة الاجتماعية من للطفولة · ويقوم للباحث ـ تبعا لهذا التصور ـ بتفسير الأفعال الانسانية باعتبارها ناشئة عن دوافع داخلية وخارجية ، أى دوافع من اللاشعور وأخرى من النظام الاجتماعى ·

واذا كانت الوظيفية قد استطاعت ـ بفضل ما بذل فيها من جهود ـ أن تجذب الأنظار اليها ، فان ما يلاحظ هو أن هذه الجهود لم تاتى لنا بأكثر من تعميمات ومصطلحات عامة لا تصلح لأكثر من تفسير حالات خاصة · ومن ثم يتعين على للوظيفية أن تبذل جهدا حتى تصل الى وضع صياغات محددة

تصلح لتفسير ظواهر اجتماعية عامة · ولن يتأتى ذلك الا بالمزيد من الأبحاث ، وبتعديل الكثير من مفاهيم الوظيفية التقليدية ·

ومن الجدير بالذكر أننى لم أقصد – فيما سبق – نقد أو مديح الاتجاه الوظيفى ، ذلك ان كل ما قصدت قوله هو أن الوظيفية بحالتها الراهنة تمثل افضل تمثيل الظروف الحالية للنظرية الاجتماعية ، حتى ليمكننا القول أن علماء الاجتماع لا يستطيعون – اليوم – الاستغناء عن الوظيفية التى يمكنها تحقيق الكثير من آمالهم العلمية · وسيتضح ذلك بشكل أكثر حين أتناول بعض المواضيع التى أولتها الوظيفية اهتمامها ·

١ – النظم الاجتماعية :

يمكن القول ان أهم ما فى المدرسة الوظيفية الاجتماعية هو نظرتها للمجتمع ككائن حى له صفة الاستمرار عبر الزمن ، كما أن له – فى نفس الوقت – طبيعة منظمة عضوية كجسم الانسان · فهو مزود بأجهزة تحفظ له توازنه فى مواجهة عمليات التغير الداخلية والخارجية · فاذا كان الجسم الانسانى يحفظ درجة الحرارة ، فان المجتمع – بدوره – يمتلك ميكانيزمات ذاتية منظمة · وهذه الميكانيزمات هى موضوع البحث الاجتماعى ·

ومن امثلة الميكانيزمات الاجتماعية « الغيرة » و « تحويم الاختلاط الجنسى داخل الأسرة · ويقرر كينجزلى دافيز Kingsly Davis أن « الغيرة » ليست مجرد غريزة فردية ، فقد أوجدها المجتمع فى صورة الملكية كعملية اجتماعية تنظيمية · أما تحريم الزواج داخل الأسرة فله ثلاث وظائف اجتماعية كما يقول هارى جونسون Harry Johnson فهو يمنع الصراع داخل الأسرة · ويؤدى الى ترابط المجتمع عن طريق الزواج ، وبالاضافة الى ذلك يجعل من السهل قيام الأبوين بالتمييز بين أدوار الأبناء فى الأسرة ·

ويسهم ما تقدم فى تأكيد أن هناك عددا لا يحصى من النظم الاجتماعية المختلفة · ويقسم بارسونز واتباعه النظم اما الى نظم مادية وسياسية واقتصادية ودينية ··· الخ ، واما نظم تجمعية كالاسرة والمنظمة والشعب

... الخ . ولقد تغير هذا التقسيم الآن تحت تأثير ما يعرف باسم « نظرية النظم العامة » . ويتم تحديد النظم تبعا لهذه النظرية على أساس العلاقات المتداخلة المعقدة الموجودة بين عناصرها . ويتم ترتيب النظم تنازليا على ضوء هذا البعد التركيبى (التعقيدى) . ويقسم بعض العلماء النظم الى تسعة مستويات ، على حين يحاول الآخرين تطوير مبادىء عامة للتصنيف ... الخ :

ويمكن تقسيم مستويات أو اشكال النظم ـ فى واقع الامر ـ الى مجموعات ثلاثة هى :

١ ـ نظم ثابتة الوظيفة كساعات الحائط .

٢ ـ نظم عضوية لها القدرة على التوازن .

٣ ـ نظم قادرة على النمو والتطور عن طريق التعليم ، أو التغيرات البسيطة التى تظهر بمرور الاجيال .

ومن الجلى ان النوع الثانى من النظم هو محور اهتمام عالم الاجتماع الوظيفى . فهو يهتم بالنظم التى تحاول تكييف ذاتها مع معطيات العالم الخارجى لحفظ استمرارها وبخاصة عندما تجد عدم تناسب السلوك التقليدى مع الظروف أو الاحوال الخارجية .

وتعد عملية تحليل النظم العامة ذات فائدة مزدوجة بالنسبة للتفكير الاجتماعى ، فهى ـ من ناحية ـ تخفف من الشعور بالتوتر الذى يصاحب الباحث عندما يريد استخدام وسائل علمية يشترك معه فيها باحثين آخرين ، اذ كثيرا ما تقاوم المفاهيم والاهداف المسبقة عملية الخضوع للتراث العلمى . وما من شك ان هذا الامر يمكن ان تقل حدته اذا ما استطاع الباحث الاجتماعى ان يستفيد من اكتشافات العلوم الاخرى ويأخذ بها .

اما الفائدة الثانية ، فهى تنحصر فى امكانية قيام هذا الاتجاه ، اى تحليل النظم ، بالمساعدة على القيام بدراسات واقعية ، امبريقيه جديدة . ولقد سبق

الاشارة الى ان فكرة الوظائف الكامنة اخذتها المدرسة الوظيفية من نظرية التطرز • وما من شك انه من المحتمل ان يؤدى ذلك الضرب من الاهتمام الى دراسة مشاكل التغير الاجتماعى وطرق الاتصال والتاثير والتاثر المختلفة بين المجتمعات •

ولقد اعتبر « بكلى » W. Buckley فى كتابه « علم الاجتماع ونظريات النظم الحديثة ١٩٦٧ » مدرسة جديدة مختلفة عن المدرسة الوظيفية ، ولقد اوضحت من قبل أن هذا الاتجاه هو امتداد للتفكير الوظيفى ، ويمكن على احسن تقرير اعتباره « الاتجاه الوظيفى الجديد ، اى الوظيفية الجديدة » • وعلى اى حال ، يعد كتاب بكلى من العلامات البارزة فى تطور المدرسة الوظيفية ، وهو يتساوى مع مقاله « ديفيز » عام ١٩٥٥ ومقاله « ميرتون » عام ١٩٤٩ •

ولعل « دور الصراع فى التحليل الوظيفى » يعتبر من اهم المواضيع التى تبين قدره الوظيفية على الاستمرار كاتجاه رغم الظروف الفكرية المتغيرة التى تواجهه • وهذا ما سوف اعالجه الآن •

٢ ـ مشكلة الصراع :

كان الانثروبولوجيون البريطانيون يتخذون الوظيفية كاداة ثورية يحاولون بها منع جنود الاحتلال من تدمير النظم الوظيفية للحفاظ عليها لما تؤديه من و ... ايجابية للمجتمع • ولقد ادى هذا الامر الى ظهور موقف محافظ تجاه محاولة التغيير فى المجتمعات الحديثة ، ولما كان كل مجتمع يشتمل على جوانب سيئة وجوانب اخرى حسنة ، فقد ادخل الوظيفيون ـ لذلك ـ اصطلاح « سوء الوظيفية » dysfunction • فقد يسيطر على المجتمع فكرة النجاح كهدف اسمى دون ان يوفر هذا المجتمع فرص او سبل تحقيق هذا الهدف لأفراده ، هنا يجد الافراد ان امامهم احد سبيلين لتحقيق هذا النجاح • اما ان يحققوه بالطرق الاجرامية ، واما يلجأون الى المخدرات لنسيان الضغط الاجتماعى • وفى هذه الحالة يتعين عمل شىء لاعادة التوازن بين الطموح الاجتماعى وبين الفرص المتاحة ، وتلك هى غاية التحليل الوظيفى •

ولم يسلم الاتجاه الوظيفى ، رغم ادخال الوظيفيين لاصطلاحى سوء

الوظيفة والهدف الاجتماعى ، من نقده بانه يتسم بالمحافظة وقبول الامر الواقع للمجتمع والتصدى لمعالجة بعض الصعوبات البسيطة • ويلخص « لويس كوزر » L. coser ، رائد هذا الاتجاه ـ الصراعى ـ الموقف الوظيفى حين يقول « الباحث الاجتماعى قد تحول الى مصلح اجتماعى متحمس لاصطياد المشاكل الاجتماعية ، وخبيرا فى العلاقات الاجتماعية » • ولا يعتبر هذا نقدا من « كوزر » للوظيفية ، حيث يقرر فى مكان آخر ان الصراع له وظيفته الاجتماعية تماما كالتعاون • ولا يعتبر الصراع مظهرا من مظاهر سوء الوظيفة ، بل يعد عنصرا هاما له دوره فى الوظيفة الجمعية •

ومع اصرار « كوزر » على فكرة استمرار الحياة الجمعية كاطار مرجعى ، فانه لا يفوتنا اقراره بوجود الصراع وليس الانحراف ، كما كان يطلق عليه ، واقراره ايضا بان الصراعات هى جزء من وظيفة النظام الاجتماعى •

لكن ماذا لو ان توزيع السلطة والقوة فى المجتمع ادى الى وجود صراعات لا يمكن حلها الا على حساب بعض الفئات الاجتماعية ؟ • ويجيب «داهر ندروف» على السؤال بقوله : ان التغيير الاجتماعى لابد ان يعمل على ازالة النظم الوظيفية الجامدة ، ومن ثم فان التغيير (وليس التوازن) الاجتماعى يجب ان يكون اهم ما يدرسه الباحث الاجتماعى ، اى دراسة التغيير المقصود غير القابل للتوازن من نوع من التوازن • وربما يرجع اعتراض « داهر ندورف » على الوظيفية ، وان لم يكن بشكل صريح ، الى انها لم تهتم بالمستقبل • وجدير ان نلاحظ ان « داهر ندورف » عندما قام بدراسة المجتمع الألمانى ـ كما بينا ـ كان هدفه الأساسى ايجاد طريقة لتقوية الديمقراطية فى المانيا ، كما انه عندما انتقد الوظيفية لعدم وضعها التغييرات الجذرية موضع الأهمية ، لم يكن يفكر فى نوع من الثورة• فهو يهتم بمجتمع يستخلص اهدافا جديدة من صراعات قديمة • فقد جاء « داهر ندورف » بمصطلحات العامل الاجتماعى ، الوسيط الاجتماعى ، وهو يقدم لنا الآن رجل الدولة الجتماعى الذى يقود بلده بالتخطيط الاجتماعى وليس بالقوة ، وان كان التخطيط سوف يؤدى الى قيام نوع من التنسيق العقلى للمحاولة والخطا •

وايا كان مركز « داهر ندورف » ، فانه لم ينجح فى هجومه على الوظيفية •

فقد بدأ اتجاه جديد قريب من نظرية النظم العامة تقابل التحدى . وقد رأينا كيف تحول الصراع من الوظيفية الى أداة للتحليل ، اى الى تغذية مرتدة موجبة positive Feedback كما بدأ الأخذ بدور التخطيط فى الوظيفية . وفى الواقع أننا لا نرى حتى فى الوظيفية القديمة الوهن الذى وصفها به « داهر ندورف » . وسوف يتضح لنا ذلك من دراستنا للميكانيزمات الوظيفية .

٣ ـ الميكانيزمات الوظيفية :

تعرضنا فيما تقدم الى مبدأ « ميرتون » السادس الذى وجه انتباهنا الى الأهمية البالغة للميكانيزمات الاجتماعية . وقد لبى نداء ميرتون نخبة من علماء الوظيفية الحديثة Neo-Functionalists . فقد أقاموا جسرا لتضييق فجوات نظريات النظم العامة ، كما قاموا بجهد كبير لتحديد الروابط التى تجمع بين النظم الاجتماعية المختلفة .

وتبدأ أفكار هذا الاتجاه الوظيفية الجديدة . بشكل عام ، بالفرد او الوحدات الصغيرة باعتبارها أعضاء فى وحدة أكبر او مجتمع . فعلى حين تهتم الوظيفية التقليدية بمساهمة او دور الوحدة الصغرى فى الوحدة الكبرى ، فان الوظيفية الجديدة تطرح بعض الأسئلة ، منها (لماذا تساهم الوحدة الصغرى فى الوحدة الكبرى ؟ ، ما هى مكافأة الوحدة الكبرى للوحدة الصغرى ؟ .

وطبيعى ان تختلف الاجابة على هذه الأسئلة تبعا لوجهة نظر كل من الوحدة الصغرى والوحدة الكبرى ، ولعله من قبيل الصدفة ان نشرت مقالتين فى وقت واحد تعكس كل منهما اتجاها مختلفا . ويبدأ « وليم . ج . جود » W.J. Goode بفكرة ضغط الدور Role strain وفيه يتعرض الفرد للمتطلبات المتصارعة للتوقعات الاجتماعية المنسوجة من حوله ومحاولته التوفيق بينها . ويتضح هنا أوجه التشابه بين « ضغط الدور » ومجموعة الوظائف الاجتماعية عند ميرتون . ويرى « جود » انه لما كان من الصعوبة معرفة ما يوليه الفرد من أولويات ، وسلوكه تجاه التوقعات الاجتماعية المختلفة ، كان من الضرورى اخضاعه لنوع خاص من التحليل . وينظر « جود » إلى القرارات الصائبة

كصفقات تهدف الى اعلى ربح بأقل كلفة . ويقترح « جود » بعض الافكار الامبريقية للتخفيف من حدة ضغط الدور من بينها :

أولا ـ اختيار مجموعة من الأدوار لا تتسم بالصعوبة ، على ان يساند كل منها الأخرى اى لا تكون متصارعة .

ثانيا ـ ان يكون لكل من هذه الأدوار قيمة اشباعية منتجه تمكن من تغيير النمط الكلى لمجموع ادواره الاجتماعية .

ويستمر « جود » فى استخداماته المجازية حيث يقرر أن السوق ليس حرا اذ هناك ، دائما ، طرف ثالث يتمثل فى المعايير الاجتماعية العامة والنظم الاجتماعية الصغرى التى تضع حدودا على حرية الصفقة . فالمجتمع نسق معقد يوجهه الفرد نحو اتخاذ قراراته . وينهى « جود » مقترحاته بالاشارة الى كيفية دراسة أدوار الفرد بدقة فى السوق عن طريق تحليل ما بينها من علاقات .

ويبدأ « الفن جولديز » Alvin Gouldne من الاتجاه المعاكس ، أى من الوحدة الكبرى الى الصغرى ، ويوجه اللوم للوظيفية القديمة التى لم تهتم تحليلاتها باهداف الوحدات الكبرى ، ويهتم « جولدنر » بمبدأ التبادل الذى يعتبر مظهرا أساسيا ومنطقيا فى اى نظام ، فهناك فى كل مجتمع توجد معايير توضح الفائدة المتبادلة بين المجتمع والأفراد . فالخدمات التى يؤديها الأفراد تساعد على استقرار المجتمع ، مما يجعل المجتمع يبادل الأفراد خدمات بخدمات ولكن حين لا تكون عمليات التبادل مباشرة تضعف العلاقات بين الوحدات مما يحتم ايجاد نوع من الأدوار الادارية ، أى يحتم وجود طرف ثالث وهو ما بدأ به « جود » . ويقول جولديز ان الطرف الضعيف لا يستطيع أحيانا تبادله المنافع مع الطرف القوى ، وهنا يتعين أن يقوم المجتمع بالتدخل . ومثاله على ذلك أن التبادل الخفى ليس مباشر بين فاعل الخير والفقراء الذين تقدم لهم الحسنة ، ويتمثل تدخل المجتمع فيما يضفيه على فاعل الخير من رفعة اجتماعية نظير أعماله الخيرة .

ويقترب « جولدنر » من التراث السيسيولوجى بشكل أكبر من « جود » ،

لذا لم يقتصر على مناقشة قرارات الفرد بالتفصيل ، بل ، ولكونه وظيفي جديد، لمناقشته التفصيلية لفكرة التبادل فرغم ، على سبيل المثال أن عائدا الهبات لا يرد فى الحال ، فان الفصل بين تقديم الهبة والحصول على ما يقابلها وظيفة اجتماعية هامة ، اذ تخلق نوعا من الاتصال الشعورى المستمر بين المدين والدين ·

ويعد كتاب « بترربلاو » P. Blaw «التبادل والقوة فى الحياة الاجتماعية» من أهم المؤلفات التى اشتملت على تحليل اجتماعى مكثف لفكرة التبادل · فقد أعاد تحليل مواضيع علم الاجتماع الكلاسيكى على اساس تبادلى ، وتاكيده على أهمية القوة كما يتضح من عنوان الكتاب اذ يرى ان معايير التبادل توضح تدرج النظم الاجتماعية فى المجتمع الحديث · ورغم ذلك فلم يقل لنا أحد كيف يمكن تفسير اسهام الوحدات الصغرى فى الكبرى عن طريق الميكانيزمات الوظيفية أو العلاقات التبادلة ·

وهناك اتجاه آخر يعتمد على فكرة النشوء والارتقاء لدارون ، أى أن هناك نوعا من الارتقاء الاجتماعى ، حيث تستطيع بعض النظم البقاء بسبب انتاجية واسهامات وحداتها الصغرى · وعموما لا نستطيع الجزم بنتائج هذه الاتجاهات وان كان يمكننا أن نقرر أن نظرية النظم العامة والوظيفية الجديدة تمثل وجهين لعملة واحدة ·

النظرية النقدية والديالكتيكية :

تعتبر النظرية النقدية أهم ما قدمته المانيا الى علم الاجتماع · ولقد انقسم علماء الاجتماع الألمان على انفسهم فى سبيل ظهور هذا الاتجاه الذى يتعين أن نتتبعه تاريخيا اعتبارا من العشرينات ·

فقد نشأ فى منتصف العشرينات من هذا القرن فى جامعة فرانكفورت معهد الأبحاث الاجتماعية الذى أصبح « ماكس هوركهيمر » Max Horkheimer مديرا له عام ١٩٣١ · ولقد استطاع هذا المعهد ، قبل حكم هتلر ، القيام بعدة دراسات تشير نتائجها الى أن الطبقة العاملة الالمانية لن تستطيع مقاومة

الحركة الهتلرية نظرا لاعتيادها على الخضوع للسلطة . وقد بدأ المعهد عام ١٩٣٢ نشر دورية جذبت انتباه مجموعة من الباحثين الشبان مثل تيودور ادورنو Theodor Adrno و والترينجامين Walter Benjamin واريك فروم Erich Fromm وهربرت موريس Herbert Marcuse وغيرهم .

ولقد أكد افتتاحية اول عدد صدر من هذه الدورية انها سوف تغطى كل العلوم الاجتماعية نظرا لأن الجماعة القائمة عليه تسعى الى « فهم » المجرى الكلى للتاريخ . ولقد كانت عناوين المقالات فى هذا العدد الأول على جانب كبير من الأهمية . فقد ناقشت احدى تلك المقالات نظرية ماركس فى الأسعار ، كما ناقشت مقاله المحددات المجتمعية للأدب وأخرى المحددات المجتمعية للموسيقى . ولقد تناول « ادرنو » فى عددين من هذه الدورية الدور الاجتماعى للموسيقى . وقد كان مضمون ما عرض له هو نقد سافر لفقدان الموسيقى القدرة على الابتكار وخضوعها لحاجات الجماهير مما جعلها سلعة فى السوق الاجتماعى .

ولقد انتقل هذا المعهد الى الولايات المتحدة بعد تسلم هتلر السلطة . وكاد يتوقف نشاطه حتى نشرت مقاله « هورخيمر » النظرية التقليدية والنقدية ، عام ١٩٣٧ . وتناقش هذه المقالة ثلاثة موضوعات أساسية .

يتناول الموضوع الأول العلوم الحديثة فى المجتمع وارتباطها بتطور الطبقة الوسطى فى مرحلة ما قبل الرأسمالية . ويتشابه « هورخيمر » مع النظرية الماركسية حين يعلن عدم صلاحية العلوم البحتة للمجتمع الحديث لقبولها الاحتكار الرأسمالى .

ويعالج الموضوع الثانى طبيعة هذا العالم ، ولم يشر الى المواضيع الماركسية كالفقر والبطالة والاستغلال الا بشكل عابر ، انما ناقش باسهاب مشاكل الاغتراب والغبيات والوعى الزائف . فيظن الناس خطأ أن قراراتهم صادرة من أنفسهم والحقيقة أن هناك ميكانيزمات اجتماعية تحدد سلوكهم . فمصائر الأفراد لا يحددها التنافس فيما بينهم ، انما تحددها صراعات قومية ودولية بالاضافة الى النظام الاقتصادى ونظام الحكم . وحتى الرأى العام ما هو الا نتاج الطبقة الحاكمة والبيرقراطية .

ويتعلق الموضوع الثالث بالتحليل السسيولوجى الذى يفرز حتمية قيام نظرية نقدية تتناول المجتمع • ويعد هذا الموضوع أهم عنصر فى مقالته ويتعين على التحليل الاجتماعى أن يشير الى العناصر التى سبق ذكرها لا على أساس أنها محض نواقص أو عيوب فقط ، بل كنتاج للبناء الاجتماعى الأساسى ، وكذا كنتاج لنظام انتاج يسعى الى الربح • فالعلاقة بين البحوث التى تهتم بما هو قائم وبالأهداف الاجتماعية التى يتطلع اليها يمكن أن تتحدد كما يلي :

حتى تفهم التاريخ على أنه نتاج ضرورى لميكانيزم اقتصادي يتضمن بالطبيعة تحديا ضد النظام الحاضروفكرة الاستقلال autonomy للجنس البشرى فان ذلك يعنى تواجد نظاما لا تعد فيه الأحداث الاجتماعية وليدة ميكانيزم ، بل وليدة قرارات جمعية حرة وما من شك أن ذلك يعنى أننا لو نظرنا الى ما يحدث على أنه أمر ضرورى ، فان تلك النظرة تتضمن قيام حرب من أجل التغير الذى ينقلنا من حالة العماء الى حالة الادراك الواعي .

ولا شك أننا الآن بصدد ماركسية جديدة Neo-Marxism ، فقد كان ماركس يرى أن البروليتاريا (الطبقة العاملة) تعد قوة تاريخية للتغير الاجتماعى ، وقد نشأت الماركسية البروليتارية بعد تجارب المانيا الهتلرية وملاحظة إتحادات عمال امريكا والبيروقراطية السوفيتية • فقد دعا (هورخيمر) الباحثين فى النظرية النقدية الى أن يتحالفوا مع كل العناصر التقدمية من الافراد القادرين على قول الحق ؛ لأن هذا التحالف سوف يؤدى الى خلق عملية ديالكتيكية من شأنها أن توجد قوى تحريرية منظمة للمجتمع ، وهذا وضع مختلف عن ذلك الذى أخذناه من الاشتراكيين اليوتوبيين ، نظرا لان التغييرات التكنولوجية قد جعلت قيام تنظيم جديد للمجتمع أمرا ممكنا • فالنظرية النقدية توضح أشياء لم تكن كذلك كما هى الآن • فالجنس البشرى قادر على تغيير وجوده وهو ما تسمح به الآن الامكانات المتوفرة •

ولم يقدم لنا « هورخيمر » فى هذا المقالة أية أمثلة واقعية لتعزيز أفكاره • كما أنه لم يبين طريقة التحليل المستخدمة • وقد ترك ذلك الأمر لاثنين من

مساعديه ، الأول عربرت موريس الذى قدم الخلفية التاريخية ، فى أحد المقالات، لأسس النظرية الديالكتيكية للمجتمع · وقد أضاف فى عدد آخر لهذا العمل شرحا للديالكتيكية وقال كما ذهب سلوجان Slogan بقوة التفكير السلبى ويرى موريس ان الديالكتيكية والنظرية النقدية شىء واحد · وقد لخص فى مقدمته التى كتبها عام ١٩٦٠ مقاله « هورخيمر » التى كتبها عام ١٩٣٧ كما يلى :

« يبدأ الفكر وديالكتيكى عند ادراك ان العالم ليس سرا حرا ، بمعنى أن الانسان والطبيعة يتواجدان فى حالة من حالات الاغتراب ··· يتواجدان فى شكل ليس هو حقيقتهم وان تفهم الحقيقة معناه ان تفهم ما هى حقيقة الأشياء فى الواقع ، ويعنى ذلك ، بالتالى ، رفض واقعهم الحقيقى · ان الرفض هو عملية الفكر والفكر ايضا » ·

واذا كان الإنسان لا يستطيع فى ضوء هذا التعريف أن يقرر ما الذى تعنى به النظرية النقدية ، رغم ان التناول التاريخى الذى قدمه موريس يساعد ـ فى الواقع ـ على تبصر غايتها الأساسية ، فان « آدورنو » الذى أصبح من أشهر علماء الاجتماع المختصين المتصلين فى العالم ، قد تناول قضيتين مختلفتين من حيث تأثيرهما · فمن ناحية ناقش ، أساسا ، العلاقة بين النظرية والبحث الامبريقى · ومن ناحية أخرى اهتم بشكل كبير بالموضوعات السسيولوجية الواقعية · وفيما يختص بالقضية الثانية ، فان الملاحظات التحليلية التى قدمها « آدورنو » يمكن استخراجها من واقع اهتماماته بميدان الثقافة ، وعلى وجه الخصوص بالموسيقى التى كان واحدا من أشهر خبرائها ·

وتنقسم اسهامات « آدورنو » الى جزئين : يشبه فى الجزء الأول «بارسونز» الذى حاول تطبيق مجموعة من المصطلحات الأساسية على موضوعات مختلفة كالنظام الطبى وتربية الأطفال ، والعلاقات بين الأمم ··· الخ · ويؤكد آدورنو على الوظائف الكامنة ، أى الاهتمام بالارتباطات التى لا يدركها بسهولة الملاحظ العابر · وهو يهتم أساسا بتلك الوظائف الكامنة ، التى كما يرى ، تخدع الانسان الحديث وتبعد عنه الطبيعة الأساسية السيئة للمجتمع · من

هنا نلاحظ في كتاباته كثير من العبارات مثل : « تتطلب النظرية الكشف عن العناصر الخفية التي تجعل الآلة تعمل ككل » . « ان الحقائق التي تلاحظ أمبريقيا لا تعكس دائما العلاقات الاجتماعية الحقيقية ، فهي قناع يخفي هذه العلاقات » ، على الباحث الاجتماعي أن يرفع الأقنعة والغموض عن الواقع الاجتماعي ، ومثاله على ذلك أن الموسيقى أصبحت تعويذة في العصر الحديث ، ذلك لأننا نعيش في عالم من الترفيه والدعاية والاعلان يفرض علينا المعايير التي نرى العالم من خلالها . ويمكن أن تثري دراسة مثل تلك القضايا وتحليلها للفكر السسيولوجي .

أما عن القضية الثانية فقد الحق بها الكثير من الضرر لعلم الاجتماع ويجسن أن نتتبع الأمر تاريخيا . فبعد أن عادت جماعة فرانكفورت بعد الحرب من الولايات المتحدة الى ألمانيا حاولت نشر الأبحاث الاجتماعية الامبريقية التي أجروها في الولايات المتحدة ، وعقدوا عام ١٩٥١ اجتماعا عاما يناقش دور البحث الاجتماعي الامبريقي . وقد رأس الاجتماع « ليوبولد فون فوازيه » Leopold Von Wiese . وألقى « أدورنو » التقرير الرئيسي أوضح فيه كيف يمكن اثراء علم الاجتماع عن طريق الدراسات الامبريقية وقدم الأدلة على ذلك . وقد حاول جاعدا في تقريره ، أن يبعد الرأي المعروف في ألمانيا عن البحث الامبريقي بأنه مجرد احصاء لراى الافراد واعمال المشاكل العامة ، وقال ان الدراسة الامبريقية تجمع بين الاحصاء الكمي للأفراد والجماعات ومقارنة النتائج العلمية يرد فعل الافراد والجماعات منعزلة أو مجتمعة . ويعتبر هذا التقرير بما يحتويه من بعد نظر ونقد عميق من أهم اسهامات الدراسات الامبريقية الواقعية في علم الاجتماع العام .

بيد أن الموقف قد تغير تماما في السنوات الخمس التالية التي كتب فيها « أدورنو » بطريقة لا تنتهي من المقالات تدور حول النظرية والبحث الامبريقي ونظرا لتكرار واطناب « أدورنو » لأهمية البحث الامبريقي ، أصبح الباحث الامبريقي يوصف بأسوء النعوت مثل الأحمق والأعمى وعديم الاحساس ... حيث أصبحت هذه الصفات وغيرها مرادفة لكلمة « امبريقي » . فقد انحصرت وظيفة الباحث الامبريقي عند « أدورنو » في التعبير عن الآراء الذاتية للأفراد

الذين يثق بهم . ومن ثم نجد هناك فارقا كبيرا بين أسلوب وأفكار هذه المقالات المغرقة فى التجريدات والفلسفات الفردية ، وبين التقرير الذى كتبه عام ١٩٥١ . وايا كان تكرار الموضوع فى هذه المقالات فهى يمكن أن تنقسم الى نوعين .

الأول – وهو يرى أن الباحث الامبريقى يحصر اهتماماته فى التعميمات الكلية . ولم يلق هذا الرأى اى سند عن اى دراسة امبريقية .

ثانيا – لا يرجع فشل البحوث الامبريقية الى النتائج التى انتهت اليها بقدر ما يرجع الى الاعتقاد السائد بأنها لا تستطيع القيام باى اسهام فى تشييد نظرية اجتماعية تتناول المجتمع فى كليته . فقد أصبح البحث الامبريقى تعويذه أخرى لاخفاء الطبيعة الحقيقية للنظم الاجتماعية المعاصرة .

ولقد جذب مركز « آدورنو » الانتباه بحيث رأت الجمعية الالمانية لعلم الاجتماع عام ١٩٦١ ضرورة عقد اجتماع لمناقشة آرائه وكان موضوع الاجتماع « منطق العلوم الاجتماعية » . وقد دعى الفيلسوف الاسترالى البريطانى الاصل الى ما يمكن ان نسميه بالنظرية الرسمية للعلم . وقد غدى ما يمكن تسميته بالدياليكيتكية الوضعية dialectic ... Positivist منذ هذا الاجتماع الموضوع الاساسى لعلم الاجتماع الالمانى .

ومن الجدير بالذكر أن اى من تقارير هذا الاجتماع لم يأتى بشىء مثير أو جديد فقد أكد « آدورنو » استمرارية مركزه ، كما قرر « هورخيمر » فى مقاله بعنوان « فى النظرية التقليدية » ، ان علم الاجتماع النقدى ، حتى يكون مدلوله الاصطلاحى صادقا ، يتعين أن يكون فى نفس الوقت نقدا للمجتمع .

وقد أشار « داهرندورف » فى تلخيصه لما دار من نقاش ان كل من المتحدثين كانا فى غاية الادب بحيث يصعب على المرء ان يدرك الفروق الدقيقة بينهما . ويرى « داهرندورف » ان الفارق الوحيد الواضح الذى يمكن ملاحظته بينهما ، هو ان النظرية عند « ببر » Popper تنمو دائما بفضل المحاولة والخطأ ، على حين انها ، عند « آدورنو » تجسد من حيث اللب ، على الاقل الصدق

الأبدى · لقد ابتلع « داهرندورف » خيبة أمله فى هذا الاجتماع ، خاصة وان هذا الاجتماع لم يشر الى مشكلات سسيولوجية معينة ، أو الى استخدامات علم الاجتماع فى مجال القرارات الاجتماعية الواقعية ·

ولا يستطيع المرء تجنب الاحساس بالتناقض بين ما ادت اليه هذه الندوة من آثار وبين قلة ما فيها من دروس مفيدة · وعلى أى حال يعد « هابرماس » Habermas ، على قدر معرفتى ، هو أول من حاول تحديد صور عدم الاتفاق بين النظرية التحليلية للمعرفة والدياليكيتية ، حيث حددها فى أربع نقاط ١ ـ كيف يتكون أو يتشكل صدف التحليل السسيولوجى · ٢ ـ العلاقة بين النظرية والدليل الواقعى · ٣ ـ العلاقة بين النظرية والتاريخ · ٤ ـ العلاقة بين العلم والتطبيق ·

ومن الجلى أن قيام « هابرماس » بتفتيت الموضوع الى عناصره الاساسية من الاسهامات المفيدة بكل تأكيد ، ورغم ذلك فان عالم الاجتماع ونجده مجتذبا بمناخ النظرية النقدية لا يستطيع ان يدرك كيف يبدأ اذا ما أراد دراسة موضوع معين فى اطار من ظلها (أى ظل النظرية النقدية) ·

ولقد قام « هابرماس » بتناول كل من هذه النقاط بالتوضيح وذلك بالاستشهاد ببعض النصوص المأخوذة عن « آدورنو » بل ومن بعض الكتابات الاخرى التى نهجت نهجه · ولقد اضحى الموقف كله متضحما نتيجة لمركز الوضعين · وتعد جامعة كولون ـ بلا شك ـ واحدة من أهم مراكز البحث الاجتماعى الامبريقى الالمانية ، ولقد قام عالم الاجتماع « كونج » R. Konig فى المؤتمر الدولى الرابع لعلم الاجتماع عام ١٩٥٩ ، حيث كان « كونج » رئيسه، بتقديم وصف للنظرية النقدية مستشهدا بمصادر مختارة اختيارا جيدا · ولقد انتهى الى نتيجة متشائمة فيها يرى انه يتعين على المرء ان يميز تمييزا دقيقا بين نظرية المجتمع والنظرية السسيولوجية ، وان نكون حذرين من الاولى · ويرى « كونج » ان الباحثين النقديين يقومون بالتأمل فى المعطيات الاجتماعية بطريقة لا نقدية وغير مضبوطة ويندفعون بشكل سريع الى استخراج النتائج · ان للبحث لا يعنى شيئا فى ذاته ، مثلا اذا كان الامر

يتعلق بقبول أو رفض احد الفروض ، لكنه يكتسب معناه اذا حاول الدفع الى عمل ثورى · ولقد اغلق « كونج » ، بهذا الفصل بين هذين المجالين (نظرية المجتمع والنظرية السسيولوجية) ، كل السبل امام احتمال الافادة بالعناصر المدركة أو المميزة فى النظرية النقدية لاثراء الميدان كله · ويمكن ان يتجلى اثر ذلك فى المؤلف الالمانى الهام عن البحث الاجتماعى الامبريقى الذى اصدرته جماعة كولون · ولم يشر القسم الذى تناول الاسس الفلسفية للبحث الاجتماعى لعلم الاجتماع النقدى ·

وعلى المرء ان ينتقل الى دولة أخرى حتى يتمكن من ان يرى المحاولة الوحيدة التى جعلت ـ فى تقديرى ـ الديالكيتكية شيئا يماثل عملية البحث التى يمكن دراستها وتعليمها · وفى هذا المجال أشير الى عالم الاجتماع الفرنسى الذى بذل جهدا حقيقيا فى هذا الاتجاه ، فقد استعرض « جورج جورفيتش » Georges Gurvitch ، بشكل دقيق ، فى كتابة « الديالكيتك وعلم الاجتماع » فكرة الديالكيتك فى تاريخ الفلسفة · وقد قدم فى هذا الاطار ما يسميه بالديالكيتكية العملية Operational dialectis الذى يهتم به كأداة للبحث السسيولوجى · ولقد حذر من الاتجاه الذى يعد الديالكيتكية هو العلاج الوحيد · فهو يرى أن التسليم الاعمى بالتناقض أمر خطير · ورغم ذلك فقد قام « جورفيتش » بتحديد خمسة اجراءات ديالكيتكية بعينها ، يراها نقطة انطلاق مفيدة لأى عمل سسيولوجى · وغنى عن البيان رغم انه ليس من السهل ايجاز افكار « جورفيتش » ، فان الملخص التالى يمكنه أن يقدم لنا صورة عريضة لفكره ·

تتمثل العملية الديالكيتكية فى اختيار عنصرين فى موقف اجتماعى ثم ملاحظة العلاقة بينهما · فقد تكون علاقة تكاملية تفاعلية ، كما قد تخلق نوعا من الغموض أو الالتباس بالنسبة للداخلين فى العلاقة · وتعد هذه العلاقة وما يترتب عليها من نتائج الاساس الكامن وراء كل العمليات المختلفة · ويلاحظ ان المضمون المادى لهذه العناصر يمكن ان يختلف بدرجة كبيرة من حالة الى أخرى ·

وسوف أعرض لهذه الاجراءات أو الطرق الخمسة بنفس عناوينها الفرنسية وسوف اشير لكل اجراء بمثل مختصر :

١ ـ الديالكتيك التام La Complémentarité dialectique ويكون الموضوع هنا ، هو العلاقة بيننا وبين الآخرين ، بين الانشطة المخططة والعفوية ، وهكذا. وتقترب بعض الامثلة من مفهوم صراع الدور ٠

٢ ـ الديالكتيك الضمنى المتبادل L'implication dialectique mutuelle وتشمل هذه الطريقة التفاعل المتبادل بين البناء الاجتماعى والتكنولوجيا ، بين الانماط الثقافية العريضة والتفاعل الاجتماعى على مستوى ماكروسكوبى كبير ٠ ويدخل « جورفيتش » فى اطار هذه الطريقة الكيفية التى تتوافق بها المستوردات الثقافية مع تراث البلد المستوردة ٠

٣ ـ الديالكتيك الغامض (المبهم) L'ambiguite dialectique

يدخل فى نطاق هذا الشكل كثير من امثلة التفاعل المتبادل ، لكن فى شكل جديد ٠ فالفرد أو الجماعة التى تعيش فى تفاعل مع نظامين اجتماعيين أو أكثر كثيرا ما تصادف صعوبة بالغة فى ايجاد ذاتيتها الاجتماعية الخاصة ٠ وربما يفيد فى هذا المجال ما كتب عن الجماعات المرجعية ٠

٤ ـ الديالكتيك الاستقطابى La polarisation diadectique

كما يتوقع المرء ، فان هناك ، دائما امكانية قيام ميول أو اتجاهات عدائية تنافرية ٠ ويقترب هذا الشكل كثيرا من المفهوم التقليدى للديالكتيك ٠ ومن الامثلة على ذلك العداء بين الطبقات ، والثورة والحرب ٠

٥ ـ الوسط فى المنظورات التبادلية

La mise en reciprocite de perspectives

تقوم هذه الطريقة على البحث عن العناصر وتحديد ابعادها ، بحيث انه كلما ازدادت التبادلية عمقا وحدة كلما ادى ذلك الى امكانية ملاحظة وجود اتجاه من التوازى بين المنظورات ٠ وجدير بالذكر ان الامثلة التى يقدمها « جورفيتش » يمكن فهمها بسهولة عن المصطلح ذاته ٠ فالتنظيمات البيروقراطية

توجد وتشد بعض الشخصيات . كذلك فان الراى العام ما هو الا حشد من آراء الافراد فى وقت معين ، وهو يؤدى فى نفس الوقت الى تغير فى آراء الافراد . كذلك فانه رغم ان المخترعات نتيجة خلق الافراد ، فانها تحدث فى الغالب فى ظل ظروف تاريخية معينة .

ولقد اشرنا الى « جورفيتش » نظرا لما تسهم به اجراءاته الدياليكيتكية فى العمل السسيولوجى . حقيقة انها لا تقدم لنا تفسيرا ، بقدر ما تقودنا الى بداية الطريق .

وترجع اهمية الاشارة الى افكار « جورفيتش » لسببين ، الاول محاولته ازالة الغموض القائم حول بعض المصطلحات كالدياليكيتكية . والثانى هناك قدر من التوازى الصامت بين افكاره وافكار بارسونز ، اى ان هناك نوعا من التوازى بين عملياته الدياليكيتكية وانماط المتغيرات لبارسونز ، اذ يهتم كل منهما بالاتجاهات الاساسية التى يجب الاخذ بها فى اى بحث سسيولوجى . هذا على الرغم من اهتمام « بارسونز » بالافراد والجماعات ، واهتمام « جورفيتش » بالمحال الاجتماعى . ونحن فى حاجة الى دراسة توضح لنا ما اذا كان هناك تشابه بين انماط « جورفيتش » الخمسة وانماط « بارسونز » .

واخيرا يجدر بنا ان نشير انه لم يحدث ان اختلفت آراء المفكرين حول اتجاه ، كما اختلفت حول الدياليكيتكية . ورغم انه لم يذكر لها تفسير فى الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية ذات الستة عشر مجلدا ، فان المرجع الفرنسى السنوى لوسائل البحث فى العلوم الاجتماعية قرر ان الدياليكيتكية هى اكمل واثرى واكثر وسائل علم الاجتماع تفسيرا للظواهر الاجتماعية . ورغم انها لم تذكر فى اهم المراجع الامريكية للفلسفة والعلوم الاجتماعية الا فى مقالة واحدة ، فقد افردت لها المراجع الالمانية ثلاثة مقالات فى احد مجلداتها . ويقودنا هذا بلا شك الى آخر اهتمامات علم الاجتماع فى فرنسا وهو الاتجاه البنيوى

البنيويه : Structuralism

لا اشك فى معرفة القارىء باهمية البنيويه كمنهج للبحث فى علوم اللغويات والانثروبولوجيا والنقد الادبى ، وقد لا يسعفنى المجال هنا لتعريفها . فقد حاول ذلك كل من « ليفى ستراوس » Lévi-Strauss و « رولاند بارث » Roland Barth فى مجلدات ضخمة . وقد كتب « بياجية » فى احد ابحاثه يقول : اصبحت البنيويه من أهم وسائل الفكر الحديث ولا يستثنى من ذلك العلوم الاجتماعية ، واشار الى أمثلة عديدة فى مختلف العلوم . اما علم الاجتماع فلم يستطع الاشارة الا الى استخدام بارسونز لاصطلاح « بناء » Structure . ولعلنا قد نتصور أن « بياجية » اعتبر استخدام النماذج الرياضية جزءا من الحركة البنائيه Structural movement وما من شك أن هذا لا يسهم بالقدر الكافى فى توضيح البنيويه .

وجدير بالذكر أن البنيويه كاتجاه فى علم الاجتماع استقى اصوله من خارج فرنسا . فعلماء اللغويات عندما يضعون لغات عديدة ، فانهم يحاولون دائما الربط بين البناء اللغوى والبناء الاجتماعى . وهم حين يفعلون ذلك ، فانهم يستخدمون نوعا من التنميط الذى ناقشناه فى نهاية الفصل الاول .

ومن بين المشكلات الاخرى التى يتعين التعرض لها عند مناقشة البنيويه ، تنميط النظم الاجتماعية والاقتصادية العريضة التى عادت للحياة حديثا . وقد بدا ذلك ماركس الذى اهتم بتعقب مراحل تطور المجتمع التى سبقت وادت الى وجود النظام الرأسمالى .

ولقد اثار التغير الاجتماعى الحديث فى البلدان المتخلفة ، تلك المشكلة بشكل كبير لدى العلماء الاجتماعيين . هل ستتكشف تلك المجتمعات ، وهى فى طريقها الى التصنيع الحديث ، عن قيام اشكال من المجتمعات مختلفة عن اى شكل عرف من قبل ؟ واذا كان الامر كذلك ، فكيف سيمكن تفسيرها على أسس التنميط البنائى الذى عرفه العالم الغربى دون تحيز . فقد كتب « كولا »

Kula كعالم اجتماعى افريقى ، ان ذلك سيتطلب نوعا من الانثروبولوجية على غرار تلك التى نمت فى المجتمعات الصناعية الغربية · ويعتبر بحث «ويتفوجل» Writtfogel عن المجتمعات الديكتاتورية الاسيوية من اهم الاعمال التى تناولت هذا الموضوع · فقد تتبع تطور هذه الفكرة التنميطية · ولم تخل معلوماته القيمة من التحيز نظرا لانه شيوعى مرتد · وتدل الكتابات التاريخية الجماعية للنظام الاقطاعى ، عن مدى اهتمام المؤرخين بهذه المشكلة ، خاصة حين اثار مشكلة امكانية تطبيق نموذج التنميط الغربى على تاريخ تطور هذه الدول · ويمكن أن نقرأ ، كذلك ، كتاب « ايزنستادت » Eisenstadt عن البيروقراطية المركزية (الذى تناولته فى الفصل الثانى) من وجهة النظر التنميطية ·

اشرنا فيما تقدم لكل الانشطة التى يرجع اليها الفضل فيما أصبح يعرف بالنظرية الاجتماعية · وقد كنا ندفع باستمرار خلال هذا العرض الى الاشارة الى وجوه الاختلاف أو التباين القومى · ويثير ذلك سؤال عن ماهى أوجه التباين أو الاختلاف الاخرى بين علماء الاجتماع فى البلدان المختلفة والتى يمكن ملاحظتها · ويختص الفصل التالى بمعالجة هذا الموضوع ·

قائمة ببليوجرافية باهم مؤلفات
النظرية فى علم الاجتماع

اولا ـ المؤلفات العربية :

١ ـ السيد الحسينى « النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم » القـــاهرة دار المعـارف ـ ١٩٧٠ ٠

٢ ـ آمال حسن السواح « النظرية السوسيولوجية عند تشارلز رايت ملز » رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الآداب جامعـة الاســكندرية ـ ١٩٧٥ ٠

٣ ـ بوتومور وريل : « فى سوسيولوجيا ماركس وفلسفته الاجتماعيـة » ترجمة محمد حافظ يعقوب ـ دار دمشق للطباعة والنشر دمشق ـ ١٩٧٢٠

٤ ـ تيماشف : نظرية علم الاجتماع : ترجمة محمود عودة وزملاؤه دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٧٠ ٠

٥ ـ جون ركس : « مشكلات اساسية فى النظرية الاجتماعية » ترجمـة محمد الجوهرى وزملاؤه ـ منشأة المعارف بالاسكندرية ـ ١٩٧٣ ٠

٦ ـ قواعد المنهج فى علم الاجتماع دركايم ـ ترجمة محمود قاسم ومراجعة السيد محمد بدوى القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية ٠

٧ ـ سعد الدين ابراهيم علم الاجتماع الأمريكى بين التواطؤ والثورة ـ مقال بمجلة دراسات عربية ـ بيروت ـ عدد يوليو ـ ١٩٧٣ ٠

٨ ـ عبد الباسط عبد المعطى ـ مطالعات نقدية فى الاتجاه السوفيتى فى علم الاجتماع ـ القاهرة ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ ١٩٧٧ ٠

٩ ـ عبد الباسط عبد المعطى ـ فكرة التوازن فى المادية التاريخية ـ مقال فى كتاب دراسات فى علم الاجتماع والانثروبولوجيـــة ـ القـــاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٧٥ ٠

١٠ ـ عبد الباسط عبد المعطى فى نظرية علم الاجتماع ـ دار الكتب الجامعية ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ ٠

١١ ـ عبد الباسط محمد حسن ، تشارلز رايت ميلز وفلسفة البحث فى علم الاجتماع ـ مقال بمجلة عالم الفكر ـ العدد الثانى ـ يوليو ـ ١٩٧٥ ٠

١٢ ـ على ابو ليلة ، الأسس النظرية والمنهجية للنظرية الوظيفية فى علم الاجتماع ، ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٧٣ ٠

١٣ ـ على جلبى ـ النظرية واتجاهات تطورها فى علم الاجتماع ـ مقال فى كتاب دراسات فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ ٠

١٤ ـ محمد عاطف غيث ـ الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر ـ الاسكندرية ـ ١٩٧٢ ٠

١٥ ـ محمد عبد الله ابو على ـ نقد المنهج عند ماكس فيبر ـ مقال فى كتاب دراسات فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٥ ٠

١٦ ـ محمد عارف عثمان ـ المنهج فى علم الاجتماع ـ الانجلو المصرية ـ ١٩٧٦ ٠

١٧ ـ سمير نعيم احمد ـ النظرية فى علم الاجتماع ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٩ ٠

١٨ ـ محمود عودة ـ علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية ـ مكتبة سعيد رافت ـ القاهرة ـ ١٩٧٦ ٠

١٩ ـ معن خليل ـ نقد الفكر الاجتماعى المعاصر ـ مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء ـ المغرب ـ ١٩٧٨ ٠

٢٠ ـ نيقولا تيماشيف ـ نظرية علم الاجتماع ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ ٠

٢١ ـ هربرت ماركيوز ـ العقل والثورة ـ هيجل ونشاه النظرية الاجتماعية ـ ترجمة فؤاد زكريا ـ الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ ٠

1. Albert, H. (1974) 'The Myth of total Reason, Trans. Georg Allen and Unwin Ltd. London.

2. Albrecht Welmer. (1971). Critical Theory of Sociology New York.

3. Armstrong, D.M. (1968). A Materialist Theory of the Mind. London : Routledge and Kegan Paul.

4. Aron, R. (1968). Main Currents in Sociological Thaugh, Vol. 1, Harmondsworth : penguin.

5. Berger, p. (1968) Invitation to Sociology Harmandsworth : penguin.

6. Berger, P. (ed.) (1969), Marxism and Sociology views from Eastern Europe, New York Appletan — Century Selected Writings in Sociology and Social Philosphy. Crofts.

7. Berger, P. and Luckmann, T. (1967). The Social Construction of Reality, London : Allen Lane.

8. Biddle, B. J. and Thomos E. J. (eds) (1966). Role Theory Concepts and Research, New York and London John Wiley.

9. Brinbaum. N, (1971) Toward Critical Sociology. N. Y.

10. Bottomore, T.B. (1969). Critics A Society, George Allen and Uuwin Ltd. London.

11. Bottomore, T. B. (1975) Sociology As Social Criticism - G. Adey and D. Frisby in Giddens (ed.).

12. Bottomore. T. and Rubel, M. (eds) (1963) Karl Marx : Harmondsworth : penguin.

13. Brown. J. S. and Gilmartin, B. G. (1969) Sociology Today: Lacunae, Emphases and Sur Faits Amer. Sociologist, 4, 283 - 91.

14. Ciccurel, A. V. (1973). Cognitive Siciology, Harmond Sworth : Penguin.

15. Cohen, Percy. (1968). Moderen Social Theory Henimann, London.

16. Coser, Land Rosenberg, B. (ed). (1967) Sociological Theory The Macmillan Company. New York.

17. Coulson, M. A. and RIDDELL. D. S. (1970). Approaching Sociology, Acritical Introduction, London : Routledge & Kegan Paul.

18. Dahrendorf, R. (1967) " out of Utopia Reorientation of Sociological Analaysis " in Coser and Rosenberg, (eds) Sociological Theory The Macmillan Company N. Y.

19. Dahrendorf, R. (1968) Essays in the Theory of Society, London : Routledge & Kegan paul.

20. Douglas.J. (1974) Understanding Every Daylife Routlerge and KeGan paul London.

21. DouGlas,. J. (ed) (1970) Relenance of Sociology Meredith Corporotion. N. Y.

22. Filmer. (1972) New Directions in Sociological Theory Collier Macmillan.

23. Friedrichs, A. W. (1970) Sociology of Sociology New York: Free Press.

24. Giddens, A. (1911) Capitalism and Modern Social Theory Campridge

25. Gellner, E. (1962). Concepts and Society, Trans actions of the Fifth World Congress of Sociology, 1, 153-83 Reprinted in Wilson (ed). (1970).

26. Giddens, A. (ed.) (1974) Positivism and Sociology London: Heinemonn.

27. Gouldner, A. (1959) Reciprocity and Autonomy In Functional Theory in L. Gross (ed.) Symposium on Sociological Theory Row peteron and Co., New York.

28. Gouldner : Alvin (1971) The Coming Crisis of Western Sociology, Heinmann, London - New Delhi.

29. Gouldener. A. (1975) For Sociology Renewal and Critique in Sociology Today penguin Books.

30. Hamilton, p. (1974) Knowledge and Social Structure, London : Routledge & Kegan poul.

31. Harris, N. (1968) Beliefs in Society, The Problem of Ideology, London : Watts.

32. Horkheimer, M. (1972) Critical Theory Trans by Mathew J. O'Connell et al., New York: Seabury.

33. Loomes (charles and Zona). Modern Social Theories D. van Nostrand Company Inc N. Y. 1961.

34. Marcuse, H. (1964). one Dimens ional Man London: Routledge & Kegan paul.

35. Merton, R. (1968) Social Theory and Social structure publishing Co., P. V. T. Ltd. New York New Delhi.

36. Mills, W. (1963) The Marxists penguin Books.

37. Mulkay, M.J. (1971). Functionalism Exchange and Theoretical Strategy London : Routledg & Kegan paul.

38. Nisbet, Robert (1971). The Sociological Tradition Heinmann London.

39. Parsons and others (eds.) (19[illegible] Theories of Sociology the Free Press, N. Y.

40. Parson, T. (1949) Essays in Sociological Theory The Free Press of GloncoeLondon.

41. Parsons, T., (1951) Social System The Free Press of Gloncoe Illinois.

42. Parson (1967) Sociological Theory and Modern Society the Free Press N. Y.

43. Parsons,. T. (1968) The Structure of Social Action the Free Press.

44. Parson. T. (1973) TheSystem of Modern Societies Prentice Hall-Inc Englewood cliffs. N. J.

45. Preiss. J. J. and Ehrlich, H. J. (1966) An Examination of Role Theory. The case of the state police, lincoln : University of Nebraska Press.

46. Putnam, H. (1965). How not to talk about Theories, in R. Cohenand M. Wartsky (eds), Boston Studies in the Philosophy of Science Nol. 2, New York : Humanities Press.

47. Rovetz, J. R. (1971) Scientific Knowledge and its Social Problems, Oxford University Press.

48. Rex. J. (1974) Discovering Sociology Routledge and Kegan paul London.

49. Bex. J. (1974). Approaches to Sociology Routledge and Kegan poul London.

50. Rex, J. (1974) Approaches to Sociology Routledge and Oxford : Clarendon Press.

51. Runciman. W. G. (1972) Acritiqueof Max Weber's Philosophy of Social Science Cambridge Univeristy Press.

52. Schutza (1972) The Phnomenology of the Social World trans. G. walshand F. Lehnert, London : Heinemann.

53. Swinburne, R. G. (1973) An Introduction to Confirmation Theory, London : Methuen.

54. Urry, J. R. (1972) More Notes on Sociology's coming crisis. British Journal of Sociology, 23 246-8.

55. Von Den Berghe Dierr (1963) " Dialectic and Functionalism : Toward A theoretical Synthesis " A. S. R. october

56. Willer. D. (1967). Scientific Sociology Englewood Cliffs : Prentice - Hall.

57. Zeitlen Irving (1969) Ideology and the Development of Sociological Theory, Prentice Hall and India Private Limited New Delhi.

الفصل الرابع

التباينات القومية فى الأنشطة السسيولوجية

- ازداد الاهتمام فى الدول التى عنيت بعلم الاجتماع ، وخاصة فى الفترة ما بين الحربين العالميتين ، بالأبحاث الامبريقية التى اتسمت — فى أحيان كثيرة — بالقياس الكمى . غير أن هذا الاتجاه الامبريقى قد اضطرب أثناء الحرب العالمية الثانية ، وان كان قد استمر فى الولايات المتحدة الأمريكية بفضل تشجيع الحكومة والمنظمات الخاصة التى تهتم بالأبحاث الاجتماعية بهدف تهيئة الموارد البشرية بالبلاد . بيد انه سرعان ما عاد الاهتمام بالدراسات الامبريقية وتحقق لها ازدهارها بعد الحرب، وبخاصة الأبحاث التى أثارت اهتمام الأجيال الجديدة من الباحثين . ومن ثم يتعين علينا اللا ندهش اذا وجدنا الأبحاث الجديدة تعتمد على التجارب المنهجية التى اجريت فى الولايات المتحدة فى الفترة التى اضطرب فيها البحث الامبريقى فى أوربا . ويمكن تقرير ان معظم الأبحاث التى اجريت فى حوالى النصف الثانى من الأربعينات ، او النصف الثانى من الخمسينات فى شرق أوروبا تعد نقطة التحول فى تطور علم الاجتماع .

ولقد ترتب على ذلك ، قيام تماثل كبير بين الابحاث التى اجريت فى كل الدول كذلك ان كل مرحلة من مراحل الحياة الحديثة اما انها بعيدة تماما للتناول الامبريقى ، أو انها تأبى فى الخضوع الى هذا التناول . وقد كانت المشكلة الوحيدة التى تواجه الدول الكبرى الصناعية ، بعد توفر المناهج وطرق البحث ، تتعلق أساسا بمقدرة أو عدم مقدرة العاملين فى هذا المجال وتمويله .

ويمكننا أن نستخلص من مسح ما تم فى هذه المرحلة ثلاثة فوائد هى :

اولا — افرزت هذه المرحلة الأسس التى يتعين ان نعتمد عليها المعرفة السسيولوجية ، او بمعنى آخر التوصل الى العوامل التى يمكننا ان نفسر ضروب التباينات فى المعرفة السسيولوجية .

ثانيا ــ اصبح فى الامكان استخدام هذه الأسس أو العوامل ، واتخاذها كمصدر للمعرفة والأفكار ، المتوفرة فى عـدد قليل من الـدول وان لم تكن فى دولة واحـدة (امريكا) .

ثالثا ــ تمكن دراسة ومقارنة هذه العـوامل عالم الاجتماع فى الدول المختلفـة من أن يصبح اكثر وعيـا بالمشاكل الاجتماعيـة وطرق حلهـا التى كان فى الامكان اللا يدركها نتيجـة انغلاقه فى نطاق الاطار الفكرى القومى لمجتمعه المحدود .

وسينقسم تناولنا لهذا الفصل الى قسمين ، نتناول فى الأول موضوع الدراسة ، وفى الثـانى الوسائل المنهجية والادارية . ولسوف ينقسم القسم الاول ، على سـبيل التيسير ، الى ثلاثـة أجـزاء فقـد ازداد الاهتمام ، فى بعض الدول ، بمواضيع محددة أكثر من غيرها انطلاقا مما يفرضه الواقـع الاجتماعى على الباحثين . وفى المقـابل ، فى بعض الدول الأخرى ، نجد أن مواضيع البحـوث تتنوع بفعل التراث الثقافى العـام للدولة مما أضفى عليهـا مزيـدا من الأهميـة . ولا شك أن وسائل البحث الامبريقى المعاصر ، لسبب أو لآخر ، حـددته وشـكلته وسـيط الثقافة الأمريكى سـواء من الناحية الاكاديمية أو القومية . ومن المحتمل أن يعـاد تشكيل هذه الوسائل الجديدة ، بعد ادخالها لدول أخرى ، ثقافيا وقوميا حتى تبلغ شـكلا أفضل . ومن الجلى أنه لم يكن من السهل ، ابدا ، أن نقيـم حدا فاصلا بين هذين النمطين من الموضوعات . والسؤال الآن هل الحد الفاصل ، هنا ، هو الاعتبار الثقافى ؟ . ذلك لاننا نلاحظ ــ فى بعض الحالات ــ ان القرار النهائى كثيرا ما يكون تعسفيا .

وكثيرا ما نجد ــ فى بعض الأحيان ــ أن معالجة بعض الموضوعات تحددها المصالح الشخصية لاحد العلماء المرموقين ، أو تفرضها التسهيلات التى تقدمها بعض المؤسسات التى تناصر اتجاها علميا معينا دون آخر . ويمكن أن تدخل هذه الحالات فى زمرة الجزء الثالث من أجزاء أو أشـكال التبـاين (من حيث الموضوع) التى يمكن أن تكون تباينات عارضة . ويمكن

ان يوضح لنـــا ، تحليلا اكثر دقـــة ان التباينات العـــابرة ، اى التباينات الناشئة عن المصـــالح الشخصية ، ما هى الا نتـــاج لتراث ثقافى او لبناء اجتماعى لدولة ما . ومن الملاحـــظ اننا نفتقر ، حتى الآن ، الى بعد النظر الذى يمكننا من حسم هذا الموضوع الامر الذى يجعلنا نتركه لمن هم اكثـــر علما به .

اما عن القسم الثانى من هذا الفصل فسوف يتناول ، كما قدمنا ، امثلة مختارة دار حولهـــا الجدل لمـــا فيهـــا من صعوبات ومقاومة عاقت دون ازدهار علم الاجتماع فى بعض الدول .

تباينات فى مواضيع البحث : اهتمامات البحث واهدافه :

١ ــ التباين من حيث الموضوع :

كثيرا ما يحدث ، وخاصة فى البلدان النامية ، ان يثير اهتمام الباحثين عمليـــة تغيير البناء الاجتمـــاعى التقليـــدى ، بحيـــث اصبـــح هـــذا الاهتمام محور مواضيع بحثهم . ومن بين المشـــكلات التى اهتم بهـــا باحثوا الهند ، على سبيل المثال ، مشـــكلة الطبقات والقرية الهنديـــة . وكثيرا ما يربط هذا الاهتمام الباحث بالمشـــاكل السياسية الانسانية فى الدولة ، مثل كيفية تنظيم الادارة المركزية لمقـــابلة التناقضات والاختلافات المحلية . فقد اهتم كثير من علمـــاء افريقيـــا واليابان بالتغيرات التى شهدتها انساق القـــرابة التقليدية نتيجـــة لتاثير التصنيع . وهنـــاك ما يشير الى اهتمام علم الاجتماع بالتغيرات الاجتماعية فى ايران .

ولقد صاغ عالم الاجتماع الاندونيسى «صمردجان» S. Sumardjan اهداف علم الاجتماع فى البلدان النامية احسن صياغة توضـــح اهتمام علماء الاجتماع فى هذه الدول فيما يلى :

« لقد ازداد الاهتمام بادخال علم الاجتماع وتطبيقه ليس فقط فى الجامعات لكن ايضا داخل الجمعية الشعبية الاستشارية والحكومة . ومن المـــامول ان يساهم علم الاجتماع فى عمل مشروع الخطة لتنمية الوطن

ككل . ومما زاد من تطور علم الاجتماع زيادة الوعى بأن التطور الاقتصادى لا يمكن أن يتم بالوسائل الاقتصادية فحسب ؛ انما لابد أن يتم ذلك بفهم عميق لبناء المجتمع وخواصه ، وكذلك بفهم القوى التى تعمل داخل هذا المجتمع . ومن هنا ازداد الادراك باهمية علم الاجتماع والبحث السسيولوجى للقيام بالمشاريع العملية التى تتولاها الحكومة كجزء من مسئولياتها . وقد تضمنت المواضيع التى اهتم بها علم الاجتماع على سبيل المثال ، تأهيل المساجين والعمل على تكامل الجماعات الثقافية الفرعية التى تعيش منعزلة فى الغابات أو على الجبال فى المجتمع الاندونيسى . وهناك جهودا كثيرة تبذل لامتصاص الاقليات الى داخل الجماعات الكبرى ، كما تبذل جهودا كبيرة لتسريح بعض اعضاء القوات المسلحة ، الى الجهود التى تبذل لتنمية مجتمع التربة بالمعنى الواسع لهذه الكلمة » .

ومن بين الظواهر البارزة فى ايران وشمال افريقيا ، وهى وان لم تكن بظاهرة تشمل البلدان النامية ككل ، والتى سيكون لها ، بالتاكيد ، آثاراً كبيرة فى توجيه علم الاجتماع مستقبلا وميل علم الاجتماع الى استقطاب أو تكوين طلائع من الطبقة المثقفة فى هذه البلدان . والهدف من ذلك — فى كثير من الاحيان — محاولة الربط بين اتخاذ القرار السياسى والحقائق الاجتماعية من ناحية ، والحاجات والميول الاجتماعية من ناحية اخرى .

وكثيرا ما يتأثر اتجاه العمل السسيولوجى كثيرا ، فى الدول المتقدمة ، بالاحتياجات التى تظهر على مستوى صنع السياسة . وتحضرنا ايطاليا ، كمثال على ذلك ، لافتقادها للتوازن بين الشمال والجنوب مما ادى الى كثير من المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . ويقول «ليوناردى» F. Leonardi فى كتابه « علم الاجتماع الايطالى فى اطار علم الاجتماع المعاصر » على الابحاث الاجتماعية ان تمد الدولة ، فى اطار علم الاجتماع الشمولى ، بالوسائل التى تساعدها فى حل مشكلاتها .

وتتميز ايطاليا بالنظر لكثير من الدول بخواص معينة تمكنها من القيام بسهولة بعملية تنميط لاثراء الكتابات السسيولوجية وخاصة في مرحلة الخمسينات . ويعتبر التخلف الذى تعانى منه ايطاليا راجع الى ما تعانيه من مشاكل عدم التوازن سواء من الناحية الاقليمية ، او من ناحية وحداتها المختلفة التى تتكون منها ، وهى حالة يعرفهـا النظـام الاجتماعى لايطاليا المتباينة الأنماط الثقافية . وتتجلى صور عدم التوازن الاجتماعى فى مستوى دخل الفرد بشكل اكثر من اى مظهر او جوانب اخرى .

فقد ادى الاختلاف البين ، بين مستوى الدخل الفردى فى الشمال عنه فى الجنوب ، الى اختلاف بالغ فى الأنماط الثقافية ، كما ادى ـ كذلك ـ الى قيام حركة هجرة ضخمة من الجنوب الى الشمال الأمر الذى جعل مشكلة عدم التوازن الاجتماعى من اهم مشاكل الساعة بالنسبة لسياسة الدولة . وقد كان من نتيجة ذلك تصدى العديد من الأبحاث السسيولوجية لتلك المشكلة ، مشكلة الهجرة الداخلية وعدم التوازن الاجتماعى ، وتلى ذلك قيام مجموعة اخرى من الدراسات اهتمت بالمشاكل الأخرى المختلفة المترتبة على الهجرة الداخلية فى المناطق الصناعية المستقبلة للمهاجرين ، وكذا المترتبة على حالة التخلخل السكانى التى تترتب على الهجرة وبخاصة فى المناطق الريفية . ونضيف الى جانب تلك القضايا ، الاهتمام بمشكلة الفواصل والتباين الثقافى والاجتماعى وعلاقتها بالتطور الاقتصادى الذى تشهده البلاد .

اما فى يوغسلافيا ، فقد ادى تشجيع التجربة الاقتصادية للادارة الذاتية ـ وهى تجربة ترتبط اساسا بالعمل السياسى ـ الى تركز الأبحاث السسيولوجية فى هذا المجال . ويذهب «ماندیك» O. Mandic فى كتابه الحالة الراهنة لعلم الاجتماع وتطوره فى يوغسلافيا ، الى « لابد ان نشير ان تجربة الادارة الذاتية تعد موضوع الاهتمام الوحيد ـ تقريبا ـ لكثير من الهيئات السسيولوجية ، على الرغم من وجود العديد

من المشاكل الاجتماعية الاخرى فى يوغسلافيا . ويغني عن البيان ان هذا من شأنه ان يعكس لنا حالة التناقض التى تسم المجتمع اليوغسلافى فى الوقت الحاضر ، والتى تتجلى اساسا فى البيروقراطية والميل الى المركزية مقابل الاتجاه الذى ينادى باللامركزية والحكم الذاتى ويتطلع انصاره الى الوصول بالادارة الذاتية الى كل هيئة عاملة فى النشاط الاجتماعى .

أما فى الدول الاسكندنافية فقد استخدمت الابحاث السسيولوجية كأداة للسياسة الاجتماعية ، او على الاقل يمكن القول انها كانت تابعة عنها او مترتبة عليها . فقد ادخل علم الاجتماع فى السويد ، على سبيل المثال ، على المستوى الاكاديمى تحقيقا لرغبة السويد فى بحث مشاكل الاسرة والسكان . كما ان علم الاجتماع الدانمركى يتسم بالاتجاه اللانظرى فى انشغاله بالمشاكل والرفاهية الاجتماعية .

ويوضح « الاردت » Allardt فى تعليقه التالى ، كيفية تاثر علم الاجتماع الفنلندى بسياسة الحكومة :

> « لقيت الابحاث الاجتماعية المتعلقة بالخمور اهتماما كبيرا من قبل علم الاجتماع الفنلندى بسبب احتكار الحكومة لصناعة الخمور . ولقد ادى ذلك الى ان عددا كبيرا من الدراسات السسيولوجية التى نشرتها مراكز البحث المختلفة ، تتعلق جميعها بالخمور » .

ويضيف « الاردت » ان علم الاجتماع البلجيكى قد تاثر بدوره بالاتجاه نحو الاهتمام بالمشاكل الاجتماعية المتنوعة التائهة . ويشير « دى بيى » P. De Bie ، فى هذا الصدد ، فى كتابه علم الاجتماع البلجيكى ان الابحاث السسيولوجية اختبرت مواضيعها ، منذ الحرب العالمية الاخيرة ، من واقع المشاكل التى فرضت نفسها على المجتمع البلجيكى ، كمشاكل استيعاب العاملين الاجانب ، والمشاكل المتعلقة بالانتخابات

السياسية والممارسة الدينية ، وكذلك مشاكل العمل والعلاقات الصناعية بالاضافة الى المشاكل المتصلة بميزانيات الاسرة ونسبة المواليد وكبار السن ... الخ . ويبدى علماء الاجتماع الهولنديين ، بالمثل ، ميلا كبيرا الى تحديد انفسهم باطار مشاكل المجتمع الهولندى .

ولقد قام علم الاجتماع ، فى بعض الدول ، منطلقا من ادراك المسئولين بوجود فوارق اجتماعية حادة بين الجماعات السلالية المختلفة فى مجتماعتهم، بدراسة هذه الجماعات بحثا عن مشاكلها . ومن امثلة ذلك الفرنسيين فى كندا والطبقات فى الهند وجنوب امريكا ، وكذلك الآسيويين فى بريطانيا والهنود فى امريكا الجنوبية . فقد قامت دول كثيرة فى جنوب امريكا بتكوين معاهدة قومية تختص بدراسة الشئون الهندية وتبنى الأبحاث ذات الطابع السسيولوجى المتكاملة حيث يضم دراسات انثروبولوجية كذلك . ومن بين هذه المعاهد المعهد القومى للدراسات السلالية الهندية الذى قام بدراسة سسيولوجية هامة على جماعات من المواطنين فى اماكن كثيرة فى المكسيك . وقد نظم معهد السلالات الهندية الأمريكية ، الذى يوجد مقره الرئيسى فى المكسيك ، بعض الأبحاث الانثروبولوجية والسسيولوجية اهتمت بجماعات الوطنيين والمناطق المحلية فى هذه القارة . وقد دفع هذا الاتجاه السلالى الى تعميق الاحساس بالصراعات السلالية فى بريطانيا ، مما ادى الى نمو هذا الاتجاه فى علم الاجتماع البريطانى . ويؤكد « مارشال » T. H. Marshall فى مقاله « علم الاجتماع البريطانى اليوم » ان العلاقات السلالية تعد من اهم المشاكل الاجتماعية فى بريطانيا الآن . وقد اصبحت فى اهميتها اهم من مشاكل الفقر . ولقد عرفت دراسة الهجرات الداخلية للاقليات ، منذ زمن قريب، طريقها الى علم الانثروبولوجيا . ولقد وجد علماء الانثروبولوجيا، فى هذا الموضوع مجالا خصبا لاصقال مواهبهم ووسائلهم العلمية حتى لا يتكبدوا مشقات السفر ولقد زاد من سرعة البحث العلمى فى هذا المجال الصدمات المتكررة الناشئة عن المظاهرات السلالية ، وما ادت اليه من

فوارق اجتماعية بالاضافة الى ارتفاع معدل الهجرة ، التى بدات من الهند الغربية ثم من آسيا . ورغم ذلك يلاحظ انه لم ينشر الا قدرا ضئيلا من نتائج الابحاث التى توصلت اليها برامج الابحاث التى مولها معهد العلاقات السلالية منذ عامين .

واذا كان اتجاه البحث السسيولوجى كثيرا ما يتاثر بالتاريخ السابق لدول ما ، فان استراليا تقدم لنا موقفا مغايرا حيث لا نجد فيها ، على سبيل المثال ، اى تراث فى علم الاجتماع السياسى ، رغم انه كان يحكمها الى عهد قريب حزبين سياسيين متآلفين . ويشير «الاردت»، من ناحية اخرى ان فنلندا التى تميز تاريخ سياستها الداخلية بصراعات اكثر من اى دولة اخرى . فرغم أن الصناعة قد بدات فيها مؤخرا ، فان تغيراتها البنائية كانت سريعة ومتذبذبة ، مما ادى الى تركز ابحاث علم الاجتماع الفنلندى ، الذى انبثق عن هذه الخلفية ، حول البناء الاجتماعى وعلم الاجتماع السياسى وما ينشأ عن التغير الاجتماعى من آثار .

ويمكن أن نضيف ، كذلك ، أن بعض التباينات القومية كثيرا ما تظهر دون أن نجد لها اى تفسير . ويقول « الاردت » أن علم الاجتماع النرويجى يتمتع بنوعية ابتكارية واصالة . فعلى الرغم من التيارات والخلافات الكثيرة فيه ، فانه بالامكان التعرف بسهولة على اتجاه واحد فى علم الاجتماع النرويجى ، حتى ليمكننا القول ان علماء الاجتماع النرويجيين قد تخصصوا فى الابحاث المتعلقة بالتوقعات المرتبطة بالادوار الاجتماعية الخفية والضابطة ، وكذلك باشكال التضامن الكامن فى العلاقات بين الجماعات .

ويقرر « كابلو » Caplow فى مقالته علم الاجتماع الهولندى أن اسهامات علم الاجتماع الهولندى فى ميدان علم الاجتماع العام تجلى فى تطبيق

النظرية السسيولوجية على نطاق كبير فى الظواهر الاجتماعية مع استخدام المعطيات الاحصائية التى تظهر من استخدام الحاسب الآلى . ومعنى ذلك ان علم الاجتماع الهولندى يهتم بدراسة الاحداث الضخمة كاثر عملية التحديث على بناء الاسرة او النتائج الساسية لعملية التحضر . ويمثل هذا الاتجاه الى حد ما « فان هيك » Van Heek وجرون مان Grocnman

التباينات الثقافية :

كثيرا ما توجد علاقة وثيقة بين الشخصية القومية وبين الابحاث السسيولوجية الجارية فى المجتمع ، ويؤكد فى هذا الصدد « دن هولاندل » Den Hollandell ان هناك علاقة كبيرة بين الشخصية القومية الهولندية وبين عدم وجود نظرية كبرى Grand Theory فى هذه الدولة . ويقول « براون » R. Brown عالم النفس الاجتماعى انه ليس هناك اى ميل سسيولوجى لاقامة نظرية كبرى ، نظرا لعدم توفر الثقة فى النظريات الشمولية . وعلى العكس من ذلك هناك تفضيل للنظريات الوسيطة ، بل ولتلك الاكثر محدودية . ويتفق هذا الميل مع عدم قابلية الهولنديين للمسوح والنظم الشاملة . فكثيرا من الهولنديين يميلون للمحلية وللطرق الوسيطة وهم ، بذلك ، لا يسعون الى بناء اوضع نظم فكرية او نظريات بمعنى أدق . ويتجلى هذا بوضوح اذا ما قارنا اتجاهاتهم الفكرية بالتفكير الالمانى ومن ثم فان علم الاجتماع الهولندى لا علاقة له بالنظريات الكبرى سواء من قبيل الدولة او المجتمع او الثقافة . ومعنى ذلك انه لا يمكننا ان نتجاهل بصمات الشخصية القومية فى هذا العالم .

ويمكن القول ، بناء على ما تقدم ، أن علم الاجتماع الهولندى لا يختلف عن علم الاجتماع فى اى دولة اخرى ، اذ يعد انعكاسا للثقافة القومية التى تحدده ولا غرو ان النظرة اللافلسفية للهولنديين هى المسئولة عن الطابع الوصفى فى بحوثهم وعن تفضيلهم للنظريات الوسيطة على النظريات الشمولية التى

تكمن ، فى واقع الامر ، وراء اى نظام شامل لعلم الاجتماع ويستطرد المؤلف ويؤكد أن الشخصية القومية الهولندية هى المسئولة ، بدورها ، عن اهتمام الابحاث بالفرد ولا يستطيع الانسان أن يحدد ما اذا كانت خواص الشخصية القومية الهولندية أو الفردية الهولندية هى المسئولة عن اتجاه علم الاجتماع الهولندى الى دراسة الاتجاهات الفردية وكذلك القدرات والرغبات الفردية. ولقد دفع ذلك رواد علم الاجتماع فى هولندا الى الاندفاع للاخذ بالنظريات الجزئية ، وهى النظريات التى طرقها الكثيرون من اقتناع فى كل مكان .

ويظهر الاهتمام الزائد بالفرد فى البحث الهولندى السيكولوجى فى التفسيرات التى يستخرجونها من النتائج التى يفضى اليها التحليل الاحصائى ولقد أدى ذلك الى تجوالهم بين علم الاجتماع وبين علم النفس الاجتماعى ، ومن ثم انتهائهم الى نتائج تقريبية ليس من شأنها أن تصمد امام عجلة الزمن بأى حال من الاحوال.

ومؤدى ذلك أن علماء الاجتماع الهولنديون كثيرا ما تكون الموضوعات التى يختارونها مرتبطة بثقافتهم القومية . ويقرر « هولاندل » ان المواضيع التى جذبت انتباه الخيال السيكولوجى الهولندى ترتبط ارتباطا وثيقا بقيم ومعايير وايديولوجيات الثقافة الهولندية . ومعنى ذلك أن علم الاجتماع الهولندى لم يهتم كثيرا بالتعرض لبعض القضايا الحيوية كقضية الثورة والعنف والقوة والتفرقة العنصرية والصراعات السلالية والهجرة والاقليات والسلوك الجنسى وادمان المخدرات ... الخ . ولم تستحوذ المشاكل الحربية وقضايا الجنود المرتزقة انتباه علم الاجتماع الا حديثا جدا . ولا غرو ان اهمال علم الاجتماع الهولندى لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى هولندا لم يكن امرا عابرا بل ان هذه القضايا لم تتناسب مع الخبرة القومية والصورة الذاتية للشعب الهولندى . بمعنى أنها لم تجذب انظار الكثيرين لانتمائها الى مجالات البحث الاجتماعى غير ذات البال . ويرى « دى بيى » De Bly

أن علم الاجتماع البلجيكى يشترك مع علم الاجتماع الهولندى فى ذلك الامر .

فقد تأثر علم الاجتماع البلجيكى بالشخصية البلجيكية ، كما انه تحول عن النظريات الكبرى واتخذ موقفا نقديا فى نظريات النظم العامة ومن ثم ابتعد عن علم الاجتماع الشمولى .

ويذهب « موسكوس » C. C. Moskos ان علم الاجتماع الامريكى قد تبدلت اهتماماته تبعا للظروف المتغيرة للشعب الامريكى . فقد اهتم الامريكان أبان الثورات بدراسة الاستقرار الاجتماعى ، وحين تبدلت القوى التى تحكم الاسس الاجتماعية بدأ الامريكيون يهتمون بالعوامل السيكولوجية المسئولة عن هذا التغير ، كما اخذوا يعالجون مشاكل ذاتية الفرد ، ويناقشون فى هدوء ، النتائج المترتبة على الفروق التى بدأت تتزايد — وتظهر على السطح بين الشعوب الفقيرة والغنية .

وينتظر من علم الاجتماع ، فى بعض البلدان النامية ، أن يقوم بتوضيح وتفسير ملامح التغير المجتمعى . ويشير أحد علماء الاجتماع الايرانيين ان مهمة علم الاجتماع تتحدد فى تقديم تفسير لصور التغيرات الحديثة التى تجرى مهمة علم الاجتماع تتحدد فى تقديم تفسير لصور التغيرات معايير جديدة من اجل خدمة الحياة العملية اليومية من ناحية اخرى . ومؤدى ذلك ان وظيفة علم الاجتماع تتحدد فى مساعدة الانسان كى يرى نفسه من خلال منظور مجسم. فقد ساعد المنهج السسيولوجى فى المجتمعات الغربية على فهم نفسها تماما كما فعل علم الاجناس .

ولقد ساعد هذا التركيز على الوظيفة التفسيرية لعلم الاجتماع على اضفاء الطابع الوصفى الاجتماعى على كل من محتوى ومنهج كثير من الابحاث السسيولوجية فى بعض الدول . ولقد ظهر فى الهند ما يمكن تسميته بعلم الاجتماع الانديولوجى Indological اى علم الاجتماع « الهندى »

حسب تعبير « نار اجهى » Naraghi :

علم الاجتماع الهندى حسب تعبير « ناراجهى »

لقد حاول اتباع هذا العلم تقديم فهم للمجتمع من خلال الابحاث التى اعتمدت على الكتابات الهندية المقدسة والوثائق القانونية التاريخية . فهم يفسرون النظم الاجتماعية الهندية الحديثة فى ضوء الحقائق المستنبطة من النصوص القديمة ، وكلما كان النص قديما كلما كان التفسير المطروح على اساس منه محلا للثقة ، كما ان علم الانثروبولوجيا الذى خرج به العصر الفيكتورى كان يستخدم دون تمحيص فى اعادة تصور التاريخ الاجتماعى الهندى » .

ويتجلى تأثر الكاتب الباكستانى « افسارو الدين » لهذا الاتجاه عندما يطرح مقترحاته الخاصة بمنهج وموضوع البحث فى علم الاجتماع فى بلده :

لا نستطيع ، فيما يخص باكستان الشرقية ، ان نتجاهل ثراء وتنوع ثقافتها وتراثها ، اللذان يستطيعان تكوين اساس لنظرية اجتماعية ذات طابع محلى . ومن ثم يمكننا الحصول على فكره « عن الكل » . وسوف تساعدنا المناهج الانثرويولوجية — داخل هذا السياق — واخصها منهج الملاحظة بالمشاركة ومعرفة اللغة (وحتى تنوعات اللهجات المحلية) التى يتكلمها الناس ، على فهم البناء الاجتماعى للمجتمع الباكستانى الشرقى . لهذا يتعين على علم الاجتماع ان يستفيد من معطيات علم الانثروبولوجيا الاجتماعية معتمدا على خلفية مجتمعنا — على الاقل — لعدة سنوات قادمة . ونستطيع من خلال الحقائق

التى يتم جمعها بهذه الصوره ، ان نحاول صياغة نظرية اجتماعية لبلدنا .

وجدير بالذكر أن عدم وضع هذه الملاحظات الوصفية الاجتماعيـــة أو الانثربولوجية الاجتماعية من شانه ان يحول علم الاجتماع الذى يستجيب للاحتياجات والظروف المحلية الى علم نظرى بشكل اكثر :

قد لا يمكن تطبيق ما توصل اليه كونت وسان ســـيمون ودور كايم فى فرنسا ، أو ما توصل اليه ويسترمارك وهوبهاوس فى انجلترا ، هنا بدقة . كما لا يمكن ولا ينبغى تطبيق التعميمات التى توصل اليها توماس W. I. Thomas على ظروف باكســـتان والهند ، بل وعلى ما يخص قضايا معينة فى بعض اجزاء أوروبا. ولقد حان الوقت لمراجعة الاطار النظرى لعلم الاجتماع واختبار فعالية منهجه ، والوصول الى قرارات محددة بصـــدد ما يعتبر صحيحا وذا كفاءة عالية فى ظروفنا . وقد تحقق ذلك بالفعل فى اطار البلدان ذات الثقافات الاجنبية .

وينبغى أن نوضح ، على أية حال ، ان النظرية الاجتماعية الغربية ، والامريكية على وجه الخصوص ، لا تلائم تفسير الظواهر المحلية كما هـــو معروف. ولا يصدق ذلك على البلدان النامية فحسب . وهكذا يلاحظ «بيترسن» Petersen ، وهو امريكى ان :

اذا حاولنا أن نحلل ، ليس فقط ، المجتمعات المستقرة فى الغرب الحديث ـــ وهى المجتمعات المحددة المعالم بشكل كبير او صغير ـــ بل وكذلك المجتمعات التقليدية او البلدان المتخلفة ، فان ما قدمه بارسونز لا يعد ذا فائدة كبيرة فى هـــذا المجـــال . وهكذا فان تعريف وحدة بحث معينة على انها «نسق اجتماعى»

زعم غير صحيح ، اذ تحتوى على انساق فرعيه تتفاعل مع بعضها البعض. فهل كانت هناك «فرنسا» عام الف ميلادى، أو كانت هناك «صين» عام ١٧٠٠ ، وهل يوجد اليوم مجتمع نيجيرى أو مجتمع اندونيسى ؟ . فاذا زعمنا أن الاجابة على هذه الاسئلة هى لغم ، فانه يتعين علينا تفسير وتبرير الظواهر الاجتماعية التى تنبثق عن هذه الوحدات (مثل الصينيين الذين لم يكونوا جزء من الصين) ، أو الظواهر التى لا تتلائم مع هذه الوحدات (التأثيرات القبلية المتبقية فى افريقيا) .

ويمكن ان تؤثر الخصائص الثقافية لمجتمع من المجتمعات على مناهج البحث التى يستخدمها علماء الاجتماع . ولقد اشار « حبيب الله » Habibullah الى عدد من المعوقات الثقافية التى تواجه من يقومون بالابحاث المسحية فى باكستان الشرقية . ومن بين هذه المعوقات افتقاد الباحثين الريفيين الباكستانيين للمعرفة الوثيقة ببعض المصطلحات ، وكذا لبعض الافكار الاساسية التى ينطوى عليها البحث المسحى فى التنمية الاقتصادية مثل ، « وحدة الايدى العاملة فى اليوم » و « العمل المربح » و « الادخار » . وهناك صعوبة أخرى تواجه البحث المسحى ، فى هذا المجال ، هى انخفاض درجة السيولة المالية فى الاقتصاد ، وغياب اى نوع من المحاسبة المالية . وعلى اية حال فانه الصعوبة الكبرى التى تواجه البحث فى المناطق الريفية تتمثل فى النسبة العالية من الامية التى تعوق المبحوث عن الاجابة بدقة ، والتعبير عن افكارهم ، كما انها تحد من مقدرتهم على التفكير من خلال مقولات مجردة.

ويرتبط بهذا عن كثب حقيقة ان الناس يجدون صعوبة فى التفاعل مع الاسئلة الافتراضية التى تستخدم مرارا وتكرارا فى البحث المسحى وهكذا، كما يقول حبيب الله :

اردنا فى دراستنا لتكوين راس المال فى الزراعة ان ندرس ما يفضله المجتمع الريفى فيما يتصل بالادخار والاستهلاك من خلال طرح بعض المواقف الافتراضية . كأن نحاول التعرف على كيف يمكن لاحد المختبرين ان ينفق عشرون الفا روبية على عدة نواح كشراء ارض وماشية وذهب وبناء مساكن ، او انشاء مؤسسات او مشروعات تجارية كبرى او الايداع فى مكاتب البريد ... الخ ، اذا افترضنا انه أمكن كسب هذا المال من حصوله — مثلا — على الجائزة الاولى من الجوائز التى تقدمها حكومة باكستان . ولقد كانت هناك صعوبة جمه فى الحصول على اجابة للسؤال . كما رفض بعض المبحوثين الاجابة على موقف افتراضى مثل الحصول على مال من جائزة .

ويمكن ان تؤدي عدم المعرفة الوثيقة بالبحث المسحي فى المجتمعات النامية الى فرض بعض المشكلات .. ففى باكستان ، وخلال فترة الدراسة،

.... ادى مظهر الباحثين فى المناطق الريفية الى قيام حالة من التوجس وانتشار الاشاعات والتفسيرات المختلفة بين مختلف الافراد بنوايا مختلفة ... (فمثلا) قوبلت استفسارات الباحثين باحتقار خوفا من فرض ضرائب جديدة . وكان من المتعين تجشم عناء كبير حتى يمكن اقناع الناس بأن البحث تجريه الجامعة وليس له اية علاقة بالحكومة .

ولربما توضح لنا تلك العقبات المتقدمة ، مدى الاهتمام الذى توليه بعض البلدان النامية كمنهج الملاحظة بالمشاركة . ويمكن القول — فى هذا المقام — ان الفارق بين علم الاجتماع والانثروبولوجيا يغدو ، فى بعض الاحيان غير واضحا او قائما نوما ما . ويتجلى ذلك بوضوح فى الهند حيث يعرف علم الاجتماع الاهتمام بالانثروبولوجيا الاجتماعية ، الامر الذى جعل علم الانثروبولوجيا ينفذ الى محتويات مقررات علم الاجتماع فى الجامعات الهندية .

وهناك ما يشير الى ان علم الاجتماع فى افريقيا يجد ـ بدوره ـ صعوبة فى التحرر من تاثير علم الاجناس . وبالاضافة الى ذلك :

فانه يحذر من الاعتماد على المناهج والمفاهيم الاجتماعية الصارمة.

فما زالت اشكال النظم والبناءات والسلوك التقليدى تؤثر على الواقع الاجتماعى الذى تستكشفه . ولقد دفعت تلك الاشكال التقليدية فيما تخلفه من آثار ، علماء الاجتماع الى التحفظ فيما يتوصلون اليه من نتائج من ناحية ، ونظرا لما تحويه المعلومات الاحصائية من احتمالات الخطا . .

وهكذا نجد أن علم الاجتماع لا يناسب تماما وبصفة خاصة البحث فى المجتمع الافريقى المعاصر ، نظرا لاتجاهاته الفكرية غير الملاءمة . ويؤكد بعض المؤلفين أن علم النفس الاجتماعى ، نظرا لاسباب مختلفة ، يعد اكثر ملاءمة لهذه الشعوب بالنظر للعلوم الام : علم الاجتماع ، وعلم الاجناس وعلم النفس .

هـ ـ عوامل عرضية :

كثيرا ما تتاثر طبيعة علم الاجتماع ، فى بعض الاحيان ، فى ما بعد ما بشخصية تتصل به مباشرة مثل « جوستى » فى رومانيا ، او ر . س . ستينمتز Steinmetz فى هولندا ، او ف . زنانيكى فى بولندا . ولم يحظى البحث عن هذا العامل بدرجة بالغة من الاهتمام مثلما هو حادث فى فنلندا بفضل تاثير ى . آهمافارا Ahmavaara . ويصدق نفس الشىء فيما يتصل بتاثير « رينانو تريفيز » Renato Treves فى مجال علم الاجتماع القانونى فى ايطاليا . ويتعين أن نشير أن ظهور بعض الهيئات المعينة ، كالكلية الامريكية اللاتينية للعلوم الاجتماعية ، والمركز الامريكى اللاتينى للعلوم الاجتماعية وجماعة البحث السسيولوجى لرئيس الوزراء السابق « هيجيدوس » A. Hegedus

فى المجر ، كان له تاثير كبير على علم الاجتماع فى هذه البلدان . ويمكن أن نذكر امثلة اخرى لتاثير شخصيات او هيئات معينة فى البلدان المختلفة . لكن تكفى

هذه الامثلة القليلة لتوضيح الاهمية النسبية لمثل هذه العوامل العرضية . وكثيرا ما تستقرأ ، بالاضافة الى ذلك ، علم الاجتماع المعاصر من خلال بعض مصادره الثقافية فى دولة ما ، سواء كانت هذه المصادر هى الفلسفة او الاقتصاد او القانون أواللاهوت.

التباينات من حيث سياق البحث والصعوبات والتحديات التى تقابله :

(أ) حوار حول اتجاه علم الاجتماع .

يختلف علماء الاجتماع ، تقريبا ، من دولة الى اخرى تبعا لنوع العمل السسيولوجى الذى يتعين عليهم القيام به ، كما يختلفون ايضا فيما بينهم فيما يتصل بطبيعة العلاقة المتبادلة بين الانشطة السسيولوجية الفعلية وبين ما تتمثله تلك الانشطة من مثل أو غايات . ويشهد علم الاجتماع فى المملكة المتحدة واسبانيا نظرا لما يرتبط بهذا العلم فى تلك الدول من الادعاء بانه يركز على البحث التطبيقى أى الاتجاه العملى على حساب الجهود الاخرى التى يمكن أن تساعد على تقدم علم الاجتماع .

ولقد ذكرنا فيما سبق ان علم الاجتماع فى هولندا مشهور بميوله غير النظرية . كما وصف احد النقاد علم الاجتماع فى البرازيل بأنه يعوزه التنظيم النظرى ويتسم بغياب الجهد المنسق الذى ، من شأنه ، يسهم فى تكوين نظرية متكاملة . كذلك يثور الخلاف بين المملكة المتحدة واسبانيا حول الدور الصحيح للاستخدامات الكمية فى الدراسات الاجتماعية . ويرى بعض النقاد أن علماء الاجتماع فى أسبانيا متهمون بسذاجة استخداماتهم الكمية فى البحث الاجتماعى . وتعرف المجر صراعا مماثلا بين علماء الاجتماع ذوى الاتجاه الكمى من ناحية ، وبين العلماء الذين يهتمون بالوصف الاجتماعى وكتاب الروايات الاجتماعية من ناحية اخرى . ويدور هذا الصراع فيما بينهم حول مدى صحة مناهج كل من الفريقين فى تصوير الواقع الاجتماعى . وهناك انشقاق واضح فى هولندا حيث ظهر فيها منهج « علم الاجتماع الفلسفى »كرد

فعل ، بدا فى الظهور مؤخرا ، ضد الميول أو الاتجاهات غير النظرية فى علم الاجتماع الهولندى . ويقرر « شويتز » A. Schuts احد الرواد المدافعين عن هذا الاتجاه الجديد :

> يبدو أنه من المفيد دائما فى الوضع الحالى للعلوم الاجتماعية ان تناول اى مشكلة سسيولوجية محددة بالتحليل العميق من شأنه أن يفرز أو يؤدى ، بالضرورة الى اثارة تساؤلات اساسية لا يستطيع العلماء الاجتماعيين الاجابة عليها باستخدام مصطلحات غير واضحة مثل « البيئة » ، « التكيف » ، « النموذج الثقافى » وهكذا ..

ب ــ الصعوبات والمقاومة التى تواجه نمو علم الاجتماع و تطوره :

تتنوع المشكلات التى تواجه علم الاجتماع اليوم وتتباين تبعا لتنوع وتباين البلدان التى تنشأ فيها تلك المشكلات ، كما أن كثيرا ما نلاحظ اشتراك عدد من البلدان فى دراسة بعض المشكلات المشتركة . وجدير بالذكر ان هدفنا فى هذا المقام ليس مجرد تقديم عرض شامل لتلك المشكلات التى تواجهها البلدان المختلفة .. كما انه ليس هدفنا عرض اكثر هذه المشكلات وضوحا او الإشارة اليها « كنقص الاعتمادات المالية اللازمة لاجراء البحوث او نقص المدرسين » . لكن غرضنا ، بالاحرى ، هو عرض بعض الامثلة فى عديد من البلدان كى نوضح العوامل المختلفة التى تقف ــ حاليا ــ فى سبيل نمو وانتشار علم الاجتماع .

١ ــ صرامة البناءات الجامعية :

يثبت علم الإجتماع ــ بطبيعة الحال ــ عندما يعترف به ، فى دولة من الدول ، كعلم يدرس فى جامعتها ، بيد ان هذه الظاهرة ما زالت لا تعتبر ظاهرة عالمية ، فمثلا :

لا يدرس علم الاجتماع فى سائر اليونان حاليا الا فى كلية «بيرسى» Pierce فقط . ونظرا لان هذه الكلية لا يدرس فيها الا البنات فقط ، ونظرا لصغر حجمها واعتمادها على اللغة الانجليزية كلغة للتدريس اصبح اثرها على الحياة الجامعية محدودا جدا بالضرورة فى اليونان . ويكفى أن نقول أن علم الاجتماع كعلم جامعى غير موجود بالفعل فى اليونان . وغنى عن البيان أن علم الاجتماع لم يحرم من الشرعية التى تتمتع بها العلوم الجامعية الاخرى « كفقه اللغة ، والفلسفة وعلوم اللاهوت والقانون والتاريخ » فحسب ، بل لم يتمتع كذلك بالقبول الذى لقيته العلوم الاجتماعية الاخرى كعلم النفس والسياسة والاقتصاد .

وبالنسبة لايطاليا ، حيث نما فيها علم الاجتماع كثيرا ، ما زال هناك قدر من عدم الثقة لدى الباحثين فى العلوم الانسانية التقليدية . ولقد ظهرت مشكلة اصلاح بناءات الكليات الجامعية الخاصة بالعلوم السياسية والاجتماعية فى سبتمبر عام ١٩٦٦ عندما قدمت الحكومة قانونا بهذا الصدد للبرلمان وهكذا افرز الجدل الناشىء عن ذلك كما يقرر ليوناردى :

فرصة لتوجيه بعض الآراء المتطرفة ــ نوعا ما ــ ضد علم الاجتماع يظهر فيها المخاوف من الغزو السسيولوجى ... وترحب الكليات الجامعية من جانبها ، والى حد بعيد ، لادخال علم الاجتماع كمقررات فى لوائحها طالما ظلت هذه المقررات اختيارية ، لكنها تتخذ ، فى نفس الوقت ، موقفا انتقاديا تجاه كلية العلوم السياسية والاجتماعية ليس بسبب قيام هذه الكلية بتدريب العلماء الاجتماعيين انما لكونها تسهم ، فى نفس الوقت ، فى تدريب اخصائيين فى الادارة العامة و اقتصاديين ومؤرخين . ومن ثم فان الكلية الجديدة سوف تصبح ، فى هذه الحالة ، منافسة لكليات

الحقوق والاقتصاد والآداب . ويفسر لنا ذلك ايضا الوقف العدائى الذى يوضحه اتحاد الاساتذة الجامعيين .

وهناك مثال آخر بين سويسرا حيث يؤكد « باساند » M. Bassand فى كتابه علم الاجتماع فى سويسرا ، وهو احد المعلقين المحليين ، ان :

الصعوبات التى يواجهها علماء الاجتماع السويسريون تنبثق عن شعور غير معلن بعدم الثقة فى العلوم الانسانية التى وجدت القبول من قبل وينظر الى علم الاجتماع كمنافس او انه يواجه بسوء فهم وهو لا يؤخذ بجدية واحيانا ينظر اليه كعلم زائف .

وهناك امثلة ايضا على المناطق التى تقبل فيها علم الاجتماع كعلم ، وان ظلت النظم الجامعية التقليدية تقصره داخل حدود معينة . ويقول «كارلسون» G. Carlsson فى كتابة علم الاجتماع فى السويد ،

يبدوا ان هناك اتفاقا صامتا على ان دراسة التنظيم كتنظيم هو مجال علماء السياسة الذين قاموا اخيرا باضافة اسلوب المقابلات واساليب البحث الميدانية . ولا يعنى هذا ، بطبيعة الحال ، أن علماء الاجتماع قد نسوا قاعدة التنظيم الرسمى وهو امر يصادفونه ويذكرونه فى مجالات عديدة كعلم الاجتماع الصناعى على سبيل المثال . وهناك ما يشير ، كذلك ، الى وجود اشارات تدل على نشاط بالغ فى هذا الميدان وبصفة خاصة من جانب الاعضاء الاصغر سنا فى المهنة . كما يلاحظ ايضا ، على اية حال ، انه ليس هناك اى دراسة كبيرة للتنظيم السياسى او الدينى او العمالى او حتى التعاونى على مستوى درجة الدكتوراه وما بعدها .

٢ ــ التعليم والتدريب :

لم يدخل علم الاجتماع فى كثير من البلدان الا قريبا . فقد لعب علم

الاجتماع فى المجر ، فيما مضى، دوراً محدودا نوعا ما فى الجامعة وكانت المنح الدراسية غير كافية لتدريب علماء الاجتماع مما أدى الى تدرب هؤلاء العلماء على الاقتصاد والفلسفة بصفة رئيسية . كما لا يتوفر فى بلغاريا تدريبا خاصا لاعداد علماء اجتماع يقومون بمهنة البحث الاجتماعى . وبالرغم من أن علم الاجتماع يدرس ، فعلا ، فى الجامعات الاسترالية ، فان قلة فرص التدريب المتاحة فى تلك الجامعات من شأنه أن يعوق عملية تطور البحث السسيولوجى وغنى عن البيان أن النقص الحالى فى التسهيلات الخاصة بتدريب الاعداد المتزايدة من علماء الاجتماع يرجع ، بطبيعة الحال ، الى دخول هذا العلم متأخرا فى حقل التدريس الجامى . وتعد نيوزلندا مثلا جيدا آخر على هذه الدائرة المفرغة حيث يوجد حوالى خمسون مكانا شاغرا للتدريس . ونظرا لحداثة التدريب فى هذا المجال فانه لا يوجد الخريجون الجامعيون الذين يمكن جذبهم للتدريس بعض الوقت . ورغم أن أول منصب استاذ كرسى فى علم الاجتماع تأسس فى الدانمارك فى جامعة « أرهوس » Aarhus عام ١٩٣٧ فانه لم يتخرج أحد فى علم الاجتماع فى هذه الجامعة حتى عام ١٩٦٧ .

وتعتبر جامعة داكا مثالا محددا يبرز الفترة الطويلة التى نحتاج اليها بين أدخال علم الاجتماع وبين قيام امكانية للتدريب بشكل حديث . فقد انشأت جامعة الباكستان عام ١٩٥٢قسم لعلم الاجتماع . وعندما رحل آخر مستشار عام ١٩٦٤ لم يكن هناك فى هذه الجامعة اكثر من اربعة اساتذة شبان فى قسم الاجتماع . ومؤدى ذلك انهينقضى ما بين عشرة أعوام الى خمسة عشر عاما بين الفترة التى تستقبل فيها دولة ما خبيرا من الخارج لتدريس علم الاجتماع وبين الوقت الذىتتشكل فيه هيئة لتدريس هذا العلم من ابناء البلد .

٣ ــ البحث :

تمت الاشارة فيما سبق الى امثلة عن صعوبات قائمة تواجه علم الاجتماع وهى تتجلى بوضوح فى مجال اجراء البحوث الا جتماعية فى البلدان

النامية . ولقد وضعنا هذه المشكلات تحت عنوان«تباينات ثقافية» كالمشكلات التى تؤدى اليها الامية ، وغياب التعليل وعدم ملائمة الادوات السسيولوجية العقلية فى المجتمعات السريعة التغير ... الخ . ويمكن ان نضيف الى تلك المشكلات تلك التى لها الطابع المادى ، وعلى سبيل المثال ، فان نقص الاعداد التى تقوم بالبحث الاجتماعى فى شرق باكستان ناشىء عن ندرة الهيئات التى تقوم بالبحث الاجتماعى فى شرق باكستان ناجم عن ندرة الهيئات وجود أية هيئات: ويضيف فى هذا الصدد « حبيب الله » فى مقاله بعض مشكلات البحث الاجتماعى الاقتصادى فى المناطق الريفية :

> لما كان يتعين القيام بتدريب الباحثين من جديد لكل مشروع من مشروعات البحوث فان نتيجة ذلك هو عدم تراكم الخبرة المحصلة . ومن ثم فانه من الضرورى تكوين مجموعة من الباحثين الميدانيين يمكن الاستفادة من خبراتهم وخدماتهم .

كذلك يلاحظ فى كثير من البلدان ، وعلى سبيل المثال اكوادور ، لا تتوفر فيها المعلومات الاحصائية اللازمة الامر الذى يحول — فى الواقع — دون قيام بحوث مجدية فى مجالات عديدة .ومؤدى ذلك انه ليست هناك معرفة باستخدام الرياضيات كأداة سسيولوجية .

ومن المعوقات الرئيسية التى تقابل نمو البحث السسيولوجى حتى فى البلدان التى تتوفر فيها الظروف المادية ، فشل المجتمع فى الاعتراف باهمية تطبيق نتائج البحوث على المشكلات المتعلقة بوضع السياسة . و ما من شك ان ذلك من شأنه يحرم علم الاجتماع من الدعم المالى ومن ثم من تشجيع المصادر الحكومية والخاصة . ويوصى « مول » H. Mcl فى مقاله علم الاجتماع فى استراليا المنشور فى حوليه علماء الاجتماع الامريكيين ، ان هذا الموقف هو بعينه الموقف فى كل من استراليا ونيوزلاندا ، حيث ما زال علماء الاجتماع فى كلا نهما بعيدين عن العمل ،على نطاق واسع ، فى مجال الابحاث

المتعلقة بالحكومة والصناعة كما هو الحال فى كل من الولايات المتحدة وهولاندا. كذلك لوحظ أن قلة الفرص المتاحة امام علماء الاجتماع فى فنلنده للعمل فى المجالات الحكومية والاعمال الخاصة يخلق عقبات فى طريق نمو البحث السسيولوجى التطبيقى على الاقل .

٤ ـ علم الاجتماع والمجتمع : الحساسية السياسية :

كثيرا ما دخل علم الاجتماع بسبب محتواه والمشتغلون فيه فى صراع مع الحكومات التى تتميز بالحساسية تجاه انماط معينة من النقد الاجتماعى ذو الطبيعة السياسية . ويمكن اخذ مثال اليونان مثالا جيدا لذلك . فقد ادخل علم الاجتماع فى اليونان فى فترة مبكرة من هذا القرن كمصطلح علمى للاصلاح الاجتماعى . فقد كان من أهداف أول جماعة سسيولوجية يونانية عام ١٩٠٨ « تنظيم الشعب العامل فى جمعيات اقتصادية وفى حزب سياسى مستقل » . ومن ثم لم يكن من الغريب ، بالنظر الى النشاط السياسى والاجتماعى لهذا العلم ، ان ارتبطت التقلبات فى علم الاجتماع والعلوم المتصلة به بالتغيرات التى حدثت فى النظم السياسية . فقد تغير تنظيم مركز العلوم الاجتماعية تغيرا جذريا فى اثينا نتيجة الاحداث السياسية لعام ١٩٦٧ والمركز الذى كان قد انشىء من سنوات قليلة سابقة على أيدى الحكومة اليونانية السابقة وبالتعاون . وقد كانت الانتقادات التى وجهت الى المركز « الذى كانت مشروعات البحوث فيه تجرى تحت الاشراف العلمى لعالم اجتماع عينته اليونسكو » ذات طبيعة سياسية فى معظمها . وقد تلى ايقاف نشاطاته تحوله الى مركز قومى للبحث الاجتماعى عام ١٩٦٨ تحت رئاسة الحكومة .

ولقد ذكر معلق آخر مثال للمعوقات السياسية التى صادفت نمو علم الاجتماع فى المجر . ويقرر « جرمانى » G. Germani فى مقاله علم الاجتماع فى الارجنتين أن الاحداث الاخيرة فى الارجنتين ، حيث يواجه علم

الاجتماع بالعداء من قبل اليسار واليسار الراديكالى بل وكذا من قبل النظم التقليدية الجامعية ادت الى :

التضاء على قسم ومعهد علم الاجتماع فى جامعة بونيس ايرس ، والغاء قسم الاجتماع فى الجامعة الكاثولكية واستقالة العديد من الاساتذة فى جامعات اخرى . ولقد انبثق هذا المناخ التصارعى حول علم الاجتماع الصاعد فى الارجنتين من عوامل ثلاثة رئيسية :

١ ــ التقاليد العقلية لقطاع عريض من المؤسسات الجامعية وطبقه الصفوة الادبية .

٢ ــ الخوف وعدم الثقة العميقين لدى بعض جماعات السلطة خاصة فى الجيش فى المناصب العليا فى الكنيسة الكاثولوكية .

٣ ــ معارضة الطلبة ومثقفى أقصى اليسار .

الفصل الخامس

علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى

اكتسبت بعض الافكار السسيولوجية انتشارا واسعا حتى اصبحت جزء من اللغة الحديثة . فمن لا يعرف حقيقة ان التنظيمات الكبيرة تخلف آثارها وانطباعاتها على اسر موظفيها ، او ان الشخصيات الفردية تتشكل من خلال بناء الاسرة ، وان التعليم الرسمى للاطباء والمحامين يمتد عميقا فى عناصر سسيولوجية ، وان بعض الروايات تبدو وكانها رسائل فى التقسيم الطبقى الاجتماعي .

ويختص هذا الفصل بتتبع روابط معينة بين علم الاجتماع وبعض العلوم الاجتماعية الاخرى . وسوف نتناول فى هذا الموضوع ثلاثة مسائل هامة :

(ا) قيمة طريقة التحليل السسيولوجية الحديثة .

(ب) الاستخدام الفعلى للعلوم الاجتماعية الاخرى للمفاهيم والاساليب الفنية السسيولوجية .

(ج) الالتباء بين علم الاجتماع وعلم النفس الذى يتجلى فى اغلب الاحيان فى علم النفس الاجتماعى : .

لغة البحث الاجتماعى :

قيل انه بعد اختراع الهندسة التحليلية وحساب التفاضل والتكامل تغيرت اللغة العلمية تغيرا جذريا ، اذ اضطر كل انسان الى الكتابة بوضوح اكثر حتى وكان موضوع حديثه بعيدا جدا عن الرياضيات . واذا كان ذلك ليس صحيحا فى جميع الاحوال — كما يتضح مثلا فى الكتابات الوجودية — فان هذا الاتجاه قد غدا عاما بكل تاكيد . فعلماء السياسة والفلاسفة يكتبون ، اليوم ، بصورة مختلفة عنهم فى عصر « روسو » او حتى « ميلز » .
وبالنظر الى هذا المثال سوف اتناول الراى العام الذى يهم مجموعة من العلوم .

من الثابت أن استفتاءات الرأى العام تعطى وصفا مسهبا لاتجاهات قطاعات مختلفة من الناس فى فترات مختلفة من الزمن . وهناك خلاف كبير بشـــأن كيفية اجراء هذه الاستفتاءات ، وكيف تتوقف النتائج على الاسلوب أو الطريقة التى توجه بها الاسئلة . واود الاشارة الى ما مكنته تلك الطريقة من الوصول الى نتائج يمكن مناقشتها على مستوى عقلانى . ويمكن أن نضرب مثالا على التقدم فى هذا المجال من فقرة نقتبسها من المؤرخ الالمانى « هيرمان أونكن » فى مقالته عن « المؤرخ ورجل الدولة والرأى العام » . (الارقام الواردة فى الفقرة التالية سوف تساعد فى المناقشـــة التاليـــة) .

لا يمكن فهم ما هو غامض ومتغير عن طريق تبسيطه فى معادلة، خاصة اذا كانت اى من خصائص المفهـــوم يحتـــوى على الف احتمال من احتمالات التمايز أو التباين . ويعرف الراى العام عندما يقال ويفعل كل شىء . واذا كان من المتعين بشرح هذا المفهوم فى كلمات ، فسوف نجد انه يتكون من جمل محددة كثيرة : فالراى العام مركب من مجموعة من الاقوال البسيطة للقطاعات الصغيرة او الكبيرة فى المجتمع ، فمن الوجهة العامة (١ ، ٢) ، يعد فى بعض الاحيان تلقائى ، وفى بعض الاحيان الاخرى يشـــكل بعناية (٣) ، كما يعبر عنه بطرق عديدة ، فى النوادى، والمجالس، وفوق كل ذلك فى الصحافة والجرائد وربما فى المشاعر التى لا نعبر عنها(٤) ، لدى الرجل العادى او لدى دائرة صغيرة من المثقفين(٨) وهنا يعد عاملا من عوامل القوة الحقيقية يجب أن يضعه رجال السياسة فى اعتبارهم كشىء له قيمة سياسية(٥) ورغم اختلاف تقديره تبعا لاختلاف البلدان (٥ أو ٦) ، فانه يعد قوة تعمـــل الحكومات حسابها . ويتسمه الخبراء فى بعض الاحيان على انه يضم ميولا متصارعه (٧) ، واحيانا اخرى يظهر المشاعر البسيطة

والطبيعية لدى الناس . و في وقت آخـــر لا يعـــدو الا تعبيرات صاخبة بلا تفكير تنم على الغرائز المتوحشة (٦) ، هو يقود دائمـــا ودائما ما يتعرض للقيادة (٥ ، ٣) ، يحتقره ذوى الثقـــــافة الرفيعة ، لكنه با لرغم من هذا يحرك أيادى الناس (٥ ، ٦) ، معبر مثل الوباء(١٠) ، ذو ثروات وغادر (٩) ، مجنون بالســـلطة (مثل الانسان نفسه) (٦) ، وهو مرة اخرى مجرد كلمة يجد فيها أصحاب السلطة سحرا (٥) .

وما يهم الآن فى هذا التكوين المميز انه يمكن تحليل غموضه بســهولـــة بمجرد مقارنته بما يمكن تسميته انتشـار «الاتجاه الكامل» . ويعرف «أونكن» الرأى العام بأنه التوزيع الاحصائى للاقوال (رقم ١ و ٧) تعبر عنه قطاعات مختلفة من السكان (رقم ٢) ، ويمكن ، ويتعين ، أن تصنف هذه القطاعات حسب درة الكفاءة (رقم٨) . ويخلط بهذا التعريف عددا من المشـــكلات التجريبية نلاحظها بصورة معقدة فى الابحاث المسحية . ما هى العوامـــل التى تحدد توزيع أو انتشـار اتجاه معين فى اى وقت (رقم ٣) ؟ وما تاثير

الرأى العام على رجال السياسـة والعملية التشريعية بصفة عامة (رقم ٥) ؟ كيف تنقل الآراء وتنتشر (رقم ١٠) ؟

وهناك عنصران آخران فى هذه الفترة تكشف عن موضوعات اصبحت ذات اهمية فنية عظيمة الآن . كيف للانسان ان يختار من بين المصـــادر المختلفة والوسائل المتنوعة التى يمكن استخدامها للتاكد من انتشار اتجـــاه معين ؟ ويذكر « أونكن » الاتجاهات التى يعبر عنها فى الاجتماعات وفـــى وسائل الاعلام المطبوعة . ونستطيع أن نضيف اليوم استفسـارات وطرق بحث اخرى اكثر تنظيما . ونستطيع أن نترجم الآن عبارة « ذو نزوات وغادر (رقم ٩) باللغة الاصطلاحية التى تستخدمها اساليب البحث المختلفة بحيث نميـز بين الناس الذين يعبرون عن اتجاهات ثابتة خلال اللقاءات ، وبين هؤلاء الذين

تتأرجح اتجاهاتهم وأخيرا ، (رقم ٦) يهتم « أونكن » كما هو واضح بالمشكلة المعيارية اى بمشكلة كيفية تقييم آراء معينة .

وسوف نلاحظ كيف أن هذه الترجمة الى لغة البحث الاجتماعى تجعل من الممكن الفصل بين التعريفات وبين صياغات المشكلات الملموسة ، وهى تعزز — بذلك — عددا من التوقعات كان يمكن أن تظل مدفونة فى التراكم اللغوى القديم . ؟

الاسهام الجوهرى لعلم الاجتماع :

لا يتأتى تحقيق درجة كافية من الوضوح ، دون توفر معرفة محددة ملموسة تسهم فى تحقيق الوضوح فى النهاية . ويمكن أن نرجع مرة اخرى ، فى هذا الصدد الى الدراسات المسحية التى يمكن أن تثرينا بقدر هائل من الامثلة فى هذا الصدد . ولقد قدم لنا عدد من الباحثين ، فى دراساتهم التى نشرت حديثا ، ثبتا ضخما بطائفة المراجع الخاصة بالبحث المسحى فى العلوم الاجتماعية .

ومن بين ما أشار اليه هذا الثبت المجلد « الانثروبولوجية » التى كشفت عن وجود اسهامات ثلاثة للبحث المسحى فى مجال الدراسات الانثروبولوجية فقد قام بعض علماء الانثروبولوجيا ، على سبيل المثال ، بتطبيق دليل « كورنل » للاعراض البدنية النفسية على القبائل البدائية . كذلك اشارت هذه المجلة أن الدراسات المسحية قد ساعدت ، فى حالات اخرى، على تصحيح بعض الانطباعات الغامضة التى كانت لدى بعض علماء الانثروبولوجيا عن هذه المجتمعات . كذلك استخدم « سوتذل » استبيانا ليتحرى عن مفهوم « روث بندكت » عن « الجيرى » ، وهو مصطلح يتصل بالمعتقدات المرتبطة بآداب اللياقة الذى اشارت اليه هذه الباحثة فى تناولها لنسق القيم اليابانى . وقد انتهى « سوتذل » الى أن « الجيرى » لم يكن يدركه سوى نسبة ضئيلة من شباب اليابان ، بل أن « الجيرى » كان معروفا بصورة اقل بين المتكلمين

الريفيين التقليديين . ويقوم بعض الباحثون فى حالات اخرى ، على سبيل المثال ،باخذ ساع بعض الانطباعات والقضايا العامة للدراسة مستخدمين بعض من ادوات البحث الدقيقة . فقد قامت « فلورنس كلوكهون » بمقارنة انساق القيم لدى خمس جماعات عرقية فى الجنوب الغربى الامريكى . وانتهت من دراستها الى وجود اختلافات ملحوظة بين هذه الجماعات فى ادراكهم للوقت وتعرفهم على انفسهم ولبعض الصفات الاخرى المعتدة .

وربما تكون مجلة « الاقتصاد » (وهى المجلة التى يصدرها جيمس ن. مورجان) اقدم المجلات التى تستخدم البحث المسحى . فمؤشرات الاسعار تحدد على اساس من عينات المشتروات الفعلية كما تكشف عنها سجلات الميزانية . كذلك تعد مشكلة الحد الادنى لمستوى المعيشة فى اقتصاد الدول الغنية متغيرا هاما لانه يحدد النقطة التى يجب أن تقدم الاعانات عندها . ولا يخفى ان مفهوم الحد الادنى مفهوم سسيولوجى . (يعد ملكية جهاز راديو شيئا لا غنى عنه اليوم ككمية الخبز واللبن التى يتعين الحصول عليها) . كذلك فقد ادخلت النظرية الاقتصادية الحديثة افكارا تطلبت ، بدورها ، توفر بعض المعلومات من العملاء الاقتصاد . بين كالميل الى الادخار والاتجاه من الاستثمار . كذلك الحال بالنسبة لظاهره البطالة ، حيث اللب فهمها التعرف على الدافع وراء رغبة الناس فى الانتقال الى فرص عمل جديدة . ورغم ذلك فانه كثيرا ما تنشأ ظواهر اقتصادية جديدة يمكن ان تكفى المعرفة العادية فى مواجهتها ، كالشراء بالقروض ، وفترات الكساء التى تستمر لفترات طويلة ... الخ .

وقد وجد « دانيل كاتس » فى دراسته ، التى اهتم فيها بالجانب النفسى ، للسلوك الاقتصادى لاحد الجماعات ، انه من الضرورى الكشف عن بعض الخصائص النفسية للجماعة فضلا عن التعرف على بعض المتغيرات السكانية التقليدية . مثل كيف يكسب الناس عيشهم ؟ ، وكيف يرتبطون بالجماعات التى ينتمون اليها ؟ ، واى المعايير يتقبلونها كشىء شرعى ؟ ، واى المعايير يتبعونها فى الممارسة العملية ؟ . وانتهى الى ان كل هذه الموضوعات

من شأنها مساعدة علم النفس ، بل ربما يكون من المفيد جدا اجراء تعداد يحصى السعادة كل عشر سنوات ، ولقد تمت ، بالفعل بعض الابحاث فى هذا المجال بمعرفة « مركز ابحاث الرأى القومى » وباستخدام اموال الحكومة الفيدرالية .

ويرى « كاتس » ان بعض المشكلات الهامة لا يمكن اخضاعها للدراسة المعملية . ويؤكد فى هذا الصدد ، اهمية الكشف عن الطبيعة الاجتماعية والعوامل المحدده للاضطرابات العقلية وتاثير التنظيمات على سلوك الافراد . هنا ، يظهر مرة أخرى ، اهمية التمييز بين ما هو امبريقى وما هو طبيعى . وتلعب الدراسات المسحية التى تستخدم اسلوب العينات دورا شبيها للطرق العملية التى ادخلها باحثون امثال « تنبرجن » و « لورنتس » فى علم النفس الحيوانى .

ولقد ادى ظهور علم الاجتماع السياسى الى تشعب « العلم السياسى» ويميز ممارسوه بين الجانب السلوكى والجانب المعيارى والنظامى مما يقربه كثيرا من الجانب العملى . فمثلا كشفت الدراسات المسحية عن تعقد بناءات الراى ؛ فمثلا يمكن ان يتفنن الناس مع كل نقا طالبرنامج الاشتراكى الذى يقدمه احد النواب ، وان كانوا يعارضون الاشتراكية بقوه من الوجهة العامة . كذلك الحال ، يلاحظ مثلا ، ان الطبعة العليا الامريكية محافظة فى المسائل الاقتصادية ، على حين انها ذات عقل مفتوح فيما يتصل بقضية الاجناس ، بينما تجسد الطبقة الدنيا وضعا معاكسا تماما . (وقد تم اجراء عدد من الدراسات المتصلة بهذا الموضوع بمعرفة بعض من علماء النفس وبالتعاون مع بعض علماء السياسة .) هذا وقد اعتمد علماء السياسة حتى فترة اخيره على احصاءات التصويت الجماعى فى تحليلاتهم ويتضح أولا تناظر هذا الاتجاه لدى علماء الاقتصاد . وقد آمن كل من الاقتصاديين وعلماء السياسة فى اهمية توافر الاساس العقلانى فى عملية الاختيار السياسى أو الاقتصادى . ويوضح علماء الاجتماع ان هناك نقصا فى المعلومات المتعلقة

ببعض المسائل السياسية مما ادى الى حدوث تغيرات كبيرة فى النظرية الديمقراطية .

والسؤال الآن فاى من طرق البحث الاخرى نلحظ تداخل علماء الاجتماع مع زملائهم فى العلوم الاجتماعية الاخرى ؟ . وتتجلى الاجابة على هذا السؤال فى وجود عدد من الادوات او الطرق وان كان اهمها طريقة القياس التى ما زالت تلعب دورا عظيما حتى الآن فى نطاق هذه العلوم واذا تحدثنا عن القياس فان الفرق يتجلى بوضوح بين التراث السيكولوجى والتراث السوسيولوجى يستخدم علماء النفس عددا محدودا من المتغيرات الفردية فى قياساتهم كمتغير التوافق والقلق والحاجة الى الانجاز ... الخ ، ويحاولون التحقق من صدق مقاييسهم من خلال مدى قدرتها على التنبؤ او بناء الصدق فيها ، فان علماء الاجتماع يستخدمون عددا كبيرا من وسائل التصنيف فمثلا عند دراستهم للانتماء الى اتحاد عمالى معين فانهم يستخدمون عددا من المؤشرات المختلفة المدلله على هذا الانتماء . ومن ثم فان علماء الاجتماع تتسم موازينهم القياسية بعدد كبير ومختلف من العناصر مسترشدين بمدى ما يتوفر فيها من وضوح . وفى نفس الوقت فان عالم الاجتماع يؤمن بترابط وتداخل متغيراته التى يحددها فى اطار بالغ التعقيد ، وان ما يمكن أن تؤدى اليه المتغيرات لا يعدو أن يكون اكثر من عنصر صغير متداخل مع غيره من العناصر .

ومن الجدير بالذكر أن عالم الاجتماع لا تتسم نماذجه الرياضية التى يقدمها بالصرامه المعهودة بين علماء النفس . ويمكن أن يتضح ذلك من الفرق بين التحليل العاملى والتحليل البنائى . وقد ناقشت الدراسة التى اجراها (بودون R. Poudon) فى مقالته عن النماذج الرياضية وطرق البحث المبادىء الاساسية للقياس وقد حاول هذا الباحث توضيح طريقة كل من علماء النفس وعلماء الاجتماع فى تناولهم لنفس المشكلة .

ولقد اسهمت الدراسات السوسيولوجية للمنتخبين وللمستهلكين فى

تتبع الطرق التى يمكن تطبيقها فى المجالات الاخرى ولعل اهم هذه الطـــرق طريقة المقابلة والاستفتاء . فمثلا عالم الاقتصاد يهتم بمعرفة لماذا يســتثمر الناس اموالهم بطريقة معينة وليس بطريقة اخرى ، على حين يسعى عالـم السياسة مثلا الى تحديد تأثير شخصية المرشح فى القضايا التى يعرضها . كما يهتم عالم السكان بالبحث عن الكيفية التى يختار بها السكان المناطق التى يهاجرون اليها وتعد طريقة او اسلوب المقابلة المباشرة اكثر الاساليب مناسبة للحصول على هذه المعلومات . ومن الجدير بالذكر أن فن السؤال لا ينحصر فى مجرد الحصول على وصف مسهب لعملية اتخاذ القرار مثلا ، انما يتجلى فى قدرته بعد ذلك على وزن العوامل السببية المختلفة الكامنـة وراء قرار معين . ويتكون هذا الفن من خطوتين رئيسيتين . الخطوة الاولى تتمثل فى تحديد الهدف من المعلومات التى ستجمع والمصادر التى يمكن الحصـول منها على هذه المعلومات وكذلك تحديد خصائص المفحوص ... وهكذا . اما الخطوة الثانية فتتمثل بدورها فى استخدام اسلوب معين فى صياغة الاسئلة وتتبع كل ما يذكره المفحوص بالنسبة لكل حادثة أو قضية معينة . ولا غرو ان التصور الذى يؤكد أن هناك بعض من الناس لا تســتطيع الاجابة علـى سؤال معين ، تصورا خاطىء ويمكن ردة الى استناد موقفهم ذلك لعدم وضوح المشكلات التى تطرحها عليهم صياغات الاسئلة . ومن هنا تتجلى أهميـــة استخدام المقابلات المباشرة لمساعدة المبحوثين فى فهم القضايا التى تطرح عليهم .

وما من شك أن النتائج الاحصائية التى ننتهى اليها من جراء استخدام هذه الاساليب تكون اكثر دقة ومدعاة للثقة . وتعطينا دراسة التليفـزيون التعليمى مثالا جيدا . اذ توضح التجارب المعملية أن الناس يتعلمون قـــدرا عظيما من هذه البرامج . وقد تبين أن معظم من يستفيدون بهذه البرامـج التعليمية لا يشاهدون التليفزيون خارج المعمل . ومثل هذه القضية يجد فيها عالم الاجتماع أهمية معينه مما يدفعه الى القيام بدراسات مسحية تساعد فى التعرف على اتجاهات هؤلاء الافراد وفى نفس الوقت تسهم فى دعم كثير مـن التصورات التى ترتبط بهؤلاء الافراد وبخاصة التصورات ذات الدلالة البنائية

ويمكن أن نجد دراسة مفصلة لتحليل الاسباب المؤدية الى تباين اتجاهات المشاهدين وتأثرهم للبرامج التعليمية فى دراسة تشارلز كادوشن C. Kadushin فى دائرة المعارف الدولية للعلوم الاجتماعية .

ولقد لعب مفهوم البناءات غير الرسمية دورا هاما فى الدراسات التطبيقية حيث اهتم بدراسته وا لكشف عن آثار تلك البناءات العديد من الدراسات كدراسة كروازير Crozier عن البيروقراطية الفرنسية، وابحاث معهد تافيستوك Tavistock عن ادارة الاعمال ودراسة ميرتون عن ظاهرة التعاون والغيرة بين العلماء وما ينجم عن ذلك ودراسة تيير للبيروقراطية . وقد اسهمت هذه الدراسات فى قيام نمط من انماط الفكر السوسيولوجى لا يمكن تجاهله .

علم النفس الاجتماعى :

اتسمت المناقشات حول العلاقة بين علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى — حتى عهد قريب — بطابع غير محدد نوعا ما ويمكن ملاحظته ان الدراسات التى تناولت كل منهما فى طريقها الآن الى التنظيم بشكل اكثر. وقد اشار « كمال يونج Kimal Yong » فى مجموعة من مقالاته عن النظرية السوسيولوجية الحديثة ، الى قائمة من الموضوعات يشترك كل من الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى بدراستها مثل التفاعل ونظرية الدور والرأى العام والقيادة ... الخ ، وقد تناول « جورج جورفيتش » علم ١٩٦٠ فى كتابة « رسالة علم الاجتماع » نفس الموضوع ولكن بصورة اكثر تنظيما اذ شرح كيف يستطيع كل من العلمين ضم قوتهما معا . وقد ركز ثلاثة مقالات من مقالاته فى دراسة الوحدات الاجتماعية وقد تناول «ستوتزيل Stoetzel سيكولوجية العلاقات بين الافراد من خلال علوم ثلاثة ، علم النفس العام شاملا الفلسفة وعلم الاجتماع فى صلته بعلم الاجناس ثم علم النفس الاجتماعى وينسب « بستوتزيل » الى عالم الاجتماع الفضل فى ابرازه للعناصر النظامية التى تتجلى آثارها بشكل واضح فى العلاقات بين الافراد . ويؤكد ان الهدف من الدراسات النفسية الاجتماعية هو الكشف عن دور السلطة فى تحديد

العلاقات بين الافراد وكذلك تحديد سيكولوجية الجماعات الصغيرة .

وقد اسهم « بوريكد Bourricaud » فى تطوير هذه النقطة الاخيرة وقد اثار مسالة ما اذا كانت القضايا التى تطرحها دراسات الجماعات الصغيرة تتصل بالفعل بالدراسات السوسيولوجية الاوسع نطاقا ، ومن الواضح انه يشك فى هذا الامر . واذا كان هذا الباحث يقدر المساهمات التى قدمها باحثين مثل « بالز Bales » فيما يتصل بقضية القيادة والاجماع العام فانه يرى أن هناك فجوة ضخمة بين نموذج القياس الاجتماعى والواقع الاجتماعى ويضيف « بوريكد » ان التقسيم الطبقي الاجتماعى والشرعية السياسية من المشكلات التى لا يمكن تناولها او دراستها من خلال بحث الجماعات الصغيرة ولا يوافق « لوفيفر Lefebvre » على ما يذهب اليه « بوريكد » اذ يقرر فى دراسته لسيكولوجية الطبقات الاجتماعية ان المفهوم الماركسى للطبقة رغم انه ليس مفهوما نفسيا بل مفهوم اقتصادى فان مجرد النظر فيه وتأمله يمكن تحديد سيكولوجية الجماعات الاجتماعية المختلفة كما يبرزه وضع الجماعات البنائى . وقد حاول « لوفيفر » استنباط او استخلاص بعض الملاحظات الدقيقة عن سيكولوجية الطبقة البرجوازية وسيكولوجية طبقة العمال والفلاحين . مما تقدم نرى أن علم الاجتماع الفرنسى يهتم باشكال من التركيب الاجتماعى المعقد بيد أن ما يتناوله هذا العلم من موضوعات يتاثر الى حد بعيد بطبيعة التوجيه الشخصى للكاتب . وقد اقترب «ولبرت مور W. More » فى بحثه عن البناء الاجتماعى والسلوك من درجة منهجية عالية ويهتم البحث كما يتبين من عنوانه بالعلاقة بين علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى ، ويرى « مور » ان افعال الناس اذا كانت تتحدد الى حد ما بفعل مجموعة الحوافز الكامنه لديهم فانها تحدد كذلك عن طريق الضوابط الاجتماعية التى يمارسها المجتمع ونستطيع القول ان « مور » يحاول فى هذه الدراسة تقدير مدى الدور النسبى للمتغيرات الفردية والمجتمعية فى نطاق الفعل الانسانى كما انه يحاول الكشف عن تفاعلهما على مر الزمن وقد وضع « مور » عددا من الفئات او التنميطات يتناول من خلالها

هذين الصنفين من المتغيرات ومن أمثلة هذه الفئات أو التنميطات التى تناولها نسق القيم السائد والتقسيم الطبقى الاجتماعى ، بعض الخصائص الفرديـة كالعمر والجنس والاصل العرقى ... الخ ، وقد فرق « مور » بين نمـاذج الابنية الاجتماعية المختلفة تبعا لهذه المتغيرات بحثا عن العلاقة بين هـذه المتغيرات وبين السلوك الانسانى اى تاثيرها على السلوك الانسانى (ولقد حذفت عددا من الملاحظات القيمة التى يرفض فيها « مور » الاجتماعية المطلقة على طريقة «دركايم » أو الاختزال السيكولوجى المطلق كما يتمثل بصـورة واضحة لدى البولندى « ماليفسكى Malewsky » الذى يستلهم بعض من فكرة من الامريكى « هوماتز Homans ») .

ويطرح « مور » استنادا الى ان لكل مجتمع نسق سائد من المعايـير، بعض التساؤلات مثل : بأى من الميكانيزمات يمكن تحقيق التوافق مع نسـق المعايير السائد ، ما الذى يمكن أن يقال عن السـلوك الخـارج على هـذه المعايير ؟ - الى اى مدى تتسم هذه الاتساق المعيارية بالاتساق الداخلى ؟ وانطلاقا من هذه التساؤلات بدات تتراكم اعداد كبيرة من الموضوعات التى تحاول الكشف عن التفاعل بين الفرد والعالم الاجتماعى والكشف عن العلاقة بين البناء الاجتماعى وبين السلوك الفردى كما يتجلى فى تربية الاطفال على سبيل المثال حيث يظهر اثر الوضع الطبقى على ادراك العالم الخارجى وكذلك فى العلاقة بين البناء الاجتماعى وتشجيع الحوافز والعلاقة بين مسـتوى الطموح السائد وثقافة الفقر .

وتطرح امامنا العلاقة المتبادلة بين التعاقبات الاجتماعية والسـلوك الفردى بصفة خاصة عدة قضايا هامة . فالتجربة الشخصية فى العمـل تناظر ظاهرة التعاقب الاجتماعى . فالفعل الشخصى يعكس نمطا من التعاقب الاجتماعى الملتزم بنسق محدد من القيم الثقافية وهكـذا يسـهم التعاقـب الاجتماعى فى خلق دورة متشابكة تربط بين موضوعات البحث المختلفة فى كل من علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى .

وجدير بالذكر اننا لم نقصد من عرضنا السابق مجرد تناول القضية بشكل منهجي فحسب انما ينحصر هدفنا في الاشارة الى اهم الاتجاهات الحديثة في العلاقة بين كل من علم الاجتماع وعلم النفس فقد وجه علماء النفس الاجتماعيون على مدى الخمس عشر سنة الاخيرة اهتمامهم ببعض العمليات المعينة التي كان لها الفضل في توضيح بعض المشكلات السوسيولوجية ولسوف يساعدنا كثيرا تقييم الحالة العامة للمهارات السيكولوجية الاجتماعية القائمة قبل محاولة التعرف على هذه العمليات التي اهتم بها علماء النفس الاجتماعي .

حالة هذا الفن :

لعل اهم انطباع يلفت النظر هو الاتساع العظيم لميدان علم النفس الاجتماعي . فقد نشر « جاردنر ليندزي gardener Lindzey » عالم النفس الامريكي عام ١٩٥٤ دليل علم النفس الاجتماعي في جزئين شمل كل مجالات او موضوعات هذا العلم . ولقد ظهرت الطبعة الثانية من هذا الدليل ١٩٦٨ — ١٩٦٩ في خمسة اجزاء موسعة تضمنت الاشارة الى بعض الميادين الجديدة ونقحت الموضوعات القديمة باتجاهات جديدة . ويؤكد احد المؤلفين ان علماء النفس الاجتماعيين محظوظون اكثر من زملائهم من علماء الاجتماع الذين لا يستطيعون الافتخار بمجال مثل مجال علم النفس الاجتماعي وباتجاه تراكمي في علمهم الجمعي .

ويعتبر تقدم عالم النفس الاجتماعي في المهارات التجريبية من الامور الملحوظة بوضوح . وقد نسي علماء الاجتماع حقيقة ان ليست لديهم سوى فرص قليلة للعمل التجريبي . فاذا درسنا تاثير الاسكان على سبيل المثال يتعين علينا اما ان نقارن حالة الافراد بعد انتقالهم الى مساكنهم الجديدة بحالتهم او ظروفهم قبل الانتقال واما ان نقارنهم بمجموعة اخرى لم تنتقل من مساكنها ومن الواضح انه في كلتا الحالتين يفتقد العمل الى صفة التجريب لانه لا يتوفر لدى الباحث اي معلومات تشير الى درجة التباين بين المجموعتين . ومهما يكن من امر لا بد من تقرير ان التجربة المنظمة افضل بكثير من العمل

العشوائى نظرا لما تتسم به التجارب المنظمة من قدرة فى التحكم وكذلك قدرة نقل التجربة المعملية الى محيط الحياة او المواقف الحقيقية اما الصعوبة ذات الطبيعة النفسية الاجتماعية فهى تتمثل فى الاسلوب التجريبى الذى يتبع وكيفية استخدامه فى محيط الحياة الخارجية ولقد لخص كل من «ارونسون وكارلسمث» ماانتهت اليه تجربة عالم النفس الاجتماعى بوجه عام وقد وجها نقدا مفصلا يحاولون ان تجربة عالم النفس الاجتماعى بوجه عام وقد وجها نقدا مفصلا يحاولون ان يقيموا عليه اطارا جديدا للعمل فى محيط الدراسات التى تتناول الحقائق فى اختيار الجماعات التى تجرى عليها التجربة .

وتتركز مناقشتهم الرئيسية حول النقاط التالية :

(أ) يحاول عالم النفس الاجتماعى ان يستنتج خصائص جماعية معينة مثل التماسك او المشاعر الفردية او حالة الخوف . ويمكن لعالم النفس فى الحالة الاخيرة ان يستخدم الصدمة الكهربائية او يحذر ببساطة بأن الموقف سيكون صعبا ، بل ربما يستخدم آخرين يمثلون دور الذين يعيشون القلق . وبكلمات اخرى يمكن ادارك فكرة متصورة لدى مجموعة من الاشخاص . ولكن كيف يمكن ان نعرف ان متلقى الاختبار لا يعانون المتغير الذى يثار لديهم بصور مختلفة او ان المؤشرات المختلفة لا تعطى تأثيرات مختلفة ؟ ونصيحة المؤلف هى استخدام عدد منوع من المؤشرات ثم نرى اذا ما كان الناتج المادى مازال هو نفسه . (وهذا يشبه عالم نفس الحيوان الذى يسعى الى قياس الجوع من خلال مجموعة منوعة من المؤشرات : الفترة منذ آخر مرة اطعم فيها ، انقباضات المعدة ، احتمال رائحة الطعام .. الخ) .

(ب) وهناك مشكلة ثانية وهى التأكد من صدق الترتيب . فاذا أردت ان تدرس القدرة على الايحاء يمكن ان تستخدم اشخاص آخرين يقولون

عبارات متنوعة تختلف عما يدركه متلقو الاختبار . ولكن كيف نتأكد من ان متلقى الاختبار لن يدركوا الخدعة بعد وقت ؟

(ج) والمشكلة الثالثة هى الاختيار بين الواقعية التجريبية والواقعية العالية . اذا مثلا اراد انسان ان يعرف كيف سيتصرف متلقو الاختبار عندما تتعارض متطلبات مهمة ما مع رد فعل عاطفى ، ربما نسأل متلقوا الاختبار ماذا سيفعلون اذا كانوا متعجلين ليصلوا فى الوقت المناسب الى موعد مهم ثم راوا شخصا ملقيا على قارعة الطريق يطلب المساعدة . وهنا يكون الموقف واضحا بصورة مجسمة ولكن قد لا يكون للقصة نفسها سوى اثر ضئيل . ولناخذ فى مقابل هذا تجربة يجريها ميلجرام . فلقد طلب من متلقى الاختبار المساعدة فى دراسة اثر الصدمات الكهربية . فاعتقدوا انهم يزيدون باستمرار من استخدام التيار الكهربى وشاهدوا الناس يبدون المـا اكثر فاكثر . وكان الغرض تحديد عند اى نقطة سوف يتوقف متلقى الاختبار عن استخدام التيار . وفى الواقع لم يكن هناك تيار كهربى على الاطلاق بينما كان الناس الذين يعانون هذا فى الظاهر ممثلين . ولكن كيف يمكن لعالم النفس ان يعرف اى قدر من الناتج يعتمد على قدر الانسان الذى يعبر به الممثلون عن المهم ؟

وهذا اذن هو الاتجاه : خلق « اتجاهات » فى الناس عن طريق ترتيبات اختبار التصديق التى تخلق الالتزام وبالتالى تخلق بالفعل نموذج من نماذج السلوك . ونامل ان نجد تاثيرات مثيلة فى العالم الواقعى . ويدعم هذه الاهداف اثنان من التطورات الفنية : تصميمات المتغيرات المتنوعة واكثر من اى شىء التجارب التتبعية . ففى بداية علم النفس كانت التجربة يقصد بها اختبار تاثير مثير واحد . وفى الابحاث الاخيرة ادخلت كمية متزايدة من المتغيرات . ويحدث اندماج دقيق بين العديد من المثيرات وتقسم الموضوعات اقسامها فرعية اخرى حسب المتغيرات المتصلة بها . ثانيا ، لقد نجح علماء النفس الاجتماعيون فى البناء والاضافة للتجربة الواحدة لكى يكونوا تجربة

جديدة . واصبحت التجارب التتبعية تقوم بتقوية التفسيرات الخاصة بالاكتشافات . ولقد اوضح شاختر ان الناس الذين يوضعون فى حالة قلق شعروا برغبة متزايدة فى ان يظلوا معا . ولكن لماذا كان الامر كذلك ؟ هناك عدد من التفسيرات التبادلية ، فمثلا هناك امران : هل يعتبر وجود الاخرين مجرد راحة عامة ، ام هل يستخدم الاخرين كنوع من المستوى القياسى به يقارن الانسان مستوى قلقه ؟ ولقد وسع شاختر التجربة باضافة بدائل اخرى الى اختيارات البقاء مع آخرين وقد انتفى من هذه البدائل التكلم عن التجربة او التكلم على الاطلاق . وبهذه الطريقة يمكن حذف بعض التفسيرات الخاصة بالتجربة العامة كما امكن ايجاد تفسيرات اخرى متعددة اكثر . (وهذا التحليل معقد جد ولا يمكن ايراده هنا) .

ولقد ادخل شاختر ايضا استخدام العقاقير فى عالم علم النفس الاجتماعى . فعن طريق الحقن بالابنفرين خلق فى متلقى الاختبار شعور عام بارتفاع الروح المعنوية وفى هذه الحالات اذا راوا موقفا مضحكا فانهم كانوا يرونه على انه اكثر اضحاكا مما يراه متلقى الاختبار فى الاحوال الطبيعية . ووجهة نظره هى ان العواطف تمثل تداخل من الحالة الفسيولوجية ومعرفة مثير مناسب . ان افتخار عالم النفس الاجتماعى بمهارته التجريبية قد اصبحت تواجه التحدى . فلقد كتب روزنتال كتابا كاملا يوضح فيه ان توقعات من يجرى التجربة تؤثر على ما يصل اليه من اكتشافات . وبينما لا تتمتع كل معلومة بالاقناع الا ان الرسالة فى حد ذاتها تعتبر دراسة لدور التوقعات فى التفاعلات الاجتماعية .

وبينما احرز التجريب هذا التقدم العظيم لم يتقدم علماء النفس الاجتماعيين عن علماء الاجتماع كثيرا جدا فيما يخص « القياس » . وكما هو معتاد فى العلوم الاجتماعية يتم اتباع ثلاثة انواع من العمليات . الاول هو القياس المباشر من النمط المناقش فى الجزء الاول من هذا الفصل . ويتكون التناول الثانى من خلق مفهوم عام وتقويته من خلال مجموعة متنوعة من

التجارب بدون محاولة القياس المباشر . واذا نظرنا فى الدراسات العديدة التى تدور حول فكرة « مستوى الآمال » : يلخص احد المؤلفين التفكير الحالى كما يلى . « ان الميل الى انجاز النجاح فى موقف محدد ملموس يفترض انه وظيفة متعددة للحاجة العامة للانجاز التى يحملها الفرد معه من موقف الى موقف ، والحاجة الى وجود احتمال النجاح فى الموقف المحدد والى « الفائدة » التى يمكن تأتى من النجاح فى هذه التجربة المحددة » .

وظل نوع ثالث من المفاهيم على نفس المستوى العام لدرجة أن القياس حتى بمعناه العام تماما مازال فى طفولته . وتعطينا الجماعات المرجعية مثالا طيبا . ونحن نعرف أن الناس يقيمون الموقف ليعرفوا اذا ما كان مرضيا عن طريق مقارنته بمواقف اخرى او عن طريق مقارنة انفسهم بما يحصل عليه الناس الآخرين . وهناك كتابات كثيرة عن مفهوم الجماعات المرجعية هذه ، كما قام هيمان بتتبع تاريخ هذا بصورة جيدة . ولكن هذا المفهوم ظل يجد من يتبناه بصورة عامة وبدون تمييز . ولقد كانت هناك محاولات قلية لكشف اى الجماعات المرجعية ترتبط بمواقف محددة . وما يحدد اختيار فرد ما لجماعة مرجعية معينة .

وأثناء القيام بعمليات الرصد المفصل للظواهر الاجتماعية يبدو الأوربيون أكثر صبرا من الامريكيين . وهكذا قام البريطانيان ارجيل وكندون بالتجربة ثم بتلخيص الكتابات العامة عن ما سمياه الأداء الاجتماعى . ولقد تكونت الفكرة بعد تحليلات المهام فى الأعمال اليدوية . وتزداد كفاءة الشخص الاجتماعية بالتناسب مع ما يلاحظه من سلوك الآخرين بنفس الصورة التى ينظر فيها الى سرعته فى ترجمة هذا السلوك الى توقعات بما سوف يفعلونه بعد هذا ، ومقدرته على تكييف سلوكه الخاص مع النموذج المثالى اثناء سعيه وراء هدفه الخاص . وكنتيجة فرعية لمثل هذا البحث نستطيع تعلم الكثير من الطريقة التى يمكن ان يوصف بها اللقاء بين الناس . ويقوم المؤلفان بعرض الدراسات على اساس من الخط التالى : هناك

ملامح واضحة للأداء مثل الوضع ، المسافة والتوجيه نحو اتجاه معين والذى يميز الوضع الفعلى لمتلقى الأسئلة ، وهناك من الناحية الاخرى ملامح ديناميه ــ الاقوال ، الحركة ونوعيات النظرات وهو ما يمكن ان يكون لأى متلق للأسئلة فى حالة تفاعل مركزه ولقد وسع موسكوفيتشى هذا العمل عن طريق توضيح أن عنصر الوضع المحدد بين اثنين من الناس يقومان بتبادل الحديث يرتبط أيضا بخصائص لغوية تتعلق بما يتبادلانه من الفاظ .

ولقد انتج علم النفس الاجتماعى المعاصر تحولا فى الطريقة التى يحاول بها علماء النفس وضع السلوك الانسانى فى حدود شكلية . ففى الثلاثينات من هذا القرن وتحت تأثير المدرسة السلوكية فى ظل نموذج ال S. R. سائدا (نموذج المثير والاستجابة) : حيث تقدم البيئة المثير الذى تستجيب له الكائنات البشرية . ثم اتضح بعد ذلك بفترة قصيرة ان الناس يتصرفون بصورة مختلفة فى مواجهة نفس المثير . ثم اصبح مخطط الـ S. O. R. (المثير ــ الكائن العضوى ــ الاستجابة) مشهورا : تؤثر المثيرات على الكائنات العضوية التى لها ميول مختلفة وبالتالى تتحدد استجابتها من خلال كل من الكائن والمثير معا . وعلى الرغم من ان هذا مبسط اكثر مما ينبغى الا اننا نستطيع أن نقول ان المساهمة التى قدمها علم النفس الاجتماعى الى علم الاجتماع يمكن الوصول اليها فى نموذج الـ S. O. R. . فللكائن العضوى ميله الخاص مما يجعل الشخص يختار ما يدركه فى البيئة ، وهو ايضا يندفع من خلال دفع ذاتى بمعنى انه يبحث عن مثيرات جديدة يمكنه أن يستجيب لها . وبطبيعة الحال يعالج اى علم اجتماعى سلاسل طويلة متداخلة من التفاعل المتبادل . فالكائن يختار المثيرات الفعالة ولكنه غالبا ما يستجيب لمواقف لا يمكن تغييرها فى الحال . وعلى المدى الطويل يقوم تراكم الاستجابات الفردية بتغير الموقف الخارجى . وتتخذ هذه الخصائص النامية دور المثيرات .

واحب ان افضل عددا من الاتجاهات الحديثة فى علم النفس الاجتماعى

داخل هذه العملية النشطة وهى تتصل بهـذا البحث . وخطتـى هى أن استكمل هذا التناول بـ ولبرت. مور الذى ذكر فيما سبق. لقد قام مور بتنسيق ابعادا معينة من البناء الاجتماعى مما ساعد على تنظيم مشكلات السـلوك الانسانى ، ولكنه لم يناقش الآليات التى يمكن أن تربط البناء الاجتمـاعى والسلوك الفردى . كما انه لم ينظر فيما اذا كان علماء النفس الاجتماعيون قد نموا ابعادا جديدة يمكن ان تتصل بالبحث السوسيولوجى . وأبدأ بعرض احد هذه التناولات ، فكرة تقدير الذات . ثم سوف اعمد الى عملية خاصـة وهى تجنب التنافر وهى ما تلعب الآن دورا سائدا فى الكتابات . ولأن هذه تمثل ما يمكن تسميته بعملية دقيقة جدا فسوف اعمد بعد هذا الى تتابع أطول مدى يعرف حاليا تحت عنوان « التحويل الاجتماعى للكبار » .

تقدير الذات .

ان عالم الاجتماع الذى يحدد نفسه بمثل هذه المتغيرات : الجنس . العمر ، التعليم ـ يتوق الى طـرق اكثر خيالا يسـتطيع بها أن يصـف الأشخاص الذين يدخلون فى دراسته . ويقدم له عالم النفس الاجتمـاعى متغيرا قام بتشكيله من خلال تجارب كثيرة وهى التى تبدو متصلة اكثر واكثر بالمشكلات السوسيولوجية : فكرة تقدير الذات . ويحدد شريف فى مقالته عن « الذات » فى « الموسوعة » الجديدة وكانت هذه الفكرة كما يلى : يعـرف الطفل فى البداية بوجود « الذات » عن طريق تعلم التمييز بين جسده وحركاته هو وجسد وحركات الآخرين . وعندما ينمو الطفل يولى انتباهه الى تصرفات الآخرين ويقوم بتقييم سلوكه هو ، وتعمل الذات مع هذا الادراك الاخير على تنمية الايجو (الأنا) . وفى النهاية يكتسب الطفل مهارات وآراء وأهـداف دائمة اكثر وهو ما يخلق الشخصية . ويكون مكان تقدير الذات بالسلب او بالايجاب فى المستوى المتوسط للأنا ويقوم بالمساعدة فى تحديد منطقة عريضة من السلوك الاجتماعى .

وتقوم روث ويلى فى كتـابها عن مفهومها عن الذات بعرض نقـدى « ولأدوات قياس النظرة الى الذات » . ويمكن أن يسـأل النـاس عن كيف

يشـــعرون فى المواقف المختلفة مثل تلقى الامتحانات ومقابلة الأشـخاص المهمين ومواجهة المواقف الشخصية الصعبة . وهذه طريقة مباشرة تماما لقياس تقدير الذات . ويتبع مؤلفون آخرون طرقا ملتوية اكثر . فهم يطلبون سجلا بحالات الفشل السابقة وحالات النجاح السابقة على اساس من ان ما ترسب من مثل هذه التجارب يخلق ويدل على تقدير الذات . ويطلب مؤلفون آخرون حكما يصدره من يختلطون بمتلقى الأسئلة على افتراض من انهم على معرفة جيدة وايضا على اساس من ان رايهم الطيب او السيء ربما يؤثر بالفعل على تقدير الشخص لذاته .

ويرتبط اتجاه تقدير الذات (السلب او الايجاب) عن كثب بالأشخاص الآخرين ذوى الأهمية وسوف اعود الى هذا فيما بعد . وبالنسبة لعـــالم الاجتماع تعتبر علاقة تقدير الذات بدور الشخص الوظيفى ذو اهمية خاصة وهاهى بعض الأمثلة .

تعطينا مجموعة من الدراســـات فكرة عن كيف يتناول علماء النفس الاجتماعيون القضية . والسؤال الابتدائى هو دائما الى اى مدى ، على الأقل فى حالة الاتصال بالآخرين ، يفكر الناس فى انفسهم كأفراد او كممثلين لنمط اجتماعى معين . وافضل وسيلة معروفة فى هذا المجال هى طريقـــة « اختبار العشرين جملة » الذى صممه كوهن وماك بارتلاند ، حيث يمنح متلقى الاختبار فرخ من الورق تحتوى على عشرين مساحة فارغة ومرقمة . وهناك ارشادات بأن يكتب عشرين اجابة على سؤال « من انا ؟ » وكأنهم يقدمون الاجابات لأنفسهم . ويقوم تحليل مضمون الاجابات الى تقســـيمها الى اجابات عليها اتفاق جماعى (وتشير الى جماعات وطبقات تشير الى حالات العضوية معروفة للجميع) مثل طالب ، فتاة ، زوج — واجـــابات خاصـــة (وتشير الى جماعات وطبقات وملامح تحتاج الى تفســـير متلقى الاختبار) مثل سعيد ، ثقيل جدا ، شيق . ويختلف الناس كثيرا فى كميـــة ومضمون اجاباتهم ولكنهم يميلون الى كتابة الاجابات ذات الاتفاق الجمـــاعى اولا ، وهى التى تضع الفرد داخل نسق اجتماعى .

وحتى نستطيع الحصول على مفاهيم الذات بالنسبة للسكان بصفة عامة قام كل من ملفورد وسالزبرى باجراء اختبار معدل للعشرين جملة على عينة من الناس تمثل اليافعين من سكان ولاية ايوا . ومن الثلاث عشرة فئة من تعريفات الذات حصلت اربعة فئات على اعلى درجة لتكرار ذكرها : الحالة الزواجية والدور ، كل انواع الوضع داخل الاسرة الصغيرة والدور ، الهوية الدينية ، والوظيفة . وهناك درجة متوسطة من ذكر الجنس والعمر والاسرة الممتده والجماعات الاخرى خارج الاسرة . ولم يذكر احد تقريبا التعليم ، او الاصل العرقى او الطبقة . وتظهر هذه الاختلافات حين تحلل المعلومات من خلال الجنس والعمر ، او الجنس والعمر معا ، والحالة الزواجية والوظيفة .

ولقد وضع سمبسون وسمبسون فرضية تقول ان الناس فى الوضع الاجتماعى المنخفض ربما يركزون على جانب من عملهم يعتبر ذو قيمة عالية سواء فى المجتمع او داخل الثقافة الفرعية لجماعة العمل ثم يبنون صورة للذات حول هذا الجانب . وفى حالة شئون العاملين فى احد اجنحة العلاج النفسى ، كان الاساس الذى يبنون عليه صورة ذاتية مفضلة فى مجال العمل هو التركيز على « رعاية المريض » . ولقد تم سؤال عينة عشوائية من ١٥٪ من العاملين فى خمس مستشفيات فى كارولينا الشمالية ، وذلك لتحديد لماذا يختارون هذا العمل ولماذا بقوا فى هذا العمل . وكانت الاجابات تكتب برموز خاصة لأسباب داخلية (خاصة بالعمل) وخارجية (خاصة بالخارجين عن نطاق الوظيفة) . ثم تمت اعادة الأسئلة بعد شهور قليلة فوجد المالفون ميلا عاما للاتجاه من الأسباب الخارجية الى الأسباب الداخلية بالنسبة لهؤلاء الذين يبقون . ويدل هذا على ان الصورة الذاتية التى اكتسبوها اتت من الثقافات الفرعية داخل المستشفى حيث تعتبر العناية بالمريض اهم واجب .

وهناك مقابلة لهذا فى دراسة عن المفاهيم الذاتية لدى المشرفين والموظفين الكبار اجراها كوتس وبيليجرن ، وذلك فيما يخص مسألة لماذا

ينجز افراد بذاتهم حركة رأسية اكثر ونجاحا فى العمل مما يفعل آخرون . وتم اختبار ٥٠ من الموظفين الكبار فى ٣٠ شركة كبيرة ، و٥٠ مشرفا من الدرجة الأولى فى نفس المدن الجنوبية أو فى مدينة شبيهة وذلك باستخدام اللقاءات والأسئلة القياسية ذات الأسئلة غير المحددة النهاية وقائمة الصفات المسبقه ، وقد أوضح تحليل محتوى الصفات التى ذكرها ١٥ شخص على الأقل أن تصورات الذات لدى هؤلاء الموظفين الكبار هى : طاقة اكثر ، اليقظة ، المبادرة ، العدوان ، فهم الناس والقدرة على تحريكهم . بينما كان لدى الموظفين الأصغر قدر أصغر من كل هذا . ولقد ترك المشرفون للموظفين الكبار الصفات التى نسبها هؤلاء الموظفون لأنفسهم : وقال اغلبهم انهم لا يفضلون اذا كانوا فى حالة البدء ان يصبحوا موظفين كبار اذ تمتلىء وظيفتهم فى هذه الحالة بكثير من ما يبعث على القلق . ويرى المؤلفان ان الرؤساء يحكمون على مرؤسيهم من خلال صورتهم عن انفسهم ، بينما يضع المرؤسون صورة رؤسائهم فى تصوراتهم . ويعلل المرؤسون وجود الفرق على اساس من درجة التعليم الأعلى ومن المميزات الاجتماعية والثقافية ويرى المؤلفان ان كل من هؤلاء يعرف المكافآت والعقوبات التى تنجم عن كونهم موظفين كبار ، ولكن هذا يؤثر على المجموعتين بصورة مختلفة وعلى اساس من رغباتهم هم فى الانجاز .

لقد وصفت روث ويلى فى كتابها المذكور سابقا المشكلات المنهجية لتكوين موازين لتقدير الذات ، وتعطينا روث واحدة من اكثر المناقشات وضوحا وتجسيما فى مشكلة « صحة التكوين » — اى كيف نقرر اذا ما كان ميزان ما يمثل بالفعل محتوى مفهوم معين . لقد تقبل علماء الاجتماع هذه الموازين وطرحوا سؤال عن كيف يرتبط تقدير الذات بمتغيراتهم الأكثر تقليدية . وتعتبر اكثر الدراسات الموسعة فى هذه الناحية الدراسة المسحية لروزنبرج التى أجراها على ٥٠٠٠ طالب ثانوى امريكى فى ولاية نيويورك . وقد قام بقياس تقدير الذات من خلال الخلاف أو الاتفاق مع نقاط مثل « الرضا عن الذات » ، الذات ليست طيبة » ، « افعل الأشياء بصورة طيبة » . ويعبر تقدير الذات العالى كما ينعكس فى هذا الاختبار عن الشعور

بأن الانسان طيب بالقدر الكافى . ولقد اكتشف انه كلما كان مستوى تقدير الذات منخفضا لدى شخص ما كلما كان من المحتمل اكثر ان توجد مؤشرات فسيولوجية تدل على القلق . وكان قدر الاشتراك والمشاركة فى القيادة اعلى لدى هؤلاء ذوى تقدير الذات الأعلى ، وكان هناك تشابه كبير بين انساق القيم لدى الفتيان والفتيات . ومن خلال فحص هذه المعلومات يبدو أن قيم الطبقات الأعلى وقيم نظام التعليم القومى متماثلتان .

ويظهر احد اهم استخدامات هذا المتغير اذا راينا ان التقدير الذاتى يؤثر على طريقة الناس فى التصرف حيال مجموعة منوعة من المواقف الطبيعية او التجريبية . سوف يظهر الكثير من هذه النقطة بينما نتجه الآن الى الاتجاه التالى .

نظريات التنافر :

اذا نزلنا من الارتفاعات الفلسفية للمناقشة الى المجتمع والفرد نستطيع أن نتحرك الى مستويات مختلفة من التجسيد الملموس . كيف تتم المحافظة على القانون والنظام فى دولة ما ؟ كيف يتعاون الناس داخل تنظيم معين ؟ كيف تبقى الأسرة متماسكة ؟ وعبر كل هذه المستويات العامة هناك عامل ثابت يختص بكيفية تكيف الأفراد مع المعايير التى يتعين عليهم اطاعتها او الضغوط التى تمارسها عليهم الدعاية والاعلانات ، او متطلبات رفقائهم من الناس . فى بعض الحالات يستسلمون ببساطة لقوة شرسة او مرهفة . وربما ، فى اغلب الأحيان على اية حال ، يرضخون فحسب ، وهم يغيرون من اتجاهاتهم مهما كانت متطلباتهم ، وينتقلون الى بدائل أخرى ترضى احتياجاتهم ... الخ .

وفى هذه الناحية الأخيرة قام علماء النفس الاجتماعيون بدراسات كثيرة فى السنوات الأخيرة . وعادة ما تلخص دراساتهم ونظرياتهم تحت عنوان الحاجة الى التوافق او الرغبة فى تجنب التنافر المعرفى ولقد تحرك الاهتمام بهذا الموضوع عبر مراحل عديدة . ولقد بدأ هذا مع هايدر الذى

كان يسأل ماذا يحدث اذا اختلفت مع صديق فى مسألة معينة ؟ فهل اتنازل عن رأيى ؟ وهل تنحل صداقتنا أم هل نجد طريقة اخرى للتوازن ؟ ولقد ذهب هايدر بالفعل الى انه يوجد ميل فى التوازن . وقام بعض اتباعه بترجمة افكاره الى رياضيات نظرية الوصف . وفيما بعد ، قامت مجموعة من علماء النفس حول اوزجود باختبار هذه المسألة بصورة ملموسة اكثر ذات طابع كمى . فاذا افترضنا أن شخصا احترمه اخبرنى بشىء يتناقض مع احد اقتناعاتى الشخصية . يقنعنا اوزجود من خلال مناقشته وتجاربه بأن التالى سوف يحدث : اننى سوف اقوم بصنع نوع من التراضى ، فأحب هذا الشخص بقدر اقل نوعا ولكننى اقترب قليلا نحو رأيه . ولن يكون الناتج متوسطا بين كل من الرايين لاننى سوف اتحرك الى مدى ابعد نوعا ما فى النقاط غير المتطرفة من مكانى السابق . واخيرا ، خرج فستنجر بنظرية عامة عن التنافر ، والتى بالرغم من كونها غامضة نوعا فى صياغتها الا انها كانت عظيمة جدا فى عموميتها لدرجة انها قد اصبحت على اغلب الاحتمالات اكثر الموضوعات مناقشة وبحثا بين علماء النفس الاجتماعيين فى العقد الأخير . وفى الواقع تعد الكتابات فى هذا المجال قد اصبحت كثيرة جدا . بحيث لايمكن تلخيصها بصورة وافية . وتختص سته مقالات على الاقل من المقالات المنشورة فى «دليل علم النفس الاجتماعى »مساحة لهذا الموضوع وهى تقوم فى اغلب الاحيان باقتباس نفس العشرين تجربة كلاسيكية فى نصوصها المختلفة . ويستطيع القراء الذين يعرفون عن هذا الموضوع بعض الشىء أن يقراوا العرض الذى كتبه مالك جوير : وبالنسبة للذين يقراون عن هذا الموضوع لاول مرة سيجدون افضل مقدمة فى الفصل الرابع (ص ٧٢ — ١٤٤) فى كتاب ماليفسكى .

فقد كان عالم الاجتماع يعرف منذ فترة طويلة مشكلة التنافر وتدور كتاباته عن افكار مثل صراع الادوار ، الضغط المتبادل ، عدم الاتساق المعيارى ، الخ . ويحلل عالم النفس الاجتماعى كيف يتصرف الفرد فى موقف متنافر . ولكن فلتكن الفكرة مذكورة فى علم الاجتماع الشمولى منذ فترة طويلة

بدقة بعد ان يقوموا بشراء شيء ما . ولقد قدمت التجربة ادلة ملموسة على هذا كما اضافت تعديلات مهمة فى موضوع التنافر .

والنمط الثانى لدى زاجونك يمكن ان يسمى « الرضوخ المفروض » . فمن الناحية التجريبية من الممكن حث الناس على التصرف ضد اقتناعاتهم الشخصية . ويؤدى هذا ايضا الى التنافر ، وتعطينا المناقشة المنظمة توقعات مدهشة وذلك مع استخدام تجربة اخرى ايضا . طلب من متلقى الاختبار القيام بعمل ممل ثم دفع لهم اجرهم كى يجندوا اشخاصا آخرين لهذا العمل عن طريق اخبارهم بأن هذا العمل شيق فعلا . ثم تم سؤال « الكاذبين » لمعرفة كيف يتذكرون التجربة الاصلية . فتذكر من دفع لهم مبلغ كبير من المال لجمع اشخاص جدد التجربة الاصلية كشيء ممل . اما الذين دفع لهم قدر ضئيل فقد رفعوا من شأن ما يتذكره من العمل الاصلى . ونظرية هذا هى : ان مافى الكذب من سوء قد زاد كثير عن المكافاة الصغيرة ، وبالتالى نعين على هؤلاء الاشخاص ان يغيروا من ذاكرتهم حتى يحصلوا على بناء معرفى متوازن . ولكن الاشخاص الذين تسلموا مبلغا كبيرا لم يشعروا بالتنافر بين العمل السيء والمكافاة . وبنفس الطريقة يجد الطلبة الذين يتعين عليهم تحمل محاولة صعبة للسماح لهم بالدخول للمشاركة فى مناقشة مملة موضوعيا — يجدون المناقشة اكثر تشويقا مما تفعل مجموعة مثيلة دخلت صعوبة وذلك من اجل التجربة .

ومن وجهة نظر علم الاجتماع تعتبر التجارب القريبة من مشكلات الدعاية شيقة بصفة خاصة . فما الذى يحدث لهؤلاء الذين يعرضون الى « معلومات تتناقض مع آرائهم الشخصية » ؟ ويصبح الدليل التجريبى غامضا نوعا فى هذه الحالة . فهم يبحثون فى بعض الاحيان عن المعلومات حتى يدعموا اقتناعاتهم القديمة ، وفى بعض الاحيان يبدأون فى استكشاف خطوط جديدة من الفكر . ومما يعتبر مهما بصفة خاصة فى هذا السياق التجارب التى يزداد فيها التنافر عن طريق التجربة . فمثلا قد يطلب من بعض الاشخاص ان يقدموا الى اشخاص آخرين وضعا لا يتفق معهم هم

أنفسهم — وهذا يقترب من حالة الرضوخ المفروض . ولقد نوقشت دلائل هذا الموضوع للاستفادة بها فى نظرية تغير الاتجاهات ولقد قام بذلك عدد من المؤلفين . وخصصت مجلة الراى العام عددا كاملا للحالة الراهنة للنظرية النفسية فى تغير الاتجاهات (المجلد ٢٣) .

وتطرح مجموعة اخيرة من التجارب مسألة « التوقع الفاشل » . وهناك دراسة مشهورة قام بها فستنجر وزملاؤه الذين اظهروا الى اى مدى يمكن أن تذهب مجموعة دينية صغيرة حين تفشل توقعهم بنهاية العالم . ولقد اصبحت القصة خالدة فى رواية كتبها اليسون لورى . وقد اصبح بالامكان الحصول على تجارب اكثر دقة وفى الفترة الأخيرة. قام ارونسون وكارلسميث بتحديد مهام معينة لافراد تجاربهم بعد أن تم التوقع بمدى فعالية هؤلاء الاشخاص فى الاداء . ثم اعطى هؤلاء الاشخاص معلومات عشوائية عن الى الى اى مدى نجحوا فى اختبار حقيقى . ويناقش المؤلف باسهاب كيف تام الطلبة بتكييف انفسهم مع المفارقات التى كان يمكن أن تحدث . وقام ماليفسكى بتعديل هذه التجربة كثيرا وقد ادخل تقدير الذات كمتغير اضافى . ولقد نشر بحثه فى مجلة بولندية ولكن ماليفسكى قدم تلخيصا مفصلا فى كتابه عن السلوك والتفاعل (ص ٨٨ — ١٠١) . وفى نهاية احد التجارب سأل الطلبة عن رايهم فى الحكم الذى قدر مستوى ادائهم . ويعتبر ملخص هذه الاكتشافات مثالا جيدا لما اسمى التجربة المتعددة المتغيرات . وهى فى نفس الوقت توضح لنا اهمية دور المعدل الذى يقوم به تقدير الذات . ولقد ركز ماليفسكى على الاشخاص ذوى الراى السيء عن انفسهم وعلى التوقعات القليلة وعلى من حصلوا على ترتيب اعلى فى الاداء من قبل الحكام . فبدلا من أن يرفعوا من تقديرهم السيء لانفسهم وهو عميق جدا فى تاريخهم الشخصى قرروا أن الحكام لا يعرفون ما الذى يتحدثون عنه .

ويعتبر اقوى المدافعين عن نظرية التنافر البحث عن التوافق المعرفى كشيء من الحاجات الاساسية مثل الجوع والجنس . وليس من الغريب اذن ان نشأ الجدل العنيف حول التفسيرات المضادة على اساس من نظريات

الحوافز الاخرى . ولقد شن مالينوفسكى هجومه على مستوى عام جدا . فهو يشعر أن النظريات التقليدية عن التعليم يمكن ان تفترض فى داخلها معظم هذه الاكتشافات . واشترك مؤلفون آخرون فى المناقشة على مستوى محدد تماما فقد اظهرت بعض التجارب أن باستطاعة الناس العيش فى سعادة داخل خطة غير متناسقة ، كما اظهر كتاب آخرون أن التنافر قد يكون حالة بهيجة من السعادة اذ انه يدفع الانسان الى استكشافات جديدة . ويقترح آخرون ترجمة الاكتشافات فى نظرية عن الاحباط . ومن ناحية وجهة نظر علم الاجتماع لاتبدو هذه المناقشة مهمة . وما يهم على اية حال هو ان عالم النفس الاجتماعى قد اكتشف عددا من النماذج التى تكتشف حتى هذه النقطة .

تنشئة البالغين :

اخترنا فى الصفحات السابقة اثنين من الافكار الحديثة قدمها علماء النفس الاجتماعيون للتحليل السوسيولوجى . وكل منهما تقدم آليات قصيرة المدى نوعا : الرغبة فى تحسين تقدير الانسان لذاته وتجنب تجارب التنافر . ولكن الحياة لا تتكون فقط من حوادث غير مترابطة . وهناك ايضا اتجاه واضح وهو دورة الحياة التى يجب أن يتداخل اثناءها الفرد والمجتمع . ولقد حاول الفلاسفة اعادة تكوين البناء الافتراضى لهذه العلاقة . وافترض علماء النفس التحليليون ان هناك عداء اساسى بين احتياجات الأفراد ومتطلبات المجتمع . بينما رأى علماء النفس الاجتماعيون عملية تفاعل أطلقوا عليها اسم التحويل الاجتماعى .

وفى صورتها العامة لا تعتبر هذه مشكلة جديدة . لقد كانت طريقة نمو الأطفال ودخولهم فى ثقافة الكبار مشكلة فى البحث التجريبى لفترة طويلة . والفكرة الحديثة تذهب الى ان هذه العملية لا تتوقف مع الطفولة ولا مع المراهقة . فمن المتعين على الكبار التغير باستمرار بينما يواجهون اعمالا جديدة فى حياتهم الخاصة والمهنية . ولقد كان التركيز على هذا التحويل الاجتماعى للكبار مركزا للانتباه فى الولايات المتحدة بصفة خاصة . فمعتدت

اجتماعات ونشرت آراء . وقام أحد رواد هذا الاتجاه ، أورفيل بريم رئيس مؤسسة رسل العلمية ، بصياغة برنامج لما يمكن تسميته حركة على أساس من الخط التالى .

اذا اضطر فرد لمواجهة توقعات القيام بدور الكبار فعليه أن يكتسب ثلاثة اشياء : المعرفة والمهارة والاستعداد فى المجالين السائدين فى السلوك والقيم . ويتضح هذا فى رسم بريم :

	السلوك	القيم
المعرفة	أ	ب
القدرة	ت	ث
الدافع	ج	ح

فى كل حالة يشير العمود الأول أ ت ج للأداء المعلن ويشير الثانى ب ث ح للأهداف أو الغايات . وهكذا تعنى الخانة ج أن الفرد يستطيع التصرف بالطريقة المطلوبة بينما تعنى الخانة د الاشارة الى مقدرة الفرد على امتلاك اهداف معينة . وتذهب نظرية بريم العامة الى أن التنشئة الاجتماعية فى الطفولة يركز على القيم بينما ينتقل التركيز فى حالة الكبار الى عمود السلوك . ويذهب بريم الى أبعد من هذا يضرب المثال على التنشئة الاجتماعية فى الطفولة بالخانة (ح) حيث يتعلم الطفل كيف يغير احتياجاته البيولوجية الأساسية الى حوافز ثقافية من خلال توقعات الآخرين ذوى الاهمية ، وتمثل الخانة (أ) مركز التنشئة الاجتماعية للكبار ونشاطاتهم حيث يعلم المجتمع الطرق التى يوافق عليها للحصول على القيم التى تعلمها المرء فى الطفولة . وفى الحالات الاستثنائية فحسب تتصل التنشئة الاجتماعية للكبار بالتغيرات فى القيم أو الحوافز . وهكذا تنشأ بعض النظم التصحيحية للمحافظة على الأفراد الذين يظهرون نقصا واضحا فى الحوافز المناسبة للاتجاه للأهداف الاجتماعية . وتشير الخانة (ح) الى هؤلاء المتمردين أو الثوار أو المنشقين الذين قد ينتهى بهم الأمر الى المستشفى أو السجن .

وتركز دراسة المنحرفين مثل متعاطى الخمور والعقاقير والمجرمين جزئيا على التجارب المبكرة ـ الأسر التى تعرضت للطلاق وعصابات

المراهقين .. الخ وعلى اية حال قد ينظر الى هذا كعملية تنشئه خاطئة للكبار ، وخاصة فكرة اعادة التنشئة الاجتماعية . وليس من الغريب اذن ان مخطط بريم يمكن استخدامه لوضع نظام جديد فى مشكلة الانحراف .

يمكن من الانماط الستة لمحتوى التنشئة الاجتماعية اشتقاق ستة انماط من الانحراف ، وهكذا تصبح الخانة (ت) الفرد الذى لا يستطيع ان يتوافق مع السلوك المفروض بينما الخانة (ث) تصف الفرد الذى لا يستطيع التثبت على القيمة المطلوبة (بالرغم من انه من المفترض انه يرغب فى فعل هذا على عكس الخانة (ح) . وهذه انماط خاصة نستخدمها من اجل التوضيح بالرغم من انه من المحتمل ان معظم حالات الانحراف تشمل كل من القيم والسلوك وايضا مركبات من المعرفة والمقبرر والحوافز ومثالنا على ذلك محب السلام اثناء وقت الحرب والذى يعرف ما المتوقع من الجندى ولكنه لا يرغب فى حمل السلاح ولا يرغب فى النجاح فى قتل العدو .

ويمكن تصنيف الدراسات الفعلية تبعا لاطارات معينة عريضة لمحتوى . فهناك دراسة منظمة حول مشكلة العمل . وقد قام الكاتب السويسرى كورت لوشر بتلخيص كثير من الكتابات المتصلة بهذا فى مقالته المحددة عن عملية التنشئة المهنية ، ولقد كان الامريكيون مهتمين كثيرا بالطريقة التى تشبع بها المهنة المرشحين لها بالاتجاهات الضرورية لاداء عملهم — وهى مشكلة تختلف عن مشكلة تعلم مهارات المهنة . وهكذا لاحظت رينيه فوكس ان طلبة الطب يجب ان يعدوا لتقبل حقيقة انهم سوف يواجهون كثير من حالات المرض حيث يكون التشخيص غير مؤكد او ان العلاج لم يوجد بعد . وفى بحثها عن التدريب نظرا لعدم التأكد » والمؤسس على ملاحظتها فى كليات الطب واليوميات تشرح الطرق العديدة التى يمكن بها مواجهة مثل هذه المشكلة .

ويبدو علماء النفس الاجتماعيون السوفييت وقد تحيروا بصفة خاصة بمشكلة تخص مجتمعهم . تهتم الدولة الاشتراكية باتاحة اكبر الفرص لنمو

شخصية كل فرد . وعلى الرغم من هذا يتعين اداء العمل وهو ليس شيئا فى حد ذاته . وتستطيع على هذا الخط ان نستشير تقريرا مفصلا عن حلقة دراسية عقدت فى موسكو عام ١٩٦٦ عن « الشخصية والعمل » . كان نصف المساهمين من الغربيين (بما فيهم الولايات المتحدة) وكان النصف الآخر من البلدان الشيوعية . وقد ركز هؤلاء الاخيرون على اهمية الابداع فى العمل ، وعرف الابداع بانه المقدرة على تقديم وسائل اكثر فعالية فى العمل او اختراع منتجات او اساليب جديدة وكل هذا يتجه نحو خير الجماعة . ووجد مثلا انه عندما درب العمال الشبان على ادراك الاهمية الاجتماعية لعملهم زادت مقدرتهم الابداعية .

وهناك مجال اخر للتركيز وهى تختص ببعض القضايا فى دورة الحياة . فمن المتعين ان يكون الزواج خطوة هامة فى التنشئة الاجتماعية للبالغين . فيجب على الازواج والزوجات تعلم كيف يتكيفون مع شركائهم . ومعظم ادلة التغير فى نماذج الحياة ادلة غير مباشرة . وهكذا يظهر لنا فنسنت أن الازواج الشبان يغيرون درجاتهم فى اختبارات السيطرة وتقبل الذات بعد الزواج . ويكون التغير كبيرا بالنسبة لهؤلاء الذين يتزوجون فى فترة مبكرة . ولم تبد مجموعة اخرى عادية من الافراد مثل هذا التغير فى فترة مشابهة .

وحمل الاطفال مرحلة مهمة اخرى فى عملية التنشئة الاجتماعية للبالغين . اذ يتعين للوالدين الحديثين ان يتصرفوا كمعلمين وقدوة فى السلوك . وهناك كتابات قليلة واضحة فى هذا المجال . وربما يكون من الجدير بالذكر هنا ان نشير الى كتاب تومان الذى اسس نوع من حساب الاسرة عن طريق تصنيف الناس حسب ترتيب ميلادهم داخل اسرهم . ومن ومن هذا حاول ان يتنبأ بنجاح زواجهم : مثلا الرجل الذى ينمو ولديه اخت صغرى تصرف بأفضل صورة مع زوجة اصغر تربت مع اخ اكبر . وقد اوضح حود ان الطلاق يطرح مشكلات معقدة فى عملية التنشئة الاجتماعية

بالنسبة للنساء ، وتؤسس لهم معـــايير قليلة خاصـــة بسلوكهم الجنسى والاجتماعى .

والمرحلة الثانية من الحياة والتى لها دراســـات كثـــيرة هى مرحلة التقاعد . فلقد لقى هذا الموضوع اهتماما كبيرا بسبب الامتـــداد الطويل للحياة المادية بعد عمر قبول وظيفة . ومن المستحيل ان نســـتطيع عرض الكتابات الكثيرة فى هذا المجال او الجدل الذى دار حوله او كيف نستفيد من المتقاعدين او نجعل من التقاعد شيئا مثمرا . ومن حسن الحظ ، فـــدم لنا باحث نمسوى عرضا جيدا للدراسات المتصلة بهذا وحنى نضيف نقطة أخرى ، لقد كانت المرحلة الاخيرة من عملية التنشئة الاجتماعية للكبـــار ، وهى الموت ، موضوعا لدراسة واحدة على الاقل قام بها عالم اجتماع بالاشتراك مع عالم نفسى اجتماعى .

وتشير بعض الاشارات الاخيرة الى الجهود التى بذلت لتكوين اساس نظرى لنشاطات التنشئة الاجتماعية للكبار . ويخرج أقدم تناول سيكولوجى من كتابات شـــالوت بولر التـــى كتبت فى عـــام ١٩٣٢ كتابا عن الحيـــاة الانسانية كمشكلة نفسية . ولقد درست المراحل التى يتعلم خلالها الاطفال التوافق مع بيئتهم المادية والكائنات الاجتمـــاعية التى تحيط بهم . وكان هدفها استنباط ما تكتشفه على حياتهم ككبار . الى اى فترة يظل الفرد يهتم فقط بتوسيع مجال نشاطاته ؟ متى يبدأ فى استعراض حياته من خلال معناها بالنسبة اليه ؟ متى يصل الى مرحلة التعليل النهائى ؟ ولقد كانت المادة الخام التى اعتمدت عليها هى اليوميات المنشورة ، ولكن الكثير من طلبتها اتجه الى طرق فرعية شيقة مثل اللقاءات والاسئلة مع من يعيشـــون مع سائقى ملاجىء الشيخوخة او رسائل الاشخاص المعروفين فى قمة نجاحهم.

ويعرض أحـــد التناولات القريب جـــدا من علم الاجتمـــاع للتنشـــئة الاحتلامعية للكبار على انه التغيرات التى تحدث للناس بينما ينتقـــلون بين

السياقات النظامية المختلفة . ففى المواقف الجديدة نقابل اناس جدد ذوى ذوى توقعات مختلفة عنا ، علينا ونحن نواجه متطلبات جديدة بتعين الوفاء بها . ومهمة البحث هى دراسة كيفَ يكون لأى تنظيم اجتماعى ، من اى حجم أو درجة تعقيـــد ، تأثيرات على نفـــوس من يعملون داخله . ومن المحتمل ان تأتى الامثلة التى تثير الطريق للغربيين بصفة خاصة من البلدان ذات التركيبات الاجتماعية غير العادية أو حيث يحدث التغيير الاجتماعى بسرعة . ففى اليابان ، وحسب ما يقول دى فوس ، لا تتصل الحاجة الى الانجاز بالكفاح للحصولَ على النجاح الشخصى ولكن بشـــعور قـــوى بالتضامن مع الاسرة الممتدة . وهناه اخبار عن تغيرات كبيرة فى روســـيا عندما دخلت مجموعات عرقية متخلفة فى سياسة الحكومة الصناعية ، كما قدمت دراسات عديدة عن وضع المراة الذى تغير فى اجزاء مختلفة من البلد وذلك فى المؤتمر الدولى لعلم النفس عام ١٩٦٦ .

وهناك مجموعة ثالثة من المواقفَ النقدية اسماها هيبنتس هارتمـــان « التنشئة الاجتماعية الاقية » : حركة الناس للأمام والخلف بين الخدمة العامة والاعمال الخاصة وحركة النساء بين الزواج وتجـــربة الهجـــرة ، والتوافق مع تجارب النجاح والفشل . وكل هذه موضوعات تتطلب اهتمام كل من عالم الاجتماع وعالم النفس الاجتماعى .

ولقد استبعدت من هذا التقرير مناقشة تدريب الاطفـــال . ولكن لجانب واحد من هذا الموضوع صلة بما نقول : الاختلافات الطبقية . يعيش طفل الطبقة الدنيا فى عالم به قليل من الاثارة الخارجية وقليل من المرادفات اللغوية — وهى عوامل تجعل النمو العقلى التالى صعبا . ومن المحتمل اكثر لطفل الطبقة الوسطى أن يعاقب بحجب الحب عنه مما ينمى لديه خصائص العقاب الداخلى . ويكشف لنا التصنيف الدقيق للكتابات فى هذا المجال الكثير عن مثل هذه الملامح التى يمكن ان تؤثر على التنشئة الاجتماعية للشخص اليافع .

يجتمع عدد صغير من الناس من أجل تجارب كثيرة فى علم النفس حتى يمكن معرفة الاختلافات فى رد الفعل . وحين يمنح التفاعل اهتماما خاصا وكذلك الطريقة التى يكونون بها تنظيمات مؤقتة ، فى هذه الحالة نتكلم عن ديناميات الجماعة . والعمل على اساس من هذا الاتجاه يعتبر مهما جدا وواعدا بالنسبة لعلماء الاجتماع . وعلى اية حال يمكن أن ينظر الى الجماعة الصغيرة كمجتمع دقيق جدا حيث يمكن أن تدرس المشكلات السوسيولوجية وكأنها تحت الميكروسكوب . ولكن عند استعراض كتابات العشر والخمس عشرة سنة الماضية يعوقنا التقطيع والتقسيم فى كل هذا الميدان . وتعتبر التجربة فى ديناميات الجماعة موضوعا مثاليا لرسالة الدكتوراه ، وبالتالى فان لدينا عدد كبير من الدراسات المبعثرة التى تبدو وكأنها تقاوم التكامل المنظم . ومثل هذا التركيب صعب ولكنه مثمر بالفعل اذا نجح . وهناك مثال لامع وهو مناقشة روجر براون فى ٦٠ صفحة لنتيجة تجربة واحدة .

وكانت نقطة البدء : يخاطر الافراد الذين يتعين عليهم الاختيار بين قرارات خطيرة بقدر اكبر حين يكونون عندما يتخذون قرارهم فى جماعة وليس وحدهم . ثم يتقدم لتفسير هذه الفرضية على ضوء كل معرفة متاحة فى كتابات ديناميات الجماعة . وحين تناقش ابدائل المخلفة نجد أن الاشخاص الاكثر اهمية هم الذين يتخذون مخاطرات أكثر . ويتضح من هذه الاعتبارات أن قدرا معقولا من المخاطرة يعتبر مناسبا داخل السياق الامريكى . فاللجوء الى المخاطرة يجد ترحيبا اكثر من الحذر .. الخ . وليس من الغريب أن يصل براون الى نتيجة ان التجارب التى بوسعها أن توضح الامر تماما مازالت لم تجر بعد .

ومازال هناك اتجاه واحد وسط هذا التيار من ديناميات الجماعة يستحق الاهتمام عن جدارة . فلقد حاول علماء النفس الاجتماعيون كثيرا

جدا أن يبتعدوا عن دراسة العلاقات المتبادلة الثابتة بين الابعاد المختلفة لسلوك الجماعة الصغيرة . ولقد حاولوا باستمرار كشف ظهور ملامح متصلة بهذا ، كما نجد أن التركيز على الطريقة التى تحدث بها الامور ملحوظا فى كل المجالات التقليدية فى ديناميات الجماعة . وسوف اعطى امثلة موجزة من مجالات (أ) حل المشكلات ، (ب) القيادة ، (ح) الادراك الاجتماعى. ولقد عالجنا فيما قبل المشكلة المهمة الخاصة بتغير الاتجاهات ، وفيها يتضح أن الملمح المهم هو التركيز على التنافر المعرفى ومحاولات حله .

(أ) يتضمن السؤال الخاص عما اذا كانت الجماعات قادرة على حل المشكلات اكثر من الافراد تحيزا ايديولوجيا بالاضافة الى ما فيه من اهمية علمية .خلاصة : فسوف يعلى من قدر التعاون الجماعى اذا ثبت أن جهود الجماعة افضل . وبما ان هذا ليس حقيقيا فى كل الظروف اتجه الاهتمام الى الظروف التى تكون فيها الجماعة افضل من الافراد المتوسطين فى حالة العزلة . ولقد الهمت تجربة خصبة اجراها بافلاس الابحاث المتصلة بهذا الموضوع الى فترة ما . فقد استطاع بوسائل فنية عديدة أن يتحكم فى الظروف التى يستطيع داخلها ان يتواصل اعضاء الجماعة وقد اثر هذا على مقدرة الجماعة فى حل المشاكل بصورة مشتركة .

ولقد ساعدت دراسة حديثة على توضيح كيفية حدوث هذا التأثير المتصل بالظروف المحيطة . فلقد كان المتغير المؤثر اكثر من غيره فيما يبدو هو كيف تنظم الجماعة عملها . واتضح هذا من خلال عدة طرق . فاذا تلقى الافراد مثلا معلومات غير ذات صلة بعملهم الرئيسى فان اداءهم لا يتحسن ، ولكن هذا التحسين يحدث فى حالة الجماعة . والتفسير هو أن امتصاص المعلومات غير ذات الصلة يسمح للجماعة بتحسين عملها معا . كما أن الاداء الافضل الذى يرجع الى شبكات اتصال معينة يختفى بعد مرور بعض الوقت ، وبالتالى يبدو هذا مفسرا لأن الفرق بين الترتيبات المحيطة المختلفة يرجع الى الصعوبة فى تنظيم التعاون اكثر مما يرجع الى الكفاءة فى حل المشكلات .

ومن بين التطورات الجديدة التى تعد جزء من هذا الاتجاه الدينامى التعديل فى دراسة حل المشكلات من خلال الجماعات بعد تجربة بافلاس تتجلى فى التحليل الدقيق للمهمة التى يتعين اداؤها ـــ سواء كانت بتجميع الحلول الجزئية التى يؤديها اعضاء الجماعة كل على حده ، وسواء كان بالامكان الاستفادة من المعرفة الممتازة لقليل من الاعضاء .. الخ (مثلا بحث موسكوفيتشى) . وفى دراسات حديثة اكثر تقدمت حوافز أعضاء الجماعة المقدمة . والاسلوب التجريبى هو خلق موقف من « العواطف المختلطة » . فهناك جائزة تعطى لكل الجماعة حين نجاحها ، وفى نفس الوقت هناك جوائز للافراد لأدائهم الفردى . ومن الممكن ان تنظم المكافآت بحيث يتناقض الاداء الفردى مع الجماعة ككل . وعن طريق تغيير هذا يمكن تغيير الرغبة فى تبادل المعلومات وبناء التأثير المتبادل . وبالتالى يمكن ملاحظه هذا التغيير . وقد قام كل من كيللى وتيبوت بتلخيص دقيق للدراسات المتصلة بهذا .

(ب) وتقدم لنا مسائل القيادة مجالا هاما حتى نستطيع ان نرى حالات الطوارىء فى الجماعات الصغيرة . ففى هذه الحالة يتعين على الناس الذين لم يتقابلوا من قبل ابدا ان يتعاملوا مع تقسيم العمل من جديد ومن المقدر ان تظهر تقسيمات اساسية وتوزيع للقيادة . ويكفى مثال واحد لايضاح كيف يثرى مثل هذا المفهوم تناولا ثابتا اكثر . لقد كان معروفا منذ زمن طويل ان الناس فى مراكز السلطة تنسب اليهم صفات عالية كثيرة فى كثير من النواحى. ولكن ماذا يعنى هذا ؟ هل لا يمكن للأشخاص الاكثر جاذبية ان يكونوا فى مركز البسطة ؟ قام مولدر بتكوين شبكات اتصال حيث استطاع بصورة عشوائية وضع اناس مختلفين فى مناصب تعطيهم معرفة عالية . وبالتناسق مع هذا اعتبر الآخرون ان كل من يشغل منصبا هاما اكثر جاذبية يمكن العمل معه اكثر من غيره .

ولقد استكملت التجارب العديدة فى هذا المجال داخل ما يسميه الباحث

الاسترالى جيب نظرية القيادة التفاعلية . وهو يلخص هذه الافكار والادلة فى عدد من النقاط ونقتبس منها اثنتين :

٥ ــ تمثل الجماعة نسقا من التفاعل يظهر داخله بناء من خلال نشوء توقعات ثابتة نسبيا لسلوك كل عضو . ومثل هذه التوقعات تمثل التعبير عن العلاقات التفاعلية لكل شخص مع جميع الآخرين وهى تتحدد بالفعل من خلال ادراك الآخرين لصفاته الشخصية ولأدائه فى مناسبة سابقة .

٥ ــ ان القيادة ليست سوى واجهة واحدة وان كانت فى اغلب الظن اكثر الواجهات وضوحا فى هذه العملية الاكبر من التمايزات الاخرى . والقيادة هى ببساطة هذا المفهوم مطبقا على الموقف الذى يحدث فى الجماعة حين ينتج عن التمايز فى الادوار ان يؤثر طرف أو آخر فى التفاعل على افعال الآخرين فى تناول مشترك للاهداف .

ويجب أن نذكر هنا بعض ابحاث بال . فهو يلاحظ انه فى كل جماعة يوجد نوعان من القادة ــ الشخص الكفء والشخص الطيب الذى يساعد الآخرين . ولقد وجد انه فى بداية مهمة ما يفضل القائد الكفء ولكن فيما بعد يعلو قدر القائد الذى يساعد الآخرين . وهنا تكمن عناصر الاساس السيكولوجى « لدوره عناصر الصفوة » . ولقد عكس بال ايضا فى خط تأملى اكثر مشكلة التوازن الاجتماعى : ويجعل التقسيم المستمر لعمل الجماعة اكثر كفاءة ولكنه يجعل العضو الفرد اكثر تلقا . ما هو القدر الأعلى من التوازن ؟ وكيف تمكن معرفته ؟ وكيف ينجز ؟

ويؤدى انتشار ثراء العمل الخاص بالقيادة وحل المشكلات لدى الجماعات ــ يؤدى هذا الى توقع أن أى شخص يقوم بتنظيم العمل لفريق ما أو ارشاد نشاطات الجماعات يستطيع أن يستفيد من هذه المادة . ولكن على قدر ما اعرف لم يقم احد بالوصول الى هذه الاستنتاجات . ومن الأصعب ايضا ان نحصل على اسلوب لا يجمع بين اشياء متناثرة ككتاب

للطهى ولكن يضم بين المنفعة وبين التوثيق بالحقائق ».

(ج) واخيرا لدينا مجال الادارك الاجتماعى : كيف يرى الناس بعضهم البعض وانفسهم . وكيف يتاثر فيهم مشاعر الآخرين وتقديرنا لذاتنا بسلوك الناس نحونا ، ولقد درس هذا لفترة طويلة . وليس من الغريب اذن أن افكارا جديدة قليلة جدا قد ظهرت فى العقدين الماضيين . ولكن هنا ايضا ابتعد الناس عن وصف الخصائص المستمرة للتفاعل وبداوا الاهتمام بالعمليات المستمرة حالا ، فهم يركزون على خصائص الاخذ والعطاء المتوالية فى التفاعل ويهتمون باكتشاف النظام والترتيب اللذين يكمنان داخل هذه العملية السائلة . وهكذا يعطى روزنتال معلومات متخيلة للمعلمين عن أن تلاميذهم يحملون استعدادات تعليمية كبيرة . ولقد اظهر اختبار تالى أن هؤلاء الذين خضوا للعمل المعملى يظهر اختلافا كبيرا حين يسمى من لديهم متاعب نفسية باسماء التلاميذ فى ضوء جديد واولوهم عناية خاصة . وبنفس الصورة يبدو ان تختلف عن الآخرين سواء حدث هذا من خلال رفقائهم او المتخصصين مثل المستشارين او الاطباء .

ويتضح العنصر التفاعلى كاتجاه فى اساليب البحث . ولقد قدمت لنا طرق مورينو فى القياس الاجتماعى الاساليب الاولى لوصف العلاقات الاجتماعية داخل جماعة مى الجماعات . فقد كان الافراد يسألون عن اى اعضاء الجماعة يحبون ، ومع من يفضلون العمل . ولقد انتشر هذا الاسلوب كثيرا . والصورة الجديدة منه الآن هى طرح مثل هذه الاسئلة : هل تعتقد أن من تختاره يعرف انك تفضله ؟ وعل يبادل هو هذا ؟ وقد قام موكور وزملاؤه وآخرون ببحث المشكلات الاحصائية الناجمة عن هذا .

وقامت مجموعة من علماء النفس البريطانيين بتطوير هذه الفكرة حتى اصبحت نسقا معقدا تماما . فهم يحصلون على نوعية المعلومات هذه التى تشبه ما يجرى اثناء مباراة البنج بونج من كل من الزوج والزوجة وهو ما يسمح بوجود معلومات مركبة غير محدودة . وحسب رايهم يعتبر هذا

مفيدا فى استشارات الزواج .. فعدم الادراك المشترك للزوج والزوجة من من الناحية الاجتماعية يرتبط بالمشاكل الزوجية ، ويمكن أن تكون المعلومات عن هذه الفروق فى الادراك ذات نفع لمستشارى الزواج .

ملاحظات ختامية

لقد انارت ديناميات الجماعة الكثير من اهتمام فى بلدان غربية اخرى وهو غالبا ما يدخل فى سياق محلى خاص . فمثلا يهتم الباحث الفرنسى ميزور ليف بصفة خاصة بالتطبيق على التدريب الوظيفى والعلاج . كما يدحض الباحث الالمانى هوفنشاتر نظرية لوبون عن الجماهير التى لا حول لها تحت رحمة قائدها — وهو اهتمام واضح بتجربة هتلر الاخيرة . ويقوم الباحث البريطانى شيروت بمناقشة الجماعات التجريبية الموازية للجماعات الدائمة الصغيرة مثل الاسرة ، والغرفة والجيرة — وهو اهتمام يرتبط بوضوح بالاتجاه البريطانى للاهتمام بالتخطيط المحلى . والاهتمام بالمحتوى على اية حال نمطى : الاتصال داخل الجماعات الصغيرة ، والترابط ، والقيادة ، حل المشكلات الجماعية .. الخ . وتميل الدراسات المتصلة بهذا الموضوع التى اجرها المؤلفون الثلاث الى الاشارة الى نفس مجموعة الدراسات . واكثر من هذا تأتى معظم الامثلة من الولايات المتحدة . واذا اخذنا مقالة محددة ، نجد انزيو ومارتن يكتبان عن الافكار الرئيسية الخاصة « بضوابط الجماعة » وهم يعرضون ٨٠ مرجعا منها ٦٠ مرجع امريكى ؛ واكثر من هذا يشير العديد من المراجع الفرنسية الى ملخصات تعتمد بدورها على نفس المادة الاجنبية . ويخصص ستوتسل ٢٣ صفحة من كتابه « علم النفس الاجتماعى » « للاقسام داخل الجماعات الصغيرة » ، وكل مراجعة الاربعة والاربعين ما عدا سبعة تختص بالمنشورات الامريكية . وحتى سبروت الذى يحذر من أن الاكتشافات الامريكية قد لا تكون كاملة التطبيق على التجارب البريطانية الا انه لا يستطيع أن يهرب من هذا الاتجاه ، ومن السبعين مرجع التى يشير اليها يأتى عشرون فى المائة منها فحسب من

خارج الولايات المتحدة ، هذا على الرغم من أنه يركز على أنه قد درس الموقف فى روسيا والصين .

وعدم التناسب هذا يصح ايضا بالنسبة لقطاعات اخرى من الكتابات الخاصة بعلم النفس الاجتماعى . ويظهر الخطر الواضح هنا فى أن الثقافة الخاصة بالولايات المتحدة تؤثر على نتائج التجارب والدراسات المسحية فنحن نحتاج الى تكرار لنفس الدراسات فى بلدان كثيرة ونحتاج ايضا الى أبحاث جديدة تنبع من مواقف قومية محددة . ومن حسن الحظ أن هناك بداية جديدة كما نرى فى عرض تاجفل وهو مسهم بريطانى فى كتاب دليل علم النفس الاجتماعى . وكعضو أمريكى فى لجنة دولية يسعدنى أن مشروع مرشال لعلم النفس الاجتماعى ذى الاتجاه السوسيولوجى قد قدم مساهمته. واكثر من هذا لا يحتاج الانسان الى أن يكون ديجوليا لكى يأمل أن تذهب الايام القديمة واننا نستطيع أن ننتظر ظهور جماعات قومية ذات سيادة ، تسعى كل منها بطريقتها الخاصة الى هدف مشترك .

المحتـــويات

الصفحة

الاهـــــداء ٥

مقدمة الطبعة العربية ٩

مقدمة المحرر ١١

مقـــدمة المؤلف ١٣

الفصل الأول ١٩

الاسهام الفكرى للتحليل المسمى فى علم الاجتماع العام

لغة الخواص الموضوعية ٢٣

العملية الاجتماعية ٢٤

الاطر الاجتماعية ٢٨

التنميط الاجتماعى ٣٣

العمليات الماكروسيسيولوجية ٣٧

الفصـــل الثـــانى ٥٣

علم الاجتماع الشمولى

قائمة ببليوجرافية ٦٣

الفصل الثـــالث ٦٥

البحث عن نظرية

نظريات المدى المتوسط ٦٩

الماركسية ٧٤

دراسة الاتجاهات ٧٧

بحث العمل ٧٨

بحوث الجماعات الصغيرة ٨١

مشكلات النظم الاجتمـــاعية ٨٤

الاتصال المتبادل ٨٨

الاتجـــاه الوظيفى ٩١

النظم الاجتماعية ٩٥
مشكلة الصراع ٩٧
الميكانيزمات الوظيفية ٩٩
النظرية النقدية والدياليكتيكية ١٠١
البنسوية ١٠٦
قائمة ببليوجرافية بأهم مؤلفات النظرية فى علم الاجتماع ١١٣

الفصل الرابع ١٢١
التبيانات القومية فى الأنشطة السسيولوجية

تباينات فى مواضيع البحث : اهتمامات البحث واهدافه ١٢٥
التباين من حيث الموضوع ١٢٥
التباينات الثقافية ١٣١
التباينات من حيث سياق البحث والصعوبات والتحديات التى تقابله .. ١٣٩
(أ) حوار حول اتجاه علم الاجتماع ١٣٩
(ب) الصعوبات والمقاومة التى تواجه نمو علم الاجتماع وتطوره ١٤٠
١ ــ صرامة البناءات الجامعية ١٤٠
٢ ــ التعليم والتدريب ١٤٢
٣ ــ البحث ١٤٣
٤ ــ علم الاجتماع والمجتمع : الحساسية السياسية ١٤٥

الفصل الخامس ١٤٧
علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى

لغة البحث الاجتماعى ١٤٩
الاسهام الجوهرى لعلم الاجتماع ١٥٢
علم النفس الاجتماعى ١٥٧
تقدير الذات ١٦٦
نظريات التنافر ١٧٤
تنشئة البالغين ١٧٥
ديناميات الجماعة ١٨١
ملاحظات ختامية ١٨٦

قائمة ببليوجرافية بمؤلفات
سلسلة علم اجتماع العالم الثالث

١ ــ **الاتجاهات الاساسية فى علم الاجتماع** ، بول لازرسفيلد ، تعريب الدكتور احمد النكلاوى والدكتوره عواطف فيصل مكتبة نهضة الشرق ــ القاهرة ١٩٨٠

٢ ــ **السياسة الاجتماعية فى البلدان المتخلفة** ، آرثر ليفنجستون ، تعريب الدكتور احمد النكلاوى مكتبة نهضة الشرق ــ القاهرة ١٩٨٠

٣ ــ **الانسان والتحديث : قضايا فكرية ودراسات واقعية** ، تأليف الدكتور احمد النكلاوى مكتبة نهضة الشرق ــ القاهرة ١٩٨٠

٤ ــ **المدخل السسيواوجى للاعلام** ، تأليف الدكتور احمد النكلاوى ــ مكتبة نهضة الشرق ــ القاهرة ١٩٨٠

٥ ــ **دراسة المدينة مدخل نقدى** ، تأليف الدكتور احمد النكلاوى ، دار النهضة العربية ــ القاهرة ١٩٧٦

٦ ــ **مختارات فى علم الاجتماع والانثروبولوجية** ، تأليف الدكتور احمد النكلاوى ، دار النهضة العربية ــ القاهرة ١٩٧٦

٧ ــ **القاهرة دراسة فى علم الاجتماع الحضرى** ، تأليف الدكتور احمد الكلاوى ، دار النهضة العربية ــ القاهرة ١٩٧٤

٨ ــ **التغير والبناء الاجتماعى** ، تأليف الدكتور احمد النكلاوى ، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٧

٩ ــ **المنهج فى دارسة التغير الاحتماعى** ، تعريب الدكتور احمد النكلاوى والدكتوره عواطف فيصل ، تحت الطبع .

١٠ ــ **سسيولوجيا الاتصال** ، تعريب الدكتور احمد النكلاوى والدكتوره عواطف فيصل ، تحت الطبع .

١١ ــ **الاتصـــال والنمو الحضرى** ، تأليف الدكتوره عواطف فيصل ، دار النهضة العربية ــ القاهرة ١٩٨٠

١٢ ــ **علم الاجتماع الثقافى** ، تأليف الدكتور جلال مدبولى ، دار النهضـــة العربية ــ القاهرة ١٩٧٩

١٣ ــ **تخطيط وتنمية المجتمعات الريفية المستحدثة** ، تأليف الدكتور جلال مدبولى ، دار النهضة العربية ــ القاهرة ١٩٧٩

١٤ ــ **علم الاجتماع المهنى** ، تأليف الدكتوز كمال عبد الحميد الزيات ، مكتبة نهضة الشرق ــ القاهرة ١٩٨٠

١٥ ــ **النظرية فى علم الاجتماع** ، تأليف الدكتور كمال عبد الحميد الزيات ، مكتبة نهضة الشرق ــ القاهرة ١٩٨٠

١٦ ــ **علم الاجتمـــاع النقدى : دراســـة فى النظرية الاجتماعية** ، تأليف الدكتور احمد النكلاوى والدكتور كمال عبد الحميد الزيات ــ تحت الطبع [*]

رقم الايداع ٣٤٣٦ / ١٩٨٠

دار عطوة للطباعة

٩ شارع المتفلوطي بجنينة ناميش